فلفل الصغير

آلان مابانكو

◆ المؤلف: آلان مابانكو
◆ العنوان : فلفل الصغير
◆ ترجمة : عادل أسعد الميري
◆ طبعة آفاق الأولى 2021
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢٠ / ١٤١٣٦
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 279 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

آلان مابانكو

فلفل الصغير

رواية

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

مابانكو، آلان.

آلان مابانكو : فلفل الصغير - ترجمة: عادل أسعد الميري

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021

280 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 14136 / 2020

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 279 - 7

1 - الأدباء (روايات)

2 - مابانكو، آلان

Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d'aide à la publication de l'Institut français et du Programme Taha Hussein de l'Institut français d'Égypte.

حظي هذا العمل بدعم من برنامج دعم النشر الخاصة بالمعهد الفرنسي وبرنامج طه حسين بالمعهد الفرنسي بمصر.

INSTITUT FRANÇAIS
Egypte

Petit Piment

Alain Mabanckou

©Éditions du Seuil, 2015

الفصل الأول

لوانجو

(١)

كان بابا موبلو شخصية فريدة من نوعها، ولا شكّ في أنه كان أحد أهم من تركوا علامات في حياتي، خلال السنوات الطويلة التي قضيتها في دار الأيتام. كان طويل القامة جدًّا مثل شجرة تفّاح، ويزيد طوله باستعماله حذاء من العلامة التجارية سالاماندر، التي كانت قد اشتهرت في الستّينيات لأنها بكعب مزدوج، وكنا درجنا على تسميته حذاء الأدوار المتعدّدة. كان يرتدي قمصانًا طويلة فضفاضة بيضاء اللون، يشتريها من محلات (بولو)، وأصحاب تلك المحلات هم من أكبر تجّار غرب أفريقيا، ومحلاتهم الرئيسة تقع في السوق الكبير في مدينة بوانت نوار *Pointe Noire* أي الرأس الأسود.

شكله هذا جعل بعض التلاميذ الأشقياء يطلقون عليه اسم (خيال المآتة)، الذي يوضع في حقول الذرة والقمح لإخافة الطيور. كان هذا اللقب ينطبق عليه تمامًا أثناء عبوره فناء دار الأيتام الواسع، خاصة في

الجو العاصف، حين تلعب التيّارات الهوائية العنيفة بأوراق الأشجار المحيطة بسور الدار. في كل إجازات نهايات الأسبوع كنا ننتظر وصوله بفروغ صبر، ثم نبدأ جميعًا في التصفيق الحار له، في اللحظة التي نلمح فيها سيّارته الصغيرة القديمة، لحظة دخولها من الباب الرئيس للفناء. كنا نسخر من تلك السيّارة القديمة قائلين إنها مصابة بالتهاب رئوي مزمن، بسبب ارتفاع صوت محرّكها الذي يشبه صوت حشرجة مريض بداء الصدر.

كان هذا القسّ سائقًا رديء النوع جدًّا؛ لأنه يظل يتخبّط بسيّارته في أركان الفناء، حتى يتمكّن أخيرًا من ركنها. فهو يحاول خمس أو ستّ مرّات تحريك سيارته في اتجاهات مختلفة، قبل أن يحقّق مراده، في حين كان يمكن لأي سائق بعينين مغلقتين، أن يفعل هذا في مرّة واحدة. لم يكن الأب مستمتعًا بمغامرته الغريبة المتكرّرة في ركن سيّارته، لكن كلّ ما كان يبحث عنه هو أن تكون مقدّمة السيّارة واقعة تمامًا في مواجهة باب الفناء الرئيس، حتى يسهّل على نفسه الحركة عند الخروج بها، عائدًا إلى المنزل الذي يقيم فيه في حيّ ديوسو، على بعد حوالي عشرة كيلومترات من ملجأ الأيتام.

داخل مجموعة مباني دار الأيتام، كان المبنى الرئيس مخصّصًا لفصول الدراسة، في حين كان أحد المباني الثانوية مخصّصًا خلال يوم السبت لدروس الأب. عند دخوله هذا المبنى، كنا نقف في دوائر يكون هو مركزها، أثناء قيامه بتوزيع الأوراق التي تحمل نصّ كلمات الأغنية التي سنتعلّمها. كنا معتادين على أسلوبه هذا في التدريس عبر الغناء، وكانت

أغلب موضوعات الأغنيات تدور حول معتقدات أسلافنا وأساطيرهم الضاربة في عمق التاريخ، مع الاستعانة أحيانًا ببعض الأغنيات، التي كتبها المبشّرون العاملون في الإرساليات الأوروبية حول بعض أساطير المسيحية. هذه المرّة حدث بعض اللغط بين التلاميذ، بسبب أن كلمات الأغنية هذه المرة، كانت مكتوبة بلغة اللينجالا، التي لم يكن يتقنها إلَّا بعض الطلبة.

رغم هذه العقبة إلَّا أننا انكببنا كالمعتاد، بمثابرة ودأب خلال ربع ساعة، على دراسة نصّ الأغنية، إذ حاول مَن يتقنون اللينجالا، مساعدة مَن لا يقتنونها. عندما تخفّف أغلبنا من الإحساس بثقل المهمّة، بدأنا على الفور في ضبط طبقة الصوت التي سنغنّي منها، بحيث تكون طبقة ملائمة لأصوات الأغلبية، وفقًا لتوجيهات الأب موبلو، الذي كان غالبًا ما يختار طبقة غليظة منخفضة للفتية، في حين تكون طبقة غناء الفتيات خفيفة عالية، وبالتالي يكون بين الطبقتين ما يسميه الأب (فرق أوكتاف)، ثمانية أصوات بين دو الغليظة ودو العالية.

ثم يبدأ هو في الغناء من طبقة الذكور، بعينيه المغلقتين وبابتسامة على شفتيه، وهو يتحرّك بسرعة بين الصفوف ليصل إليه كل صوت مشارك في الغناء، وكانت حركته السريعة المتقنة قد جعلتنا نعتقد أنه أسرع رجل على الكرة الأرضية. ثم ها هو ذا وقد تعرّق تمامًا، بسبب هذه الحركات السريعة بالإضافة إلى حرارة الجوّ، فيبدأ في مسح جبهته بظهر يده، وقد انقطع نفسه، هنا يعطينا الإشارة التي نفهم أن معناها هو أنه قد جاء دورنا في الغناء، وعلينا الآن وقد أتقنّا اللحن والطبقة ونطق

الكلمات، أن نرفع أصواتنا إلى حدّها الأقصى، ليتوقّف هو عن الغناء ويكتفي بالمتابعة والتوجيه.

فإذا لاحظ على بعضنا التردّد أو الخجل، يبدأ في تشجيعنا بكلماته قائلًا: «تقدمّوا أيها الفتية، لا تخجلوا، فأنا أريد أن أسمع أصواتكم جميعًا حتى لو اعتقدتم أنها أصوات رديئة، حرّكوا أكتافكم إلى أعلى وإلى أسفل لتوسيع الصدور واستقبال كمية أكبر من الهواء، الذي ستخرجونه أثناء الغناء، تخيّلوا الآن أن هذه الأكتاف هي أجنحة، وأنكم تستعدّون للطيران».

كنا خلال ساعات صباح السبت ننسى مَن نحن وأين نعيش، ننسى أننا أيتام نسكن دار أيتام. كانت فرقعات ضحكاتنا ترنّ حتى خارج أسوار دار الأيتام، عندما كان الأب موبلو يقلّد قفزات الضفادع، حتى يجعلنا نتعلّم خطوات رقصة أقزام زائير الشهيرة. كان ذلك الأب مسكونًا بالأرواح الطيّبة، ويعيش دائمًا في تلك الحالة الرائعة من النشوة الروحية. كانت زائير هي بلده الأصلي، وكانت رقصة الأقزام تلك مختلفة كثيرًا عن غيرها من الرقصات، وتستلزم تعلّم قدرٍ من حِرفيّة الرقص، أكبر بكثير مما تستلزمه رقصاتنا الوطنية في الكونجو الشمالي.

كانت الرقصات الوطنية في الكونغو الجنوبي (زائير) تستلزم من الراقصين، أن تكون حركاتهم أكثر رشاقة ومرونة، من حركات القطط الوحشية من فصيلة السنّوريّات، وأكثر سرعة من السناجب عندما تحاول الاختفاء هربًا من حيوانات تنوي التهامها. الأدهى من ذلك طريقتهم في تحريك مفاصل الحوض مع الفخذين، كأن هذه المفاصل

تنخلع أثناء الرقص وصولًا فيه إلى وضع القرفصاء على الأرض، ثم يعاد تركيب هذه المفاصل عند الانتهاء من هذا الوضع، والقفز فجأة في الهواء إلى ارتفاع أكثر من متر، كأن الراقص قد أصبح من فصيلة حيوانات الكانجرو الأُسترالية.

يرتفع الراقص في الهواء ثم يهبط من جديد على الأرض، مرتكزًا هذه المرّة على أطرافه الأربعة، على بعد متر من المكان الذي كان يقف فيه، ثم يعود إلى وضعية الوقوف، وهو مستمر في تحريك الحوض المنخلع المفاصل، رافعًا ذراعيه إلى أعلى. ثم يطلق صرخة مخيفة من عمق حلقه، وقد جحظت عيناه الحمراوان تمامًا لا أعرف كيف، لتتجمّد تمامًا حركته، بما يعلن عن انتهاء الرقصة.

في أوقات الفراغ المتاحة لنا بين الحصص المدرسية الصباحية، وأداء الواجبات المدرسية المطلوبة منا في المساء، سواء في مطعم المدرسة، أو في ساحة الألعاب الرياضية، أو في فناء الفسحة المدرسية، أو في العنابر قبل النوم، لم يكن لدينا غالبًا إلا هذا الموضوع لنتحدّث فيه، أغنيات ورقصات الأب موبلو. كنا نشعر معه كأننا في السماء نطير مع الملائكة، قادرين على الإتيان بالمعجزات، يحملنا في الهواء جوّ من المرح والبهجة.

في عنابر النوم كانت لدينا مساحة كافية، بين الأسرّة إلى اليمين والأسرّة إلى اليسار، تسمح لنا بمحاولة تقليد الحركات الراقصة التي نتعلّمها من الأب موبلو. كانت تلك الضجّة المسائية تثير غضب مراقبي العنابر، وكان عددهم ستّة رجال أشدّاء. أعتقد الآن أن غضبهم لم يكن

بسبب تلك الضجّة المزعومة، بل كان بسبب غيرتهم الشديدة من قدرة الأب موبلو، على أن يكون له كلّ هذا النفوذ، وكل هذه السيطرة، على عقول وقلوب وأجساد كل هؤلاء التلاميذ، فكانوا يمرّون معًا، في كل عنابر النوم؛ لتمثيل ضربنا بالسياط، وإجبارنا على الدخول تحت أغطية الفراش.

كان المراقبون الستّة يراقبوننا طوال النهار والليل، ويختبئون لنا خلف الأبواب، وهم يشحذون آذانهم للإنصات إلى دبيب النمل، ثم يصعدون إلى الطابق العلوي على الفور، لإبلاغ الناظر (عطية الله) بكلّ ما يستجد من أمور مهما كانت تبدو لنا تافهة. كان هذا الناظر المدير هو أكثر أفراد المؤسّسة إصرارًا ورغبة في إيذاء التلاميذ، بكل وسيلة متاحة وغير متاحة. من الضروري هنا أن أذكر أن المراقبين الستّة كانوا من بين أقارب المدير، فهم جميعًا كانوا إمّا من بين أبناء إخوته الذكور، أو من بين أبناء أخواته الإناث، لذلك كانوا يتصرّفون معنا كأنهم مدراء حقيقيّون لهذه المؤسّسة، أو على الأقل كأنّهم مدراء تنفيذيّون لها. من العجيب أن (عطيّة الله) هذا كانت تظهر لديه أحيانًا نزعات أبويّة، فيطلب من مراقبيه تخفيف الضغط علينا.

لاحظت كذلك أن أبناء إخوة المدير من الذكور، وهم الذين بالتالي يحملون نفس اسمه العائلي، أكثر تعاليًا على التلاميذ من الباقين من بين أبناء أخواته من النساء، الذين لا يحملون نفس اللقب العائلي لسيادة المدير. لكن ما كان يجمع بين الفئتين أنهم جميعًا قد تعينوا بالواسطة؛ لأنهم أقارب المدير، دون أن تكون لأيّ منهم أي خبرة تربوية أو نفسية.

يمكنني حتى أن أقول إنهم كانوا ينظرون إلى التلاميذ، كما لو كان هؤلاء التلاميذ من المواشي والبهائم، التي ليس لديها أي إحساس أو إدراك للمنطق.

بمجرّد انصراف هؤلاء الرقباء، بعد الانتهاء من حملتهم التفتيشية، كان أحد التلاميذ يطلق لفظًا فكاهيًّا ساخرًا بلغة اللينجالا، فنخرج جميعًا من الفراش، ونعود جميعًا إلى التحلّق من جديد في تلك المساحة الحرة بين الأسرّة، ونتخذ من جديد الأوضاع الراقصة، ونتذاكر من جديد كلمات الأغنيّات، التي ستصاحبنا في نومنا وأحلامنا، فلم يكن من الغريب أن يحدث، حتى أثناء الاستغراق في النوم، أن نسمع دندنة أحد الأطفال بإحدى تلك الأغنيّات القديمة، حتى لو كانت بلغة اللينجالا، التي لم يعد يستعملها إلا هذا الرجل الممتلئ طيبة الأب موبلو، الذي كان يبيع لنا الأمل بثمن بخس؛ إذ كان شديد الاقتناع بأن مهمّته الرئيسة في الحياة، هي إنقاذ تلك الأرواح البائسة الضائعة الكائنة في دار الأيتام.

* * *

(٢)

بدأ كلّ شيء في تلك الفترة التي كنت فيها مراهقًا، تدور في عقلي أسئلة كثيرة، كان من أهمّها السؤال عن ذلك الاسم الذي أعطاني إيّاه الأب موبلو، وهو القسّ الذي كان يعمل في دار أيتام (لوانجو)، إذ كان اسمي هو أطول اسم في الدار بل في المدينة كلها، في الحقيقة لم أجد اسمًا أطول منه، ويتكوّن من ثمانية عشر مقطعًا، والاسم هو: تو كو ميزا نزا مبا بو مو زيه يا مو ين دو أبو تا مي نام بو كا يا با كو كو، هذا الاسم الطويل كان في لغة اللينجالا، وهي من أهم اللغات المحلية في الكونغو، يحمل هذا المعنى (فلنقرّ ونعترف بنعمة وفضل الربّ فإن موسى/ موزيه الأسود قد وُلِد في أرض الأجداد). هذا هو اسمي المسجّل في شهادة ميلادي.

لم يعترف لي الأب موبلو بأنه كان الشخص المسؤول عن إعطائي أطول اسم موجود في قوائم أسماء التلاميذ في سجلات الدار، بل حتى في سجلاّت المدينة، بل من المحتمل جدًّا أن يكون أطول اسم في سجلات قوائم أسماء كل مواطني الدولة. هل السبب أنه أصلًا مواطن

زائيري، وفي بلدهم معتادون على هذا النوع من الأسماء الطويلة؟ فالأسماء هناك تبدو كما لو كانت بلا نهاية، وغير قابلة للنطق. خذ عندك مثلًا اسم رئيسهم (موبوتو سيسي سيكو كوكو نجبندو وازا بانجا) وهي العبارة التي تعني (المحارب الذي يذهب من نصر إلى نصر دون أن يستطيع أحد إيقافه).

عندما كنت أشتكي إليه من أن اسمي يُنطق دائمًا بشكل خاطئ، أو يُنطق بعد حذف بعض أجزائه، كان الأب موبلو يحثّني على عدم الغضب، وعلى ضرورة أن أصلّي في المساء، قبل الذهاب إلى الفراش، وأن أطلب من الربّ القادر على كلّ شيء، أن يبيّن لي مصيري المختفي داخل هذا الاسم، الذي سيكون حتمًا مصيرًا استثنائيًّا، قياسًا على هذا الاسم الاستثنائي، كما هي الحالة عادة في كل الأسماء، إذ يخفي اسم الإنسان بداخله المصير الذي سيلاقيه هذا الإنسان.

ولإقناعي بما يقوله اتخذ من اسمه هو مثالًا؛ إذ إن موبلو في لغة الكيلونجو تعني (كاهن)، ولهذا السبب وحده اختار سلك الكهنوت، ليكون رسولًا مبشّرًا بملكوت الربّ. والمسألة ليست أبدًا اعتباطية عشوائية، فإن الاسم الذي أوحى به الرب إلى والديه، كان يحمل داخله المصير المتوقّع لحامل الاسم، فالربّ كان يعرف أن هذا الطفل سيصبح كاهنًا، وكذلك كانت مهنة والد موبلو.

كان الأب موبلو إذَنْ يكرّر دائمًا مدائح اسم النبي موسى، ويعطيني الحجّة تلو الحجّة في مزايا أن أحمل اسم النبي موسى، قائلًا إنه لم يكن نبيًّا عاديًّا، حتى أن كل أنبياء التوراة، بمَن فيهم أولئك الذي كانت

لحاهم أطول وأكثر شيبة بكثير من لحية موسى، لم يكونوا يصلون في قاماتهم إلى أكثر من مستوى كعب موسى؛ وذلك لأن موسى هو النبي الذي اختاره الربّ، وكلّفه بمهمّة إخراج نسل إسرائيل شعبه المختار من أرض مصر، وقيادتهم حتى أرض الميعاد.

في سنّ الأربعين كان موسى ثائرًا على الأوضاع اليومية البائسة، التي عانى منها شعبه اليهودي في مصر، فقتل مصريًّا بسبب أن هذا المصري، الذي كان على رأس مجموعة من العمّال اليهود، كان يهين أحدهم. بعد تلك الفِعلة وجد نفسه مضطرًّا إلى الهروب في الصحراء، حيث أصبح راعيًا للأغنام، وتزوّج من ابنة شيخ القبيلة التي استضافته لديها. في سن الثمانين، وكان موسى لا يزال منشغلًا بخراف حماه، ظهر له الربّ في شكل نار لا تحرق شجرة عُلّيقة، من فصيلة ستُعرف لاحقًا باسم (شَوْك النار)، ليدعوه إلى عبادته، عبادة الربّ الواحد، ويوكل إليه مهمّة تخليص الشعب اليهودي من نير العبودية، في الأراضي المصرية.

كان الأب يسألني: مَن بين زملائك الذين يسخرون من اسمك، يحمل اسمًا فيه كل هذه المعاني النبيلة؟ اليوم أيضًا وأنا أكتب هذه السطور، محبوسًا في نفس ذلك المكان القديم، الذي كان مألوفًا لي، ثم أصبح الآن مختلفًا جدًّا شديد الغرابة، لا أزال أستطيع أن أنصت إلى صوت الأب موبلو، وهو يتلو على مسامعي تلك المقطوعة التوراتية، التي يظهر فيها الربّ لموسى. يقول النصّ: «وظهر له ملاك الربّ بلهيب نار من وسط عُلّيقة، فنظر وإذا العُلّيقة تتوقّد بالنار، والعلّيقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأرى هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العُلّيقة؟».

لا أزال أراه وهو يفحص السماء وينقّب فيها، ثم ينظر إليَّ وقد أخذته الجلالة لحظات قصيرة، ثم يقول لي بصوت عميق: «نعم يا صغيري موسى، إن ملاك الربّ سيظهر لك أنت أيضًا، لكن لا تنتظر أن يكون ظهوره لك هذا في شجرة علّيقة، فإن هذا لا يتكرّر، والربّ لا يحبّ التكرار، لذلك سيخرج ملاك الربّ من جسدك أنت، وربّما لن تستطيع تمييزه؛ لأنه سيكون له مظهر كريه منفّر، سيثير فيك الاشمئزاز، رغم أن هدفه من الظهور سيكون محاولة إنقاذك».

بعد تلك العبارات، وفي كل لقاءاتي التالية مع الأب موبلو، لم أكن أريد الابتعاد عنه، بل كنت أكاد أن ألتصق به، لدرجة أنني كنت أكابد ملاحظات بعض التلاميذ، التي تتهمني بأنني جندي نشيط في جيش الربّ، ألتصق به كما لو كنت ظلّه في تمام الساعة الثانية عشرة، أي عند منتصف النهار، عندما تسقط الشمس عمودية على الأرض، فيصبح ظل الرجل ملتصقًا به. ومنذ أن استمعت إليه وهو يحكي العبرة من المثل الذي ضربه يسوع بقوله: «إن الأوائل سيصبحون الأواخر، والأواخر سيصبحون الأوائل»، وأنا أفضّل الجلوس في الصف الأخير من مقاعد الفصل الدراسي، حتى يمكنهم اعتباري من الأواخر، وهكذا بالتالي أصبح لاحقًا من الأوائل.

وكان هناك الكثير من الأقاصيص التي رواها لنا الأب موبلو، عن مملكة السماوات، من الأمثلة التي كان يسوع يضربها لتلاميذه. مثل أقصوصة عمّال كرمة العنب، الذين وصلوا إلى العمل حول منتصف النهار، في الساعة الحادية عشرة، الذين في نهاية نهار العمل، تمّ دفع

مرتّباتهم قبل دفع مرتبّات العمّال الآخرين، الذين وصلوا في الساعة السادسة صباحًا قبلهم بساعات. لم أفهم تمامًا ما الذي يريد قوله بهذا المثل، إلا أن يكون هو نفس المعنى السابق، أي أن الأواخر سيصبحون الأوائل، فلا تغترّ أيها الإنسان بأعمالك وبذاتك، وتعتقد أنك ضمنت الجنّة، ثم تسيء إلى آخرين وتعتقد أنهم أقلّ حظًّا منك.

ولكن لا ينبغي لك أن تبتئس، فالربّ لا ينسى الأطفال، حتى لو أنهم لم يكونوا يجلسون في آخر صفّ مقاعد في الفصل الدراسي. لذلك أنا لم أبتئس أبدًا، ولكنني رغم ذلك بدأت أشعر بالقلق، منذ اللحظة التي بدأت فيها، أنتظر أن يأتيني العون من السماء. خاصة منذ اللحظة التي بدأ فيها ناظر المدرسة، يُكْثِر من مدّ يده علينا لضربنا، ولم يحدث أبدًا أن تدخّل كلّي القدرة لحمايتنا منه، أو حتى أظهر لنا أي علامة سماويّة، يمكننا أن نعتبرها نوعًا من الدعم المعنوي، وتجعلنا نطمئن على مصائرنا.

كان هذا المدير قد جسّد في نظري الفرعون المصري الشرّير، الذي كان يضايق الشعب اليهودي، في القصّة التوراتية الشهيرة عن خروج شعب إسرائيل من مصر. وتساءلت كثيرًا لماذا تردّد ربّ السماوات، طوال هذا الوقت في ضرب مبنى دار الأيتام، بمثل الضربات التي وجّهها إلى أرض مصر، فحلّت الكوارث والمصائب على الشعب المصري، وهو ما جعل هذا الفرعون يدرك حجم قوّة الربّ، وتفوّق إرادة الربّ على إرادته؟ هل فعلًا كرّس الربّ نفسه وخصّ بخدماته الشعب اليهودي بدلًا من أي شعب آخر؟ لذلك هو لا يتدخّل لإنقاذ أفراد من

الشعب الكونغولي؟ هل كان الشعب اليهودي يصلّي ويرقص ويغنّي بشكل أفضل من الشعب الكونغولي؟

كان ذلك الهمّ الشديد الذي سكنني في البداية تافهًا مضحكًا، لكنه رغم ذلك حفّزني على القراءة المدقّقة للأسفار المقدّسة، على أمل أن أعثر فيها على أي تصدّعات، تمكنني من أن أقف ندًّا للأب موبلو، أقارعه الحجّة بالحجّة عندما لا أكون مقتنعًا بكلامه، رغم كلّ الحبّ الذي أكنّه له. كان الأب قد أظهر لي سعادته، برؤيتي أنطلق من كتاب التوراة، في محاولة لفهم العالم، حتى لو أن هذا التقصّي يتوجّه في الأساس إلى محاولة معرفة حقيقة هويّتي، التي أحملها بين طيّات اسمي وأصلي وشفرتي الوراثية.

لم يكن بإمكاني جعل الأب موبلو يتراجع عن أفكاره، التي تدور حول الحقائق الموجودة في هذا الكتاب السماوي، الذي يحفظه عن ظهر قلب، الحقائق التي يعتبرها غير قابلة للمناقشة. هذا بالإضافة إلى أنني كنت أحترمه، إذ كان يمثّل لنا نحن أطفال الملجأ، كل ما تعنيه عبارة (السلطة الأخلاقية)، أو عبارة (الأب الروحي)، خاصة بالنسبة لأطفال أيتام، لم يعرفوا أبدًا مَن آباؤهم الحقيقيّون البيولوجيون، أصحاب الحيوانات المنوية التي وضعت بذرة كل منهم في رحم أمّه، إذ أصبح هذا الكاهن الأب الممثّل الوحيد لصورة السلطة الأبوية، التي لم ولن يعرفوها في رجل آخر، بنفس هذه الدرجة من الطيبة الأبوية والتسامح.

فنحن مثلًا لا نستطيع أن نطلق هذه الأوصاف على عطية الله ناظر المدرسة ومدير دار الأيتام، الذي كان يمثّل الأب الشرير القاسي المحتقر

الماكر المخادع، في مقابل الأب موبلو الطيّب الحنون، رمز التسامح في أفضل صوره، والقدرة على غفران الأخطاء الأخلاقية البسيطة، والقدرة على العطاء، وعلى حثّ الأطفال على التغلّب على نقائصهم.

كانت العاطفة الساذجة البريئة التي يظهرها الأطفال نحو أبيهم الروحي، تأتي من أعماق قلوبهم، وكانت المكافأة الوحيدة التي نأمل في الحصول عليها، في مقابل هذه العاطفة هي نظرته الحنون نحونا، التي كانت تحثّنا على الشجاعة في مواجهة الملامح المقطبة العابسة للناظر عطيّة الله، التي كانت تعيدنا إلى وضعيّتنا كأطفال أشقياء بؤساء، بلا أمّهات وبلا آباء، وبالتالي كأطفال ليس لديهم الحظّ الذي يمكّنهم من سلوك الطرق المألوفة في الحياة.

لم تكن نظرات الناظر إلينا تحمل إلا معنى واحدًا، هو أننا في نظر المجتمع المحلّي الرسمي، مجرّد سجناء في إصلاحية أحداث، فملجأ الأيتام كان مرادفًا للسجن، والمرء لا يدخل السجن إلا إذا كان قد ارتكب جرمًا خطيرًا، أو مخالفة كبيرة.

من بين كل الأسئلة التي كانت تدور في ذهني، في تلك المرحلة المبكّرة من عمري، التي عانيت خلالها من الاستثارة النفسية، كان هناك السؤال الذي سيترك أثره واضحًا في أزمة مرحلة بداية المراهقة، السؤال الذي كان يعود إلى ذهني كل يوم في الصباح والمساء، حتى منعني أحيانًا من القدرة حتى على ابتلاع لعابي، كما لو كان لديَّ شوكة تسدّ حلقي، السؤال هو: «هل أنا وحدي الذي يحمل مثل هذا الاسم الطويل، من بين كل أطفال العالم؟».

من ناحية أخرى، ووفقًا لكلام الأب موبلو، فإنني أحمل اسم أحد أهم أنبياء التاريخ، فهل أنا وحدي مَن يحمل اسم هذا النبي؟ هذه هي عقلية الطفل الذي كنته. ثم إن الأب موبلو يذهب إلى دور أيتام أخرى في مناطق مجاورة، فهل أعطى نفس هذا الاسم إلى أطفال آخرين؟ وهل معنى ذلك أنه يحبّهم مثلما يحبّني؟ بل إنه من الجائز أيضًا أن يتفوّق حبّه لهم على حبّه لي. وهكذا سكنت الغيرة عقلي وقلبي. كان الأب هو الشخص الوحيد القادر على طمأنتي.

كنا في منتصف الأسبوع، وكنت أنتظر بفروغ صبر صباح يوم السبت، لأطرح هذا السؤال على الأب. لكن للأسف لن يحدث هذا أبدًا. كنت بعيدًا تمامًا عن التفكير في أن حدثًا جللًا غير متوقّع الحدوث، سيقلب حياتنا رأسًا على عقب، في هذا الركن الضائع من هذه المنطقة النائية. كنت أتوقّع أي شيء عدا ذلك الانقلاب في الأحداث. الغريب في الأمر، وهو ما أزعجني أكثر من أي شيء آخر، هو أن الأب موبلو رغم تقرّبه من ربّ السماوات، إلا أن الربّ لم يخبره بما سيقع في بلادنا، ولم يستطع الأب وحده أن يتنبّأ.

* * *

(٣)

بونافنتورا كوكولو هو صديق طفولتي، وكنا كلانا في سنّ الثالثة عشرة، واسمه معناه المغامر الطيّب كوكولو، وكان غالبًا يبدو مستثارًا هائجًا، وفي تلك اللحظة لم أفهم السبب في استثارته.

هو: إن الوضع خطير، بل هو خطير جدًّا يا موسى.

متضايقًا من سماعي اسم موسى، دفعته بكوعي في جنبه، وابتعدت عنه بضع خطوات. لكن هذا التصرّف من طرفي، لم يمنع صديقي من متابعتي، فهو مثل بعوضة المستنقعات، التي تتابع ضحاياها أينموا ذهبوا.

هو: أين أنت ذاهب يا موسى؟ أقول لك إن الوضع خطير جدًّا.

أنا: هذا هو ما تقوله في كلّ مرة كأنني لا أعرفك.

هو: انظر إلى ملامح الفزع في وجوه حرّاس الدار، إنهم يخفون عنّا شيئًا، علينا أن نبدأ من الآن في البكاء، فأنا أعتقد أن الأب موبلو قد مات.

عندما قال هذا، بدأ على الفور في الانتحاب، فما كان منّي إلَّا أنني وضعت قبضتي المضمومة أمام وجهه كأنني أهدّده.

أنا: إذا كنت ستبكي وتنتحب، سأضع هذه القبضة في وجهك، ولن تستيقظ من هذا الكابوس إلا وأنت في حجرة التمريض.

هو: أؤكّد لك أنه مات، ولن يعطينا حصص الدين أبدًا بعد ذلك.

أنا: لماذا تعتقد أنه مات؟

هو: وقع له حادث، سترى بنفسك لاحقًا، وسيقولون لنا إنه رحل من الأرض إلى السماء، ليسكن فيها مع الربّ، وإنهم سيعثرون لنا على أبّ موبلو جديد.

في الحقيقة كنت أعرف بيني وبين نفسي، أن بونافنتورا هو أفضل أصدقائي، وأحبّهم إلى قلبي، رغم أنني لم أكن أعبّر له عن هذه المشاعر، لأنني في ذلك الوقت من عمري، كنت انطوائيًّا منغلقًا على ذاتي، ولم أكن أعبّر عن عواطفي الكامنة على الفور. أمّا هو فكان ثرثارًا، حتى أنه استحقّ عن جدارة لقب (آكل القطن) الذي أطلقوه عليه، وهو نفس اللقب الذي أطلقوه على تلك العصافير الصغيرة، التي كانت تأتي إلى نوافذ دار الأيتام، لتزقزق طول الوقت دون توقّف، أو بمعنى ما لتثرثر طول الوقت دون توقّف، وهي تحمل نتف قطن في مناقيرها الرقيقة، لتستعملها في بناء أعشاشها الصغيرة، فوق سقف عنبر نومنا. كنّا قد اعتدنا، نحن أصدقاء بونافنتورا، على أنه بمجرّد أن يفتح فمه، نصرخ جميعًا في وجهه، في جوقة واحدة قائلين: «أغلق فمك واذهب لأكل القطن مع عصافيرك».

عاد بونافنتورا إلى مهاجمتي.

هو: سترى أنني على حق، وأنه كان يجب عليَّ أن أذكر لك أنت هذا؛ لأنك أصبحت الصديق الوحيد الذي ينصت إلى ما أقول، إذ لم يعد أحد عداك ينصت إلى ما أقول، فالأطفال الآخرون أكثر خبثًا من الناظر نفسه، قل لي هل أنا كذبت عليك مرّة واحدة من قبل؟ الحقيقة هي أن غالبًا كل ما قلته لك وتنبّأت بوقوعه حدث فعلًا.

ورغم هذا الحوار الطويل والحجج الدامغة، فأنا لم أتفاعل معه، لذلك نظر مباشرة في عيني.

هو: هل تتذكّر آخر مرّة عندما جاءني في المنام أن شاهدت أننا أنا وأنت نأكل اللحم، ألم يحدث بعدها في اليوم التالي على الفور، أن قدّموا لنا وجبة من اللحوم في مطعم الدار؟

أنا: صحيح لقد حدث هذا فعلًا وأكلنا لحومًا.

هو: وعندما جاءني في المنام أن المدير عطيّة الله مريض، ألم يحدث له بعد يومين أن أصابه ورم في إحدى عينيه؟

أنا: نعم لقد أصاب هو نفسه عينه بالورم بسبب ارتطام جبهته بباب حجرة مكتبه.

هو: لماذا إذَنْ يدعونني (آكل القطن)، رغم أن كل رؤايَ وأحلامي تتحقّق في الواقع؟ وأن أحدًا منهم لم يحدث له مثلي أن رأى رؤيا وتنبّأ لنا بأكل اللحم، أو تنبّأ للمدير بإصابة عينه؟

أنا: بونافنتورا مشكلتك هي أنك ثرثار، وإذا لم تتوقّف فورًا عن

الكلام، سأدعوك أنا أيضًا (آكل القطن).

في السبت التالي كما هي العادة، ارتدينا جميعًا ثيابنا البيضاء، ووقفنا في الفناء الرئيس أمام قاعة حصص الدين، الفتيات في ناحية والفتيان في ناحية أخرى، ننتظر ظهور الأب موبلو. كان لديَّ في تلك المرّة أكثر من سبب يجعلني أتشوّق لرؤياه، أنا بالأخصّ عن أي نزيل آخر لدار الأيتام، الذين لم يكن لديهم في رؤوسهم إلا هذا الجوّ الاحتفالي المعتاد، الذي يخلقه حضور الأب بيننا صباح كل يوم سبت. كنت أتمنّى فقط ألا يتمكّن الأب عند حضوره، من تخمين نواياي بمجرّد رؤيته لي. كنت في ذلك السنّ المبكّرة قد بدأت في ممارسة تمرين، كنت أسمّيه (تمرين التحكّم في التنفّس). كنت أردّد بصوت خفيض، ما سأصرّح له به فور رؤيتي له، وانفرادي به في أحد أركان الفناء أو القاعة، حين يبدأ في سؤالي عن صلواتي، التي ينبغي فيها أن أشكر كلّي القدرة على عطاياه الثمينة.

عند حضور الأب موبلو، لا يصح أن تتلاقى أعيننا، قبل أن أنجح في الانتحاء به في ركن من الفناء أو القاعة، بما يسمح بأن يكون بيننا حديث منفرد. فإذا حدث أن تلاقت أعيننا، فإنه بتأثير السعادة التامة البادية على وجهه، بسبب هذا الجوّ الاحتفالي، سأكون مضطرًّا إلى تأجيل أسئلتي الوجودية إليه أسبوعًا كاملًا، حتى صباح السبت التالي، لعلّ وعسى.

بينما كنت واقفًا بين الجموع، أسرح بخيالي في الحوار الذي سيدور بيننا أنا والأب، أقدم بعض الصبية لقتل الوقت، على تقليد صوت محرّك سيّارته، المصاب بالالتهاب الرئوي المزمن، بينما انشغل

آخرون بتقليد حركة سيّارته أثناء محاولات ركنها في الفناء، وهو ما لا ينجح فيه غالبًا إلا بعد خمس أو ست محاولات، بحيث تتجه مقدّمة السيّارة في خط مستقيم نحو باب الخروج. في أثناء ذلك تنشغل الفتيات بمحاولة تذكّر خطوات الرقصة التي تعلمناها قبل أسبوع، رقصة أقزام زائير، وقد التزمن إلى أقصى حدّ ممكن بالتعليمات التي يوجّهها إليهنّ الأب، المتعلّقة بكونهنّ فتيات حريصات كلّ الحرص على سمعتهنّ في المجتمع.

حتى في تلك السنّ المبكّرة كنت أدرك أن الممنوعات والتعليمات التي يفرضها الذكور على الإناث، منذ فجر التاريخ وحتى الآن، هي فقط بغرض فرض سيطرة الرجل على المرأة، وبغرض حرمان النساء من كلّ ما قد يمنحهنّ بعض المتعة في حياتهنّ. فعلى سبيل المثال كان من غير المستحبّ في المجتمعات القبائلية الكونغولية، أن تقوم النساء بأكل اللحوم علنًا، فكانت هذه هي الحجّة التي سمحت لصبيان دار الأيتام، بالاستيلاء على كلّ كمّية اللحوم الموجود في الوجبة للذكور فقط دون الإناث. وكانت من بين الشائعات الكاذبة التني انتشرت في المجتمعات القبائلية الكونغولية، أن المرأة التي تأكل اللحوم سرًّا، سيسقط ثدياها حتى مستوى قدميها.

وكانت من بين الشائعات الأخرى المنتشرة في دار الأيتام، هو أنه لو قادت امرأة سيّارة بمحرّكات، لنمت لها في الحال لحية طويلة رمادية اللون، ولكبر حجم عضوها التناسلي حتى يصبح في حجم العضو التناسلي للذكر. بالمناسبة كان هذا هو السبب في امتناع الفتيات عن

مشاركة الفتيان في لعبة تقليد الأب موبلو أثناء محاولته ركن سيّارته في الفناء؛ فالسيّارة شأْن ذكوري بحت. وبملاحظتي لهؤلاء الفتيات أثناء ممارسة الفتيان للعبة السيّارة، اكتشفت أنهنّ كنّ يضعن أيديهنّ فوق صدورهنّ، في محاولة منهنّ لدرء أي أخطار قد تحدث لهنّ، لمجرّد متابعتهنّ هذه اللعبة ولو من على بعد.

كان الحرّاس يقفون بعيدًا، كأنهم يتراجعون إلى خارج إطار الصورة، التي ألتقطها بآلة تصوير موجودة في ذهني الصغير. كنا نحن الأطفال رغم براءتنا، دائمي الشكّ في مسألة وجود مؤامرة تدبّر لنا في الخفاء، من هؤلاء الحرّاس الرقباء، الذين كانوا يقلقون بونافنتورا، بل يخيفونه. في ذلك الصباح البعيد، عندما مررت إلى جوارهم سمعت أحدهم يقول للآخر: «توقّف عن الإشارة بإصبعك وإلا فإن الأولاد سيخمّنون كل شيء، وسينالنا العقاب من المدير». هنا كان السرّ كله هو في كلمة (كل شيء).

فجأة حدثت جلبة ضخمة وهياج خارج سور الفناء، فحاولنا التحرّك في اتجاه خارج الفناء، لمعرفة سبب هذه الضجّة، إلا أن الحرّاس التفوا حولنا ومنعونا من الحركة، كما لو أنهم قد أصبحوا مجموعة من ضبّاط الجيش، ونحن قد أصبحنا مجموعة من المجنّدين. ظهر المدير عطيّة الله، على المنصّة الموضوعة عند مدخل المبنى الرئيس، وقد وقف حوله كلّ مجموعة الحرس ومراقبي الممرّات، وقد بدت على وجوههم جميعًا ملامح القسوة والشدّة، رغم محاولات المدير أن يحتفظ بملامح وجهه مسترخية، لتوحي لنا بالاسترخاء وخلو البال.

(٤)

عطية الله هو رجل عجوز في منتصف ستّينياته، برأس تام الصلع، وجسد يميل إلى السمنة. تعود أصوله العرقية إلى قبائل (البمبيه)، المشهور رجالها بقدرتهم على استعمال السلاح الأبيض في التعامل مع معارضيهم. كانوا مشهورين كذلك بقدرتهم على أكل لحوم القطط والكلاب منذ سن الطفولة. كان من المعتاد لديهم كذلك تقييم الثروة التي يمتلكها الرجل، بعدد الخنازير التي يذبحها أمام شهود، في حفلات الزفاف أو في شعائر دفن الموتى، وفي الأعياد العامة مثل عيد مقدم العام الجديد.

الحقيقة هي أن كل قبيلة من قبائل البلاد كانت لها عاداتها الغذائية المختلفة. فقبائل اللاري مثلًا التي تسكن منطقة (بول *Pool*) كانوا مشهورين بأكل ديدان الأرض. وقبائل الفيلي (*Vili*) الذين يسكنون منطقة كويلو الساحلية، كانوا مشهورين بأكل لحوم أسماك القرش. وقبائل التيكيه مشهورة بأكل لحوم الكلاب دونا عن القطط. بينما أغلب القبائل التي تسكن شمال البلاد، كانوا يأكلون لحوم التماسيح، رغم أنهم يعتبرونه حيوانًا مقدّسًا.

قال بونافنتورا وقد بدأ في الانتحاب: «ليس من الطبيعي أن ينظر إلينا هذا المدير بهذه الابتسامة على وجهه».

كان يحاول أن يخفي انتحابه، وهو الدليل القاطع على إحساسه بالقلق، فاستدرت نحوه وقلت: «أؤكّد لك أنه لو تسبّب نحيبك هذا في ضرب الحرس لنا بالسياط، فإنني أنا أيضًا سأضربك ضربًا مبرحًا بمجرّد عودتنا إلى عنبر النوم».

قال: «لكن انظر بنفسك إلى وجه هذا المدير، إنه يريد أن يكون لطيفًا معنا إلى أقصى حدّ على غير العادة، حتى لا ننفجر في البكاء في اللحظة التي يخبرنا فيها بالنبأ الأليم، نبأ موت الأب موبلو، أنا أستعدّ لهذه اللحظة لذلك بدأت فعلًا أنخرط في البكاء، أريد أن أكون أول مَن يبكي حتى يلاحظ الجميع بكائي؛ لأني إذا انتظرت اللحظة التي سينفجر فيها الجميع في البكاء، فكيف لهم أن يلاحظوا بكائي».

في الحقيقة وجدت أن هذا المنطق سليم. وبرغم أن الناظر لم يظهر لنا أنيابه، التي اعتدنا على رؤيتها كما يفعل دائمًا عند التكشير، لكن على ما يبدو أنه كان قد ترك مهمّة إظهار الأنياب إلى مساعديه. لذلك فإن مظهره الطيّب لم يخدعنا. كان يكفيني جدًّا أن ألاحظ يده اليمنى وكيف ترتجفّ، لإدراك أنه يخفي عنّا شيئًا خطيرًا، بين تلك الأصابع المتقلّصة، التي بدت لي لحظتها مثل مخالب النسر. كان من الأحرى به أن يخفي هذه اليد في جيب معطفه، بدلًا من إخراجها هكذا والتظاهر بهرش فخذه بها. وقد قام بالفعل بإدخالها إلى جيبه لمدة لحظات قصيرة، لكنه عاد على الفور وأخرجها منه، بردّ فعل عكسي سريع، وتركها هكذا معلّقة في الهواء، بشكل عابث إلى جوار فخذه.

كان وجود المدير واقفًا هكذا على هذه المنصّة، هو إخراج مسرحي فاشل لمسرحية رديئة، أو هو عرض لمسرح عرائس يمكننا أن نرى فيه الخيوط التي تحرّك العرائس، الخيوط التي ينبغي أن تكون مختفية عن الجمهور، خاصة في اللحظة التي بدأ فيها ينظر إلى حرّاسه، ويتبادل معهم الغمزات المفضوحة بالأعين، التي أمكن لنا -نحن صغار التلاميذ- أن نراها بسهولة وأن نفهم معناها.

إن التلاميذ المهرّجين البهاليل، الذين كانوا منشغلين بتمثيلية قيادة وركن سيّارة الأب موبلو في الفناء، قطعوا استرسالهم في اللعب، واتخذوا سمت الأطفال العقلاء، وهم لا يتركون لأعينهم حرّية التنقّل بين المناظر، بل هم يركّزونها على منظر واحد ثابت، هو منظر ذلك الرجل المخيف، الواقف على المنصّة. لم تستغرق تمثيلية المدير إلا عشر دقائق، عاد بعدها إلى طبيعته القاسية المرعبة، التي نعرفها جميعًا عنه، ونحتقره بسببها، الوجه المحبوس في تعبير واحد مغلق عليه بأقفال مزدوجة، والفكّان المشدودان الصارمان، والشاربان الحادان.

هذا الوجه وحده كان كافيًا ليجعلنا نشعر بالخوف، خاصة وأن المدير لم يكن معتادًا على الظهور أمامنا في نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد، إذ كان يرحمنا خلال هذين اليومين بعدم ظهوره أمامنا، ويكتفي بالظهور خلال الأيّام الخمسة الأخرى. كان الودّ مفقودًا بين المدير والأب موبلو، لهذا السبب كان المدير يختفي في اليوم الذي يظهر فيه الأب، إذ كان الأب ينتقد المدير بشدّة، ويوجّه إليه الكثير من الملاحظات الأخلاقية. أتذكّر أنه ذات يوم كان الأب قد قال للمدير،

إنه بسبب سوء معاملته لنا نحن الأطفال، فإنه سيواجه موقفًا عصيبًا في السماء، يوم الحساب الأخير؛ لأنه أساء إلى الأطفال، الذين قال عنهم الإنجيل إنهم أحباب الله.

كان عطية الله لا يزال يمهّد في خطبته، للخبر الخطير الذي سيعلنه علينا، وبدأت أعتقد أن بونافنتورا كان محقًّا في مخاوفه؛ لأن الأب لم يتأخّر أبدًا ساعة ونصفًا عن موعده، كما حدث الآن. لكن رغم ذلك كنت على عكس بونافنتورا، لا يزال لديَّ بعض الثقة في رحمة القدر، ولم أكن قد فقدت الأمل تمامًا بعد. كنت أتوقّع ظهور الأب بين لحظة وأخرى.

وتخيّلته وهو يحاول ركن سيّارته، ثم يظهر أمامنا بقميص جديد، تفوح منه كالمعتاد رائحة النفتالين، وهي تلك المادة الحافظة من العتّة التي يضع حبيباتها الكروية، في الخزينة الحديدية التي يحتفظ في داخلها بملابسه. في الحقيقة كانت تلك الرائحة هي الشيء المنفّر الوحيد في الأب موبلو، خاصة بعد اختلاطها برائحة العرق البشري. وتخيّلته وهو يقوم بتوزيع أوراق عليها كلمات الأغنية الجديدة، التي سنتعلّم لحنها منه ونغنّيها معه، ثم نرقص على الإيقاع الذي سيعلّمنا إيّاه، ونحن نصفّق بأيدينا على نفس الإيقاع، ثم نبدأ في الغناء معه حتى نفقد أصواتنا.

قطع عليَّ حبل الاسترسال في أوهامي، نزول الناظر من على المنصّة، واتجاهه إلى قاعة حصص الدين، وتحرّك مراقبي الممرّات خلفه، وهم يحملون في أيديهم مطارق خشبية، يستعملونها عادة في تخويفنا. وجدنا داخل القاعة صندوقًا كرتونيًّا ضخمًا، توقّعت أن تكون

جثّة الأب موبلو بداخله. هذا هو ما قاله لي بونافنتورا، وقد أصبحت على وشك تصديق كلّ ما يقوله. خشينا الاقتراب من الصندوق، رغم حبّ الاستطلاع الشديد الذي تملّكنا.

هو: موسى هل تصدّقني الآن؟

أنا: أنت تعلم أنني لا أحب أن تناديني بهذ الاسم يا كوكولو.

هو: وأنت كذلك تعلم أنني لا أحب اسم كوكولو، فلماذا تناديني به؟

أنا: هل ترى قبضة يدي؟ هل تريدني أن ألطمك بها على وجهك؟

بدأوا في فكّ الحبال التي كانت مربوطة حول الصندوق، باستعمال آلات معدنية حادة قاطعة. كانت عملية فكّ الأربطة بطيئة جدًّا، كأنهم يتعمّدون إطالة فترة تشوّقنا لمعرفة ما بداخله. قال المدير: «لماذا تقفون هكذا على بعد؟ اقتربوا». هنا اكتشفنا أن الموجود بداخل الصندوق هو مجموعة كبيرة من المناديل الحمراء، بدأوا في توزيعها علينا، ثم أخرجوا من نفس الصندوق، لوحة خشبية مستطيلة عليها هذه العبارة (مقرّ الحركة الوطنية لقادة الثورة الاشتراكية الشعبية. فرع لوانجو/ الكونغو).

بسبب الخبل أو الرعب، همس بونافنتورا في أذني: «هل هذه هي اللوحة التي سيضعونها فوق قبر الأب موبلو؟». أما المدير الذي أصبح عصبيًّا جدًّا، بسبب أن الموقف يفوق قوّة احتماله، بدأ في صراخ تحوّل في التوّ إلى ما يشبه نباح كلب، معطيًا أوامره إلى مساعديه، بنقل اللوحة إلى موضع على الحائط الخارجي للمبنى، يرغب في تعليق اللوحة عليه،

بحيث يسهل على أي شخص يمرّ أمام الدار أن يقرأ العبارة المكتوبة على اللوحة. قام كوكوبا بدقّ المسامير في أركان اللوحة الأربعة، باستعمال ضربات مطرقة خشبية، ونجح في تثبيتها في الجدار. المدير يعتبر كوكوبا أفضل عامل لديه، من بين مجموعة الأشخاص العاملين في الدار تحت إمرته، الذين يقومون بالعديد من المهام اليدوية. لذلك كان تكليف كوكوبا بمهمّة تثبيت اللوحة هو بمثابة تكريم له، أو ما يمكن اعتباره تمييزًا لكوكوبا عن غيره.

نحن الأطفال اعتدنا على أن نطلق على هذا الكوكوبا، لقب (رجل أسترالي قديم)، بسبب الشبه الذي بينه وبين صور فوتوغرافية لرجال بدائيين، تم اكتشاف وجودهم في صحراوات أستراليا بُعَيْد اكتشافها، وأطلق عليهم المكتشفون الأوائل لتلك القارة لقب (السكان الأصليون) *aboriginals*. أما أنا فكنت شخصيًّا أطلق على كوكوبا لقب (الحرباء العجوز)، فهو في الحقيقة يشبه الحرباء بسبب جحوظ عينيه، المتّجهتين واحدة منهما إلى أقصى اليمين، والأخرى إلى أقصى اليسار، وهذا دون تحريك رأسه، أي أن هذا هو وضع العينين الدائم. بالإضافة إلى احدوداب ظهره وحراشيف جلده. أنا لم أكن أطلق عليه هذا اللقب علنًا، بل إنني احتفظت به داخل عقلي، فأنا لم أسخر من كوكوبا علنًا أبدًا. هذه هي خِلقة الربّ.

بعد أن اخترقت مسامير كوكوبا اللوحة الخشبية، لم يتمكّن من جعلها تخترق الجدار، الذي كان على ما يبدو أكثر صلابة من الخشب. كانت المسامير تسقط عند قدميه في كل مرّة، فينحني بجسده العجوز

ليلتقطها، فنسمع صوت قرقعة احتكاك غضاريف فقرات عمود ظهره المتيبّسة، بالإضافة إلى ما يبدو على وجهه من علامات الألم.

صاح فيه عطية الله: ماذا تفعل؟

ردّ العجوز معتذرًا: إن السبب هو ضوء الشمس القوي الذي يبهر عينيَّ، لهذا فأنا أرى المسمار الواحد كأنه أربعة مسامير، فلا أعرف على أيٍّ منها أدقّ مطرقتي. هذا عدا أنني لم أعد قادرًا على دقّ هذه المسامير صغيرة الحجم، بعد أن كنت في شبابي أستعمل المسامير من حجم أكبر في دقّ النعوش.

الناظر: هل ستعود من جديد إلى الحديث عن مشرحة (بوانت نوار) حيث كنت تعمل في شبابك؟ أقول لك لا تقلق فأنت ستعود قريبًا إلى مشرحتك تلك المحبوبة التي تشتاق إليها.

لم نكن نحن الأطفال نفهم ما المقصود من هذه العبارة، ولا إلى ماذا يشير الناظر. كان هذا بسبب براءة طفولتنا. انحنى كوكوبا على الأرض للبحث عن المسامير التي سقطت منه، حتى عثر على واحدٍ منها، ثم عاد إلى وضع الوقوف، وبلّل المسمار بلعابه، ثم توقّف عن الحركة كأنه يجمع تفكيره ويركّز إرادته، ثم كرّر محاولة دقّ المسمار مرّة أخرى، فرفع يده التي تحمل المطرقة، لتهبط مرّة أخرى في غير موضع المسمار. هنا تقدّم المدير بقلب مجروح، وأخذ المطرقة من يد كوكوبا في يده اليمنى، وأخذ المسمار في يده اليسرى، ثم دقّ المسمار على اللوحة بضربة قوية من يده، تردّد صداها في جنبات الفناء، حتى أننا نحن التلاميذ شعرنا بالضربة في أجسادنا، والعصافير آكلة القطن

الموجودة فوق سطح الدار، أو تلك التي كانت تراقبنا من فوق أغصان الشجر، طارت فجأة مذعورة.

استمر الناظر في دقّ المسامير بضربات قوية، بلغ عددها على الأقل عشر ضربات، ثم تراجع في مكانه بضع خطوات، حتى يتأمّل بديع صنع يديه. هكذا أصبحت اللوحة معلّقة في مكان واضح عند مدخل ما كان سابقًا قاعة حصص الدين للأب موبلو. بعد ذلك طلب الناظر من مساعديه الاقتراب منه، وتكلّم معهم بشيء لم نتمكّن من سماعه، فإذا بالمراقبين الستّة يخرجون المناديل الحمراء من الصندوق، ويبدأون في توزيعها على الفتيان والفتيات، مع شرح مبسّط لطريقة ربط هذه المناديل حول الأعناق. لاحظت على الفور أن هذه المناديل هي من نفس لون وخامة قماش العلَم، الذي رفعه المراقبون قبل شهر على ساري العلم في منتصف الفناء.

كان هذا العلَم يحمل في منتصفه، رموزًا أثارت الكثير من تساؤلاتنا، فهناك على الجانبين نخلتان بسعف أخضر، تؤطّران فيما بينهما المنظر المركزي، الذي يتكوّن من مِجْرَفة أرض، يتقاطع محورها مع مطرقة، وكلاهما باللون الأصفر، وفوقهما ترى بوضوح نجمة خماسية الأذرع. كانت نفس هذه الأشكال والرموز موجودة على المناديل الحمراء التي أصبحت تطوّق أعناق الجميع.

هو: إذَنْ يا موسى هل هذا معناه أن الأب لم يمت بعد؟

أنا: اصمت يا كوكولو تمامًا ولا تنطق.

(٥)

عاد الناظر إلى المنصّة، يحيط به مراقبوه، ثم اتخذ سمت الخطباء الوعّاظ المفوّهين، ولاحظنا على الفور أنه قد علّق فوق سترته، على صدره عند موضع القلب، دبّوسًا معدنيًّا باللون الأحمر، مكتوبًا عليه الحروف الثلاثة التالية *P.C.T.*، وهي الحروف الأولى من الكلمات الثلاث (حزب العمل الكونغولي). بدأ يشرح لنا كيف أن شعب الكونغو قد أصبح الآن من حماة الثورة الاشتراكية، وكان وهو يتعثّر في كلماته، يتوقّف بين الحين والآخر قليلًا، حتى يترك لنا الوقت الكافي للتصفيق إعجابًا ببلاغته وفصاحته. في الحقيقة كنا مضطرين إلى هذا التصفيق، بسبب نظرات التهديد والوعيد التي نراها في أعين المراقبين، ونفهم معناها الذي اعتدنا عليه.

حاول أن يشرح لنا المعاني التي تحملها هذه الرسوم على العَلَم الأحمر وعلى المناديل الحمراء فقال: «اللون الأحمر هو لون الصراع الدموي الذي خاضه شعبنا خلال سنوات القرن العشرين للحصول على استقلاله، واللون الأخضر لسعف النخيل هو لون الطبيعة الخضراء المنتشرة في أرياف وغابات بلادنا، واللون الأصفر هو لون الصحراء

حيث توجد ثرواتنا المعدنية، التي حاولت أوروبا ولا تزال تحاول أن تسرقها منا، حتى بعد حصولنا على الاستقلال. أما فيما يتعلّق بالمِجْرَفة والمطرقة، فهما الأداتان اللتان تحثّاننا على العمل اليدوي، في حين أن النجمة الخضراء ذات الأذرع الخمس، هي رمز للمستقبل عندما ننظر إلى السماء، فنتوقّع الخير في أيامنا القادمة».

هذا بشرط ألا نقلّل من خطر أعداء الثورة، بمَن فيهم الأفراد من شعب الكونغو، الذين لهم نفس لون بشرتنا، ورغم ذلك وقعوا في فخّ العمالة للاستعمار الإمبريالي الحديث. هؤلاء الأخيرون هم أخطر أنواع أعداء الثورة؛ لأننا لا نستطيع بسهولة أن نكتشف وجودهم، فهم يختلطون بكتلتنا الشعبية، ويأكلونها من الداخل مثل الديدان التي لا نراها، ولكنها تنهش الجسد من الداخل، بل إن بيننا في دار الأيتام هذه هناك بعض أعداء الثورة هؤلاء من ذلك النوع من الديدان.

ثم بقدر من الحشرجة الصوتية الحلقية، التي أراد الناظر أن يظهر بها شدّة انفعاله، ومقدار تأثّره بأحوالنا بصفته أبًا حنونًا، قال: «نعم أطفالي الأعزّاء، هناك حقبة جديدة تنفتح أمامنا، حقبة تحرّرية تأتي إلينا مباشرة، من اتحاد الجمهوريّات السوفييتية الاشتراكية، أنتم حتمًا ستكونون من بين مَن سيعيشون التطوّرات التاريخية التي ستقع لبلادنا، حتى لو لم تكن هناك إعادة فتح لدفاتر الفترة الاستعمارية، لمعاقبة أولئك المستعمرين الأوروبيين، الذين داسوا فوق كرامتنا، وفوق معتقداتنا الدينية، واغتصبوا أجمل نسائنا، ووضعوا قيود العبودية في أيدي وأقدام أذكى أطفالنا».

إن هذه الحقبة الجديدة تخصّكم أنتم أيها الأطفال، لذلك لا تدعوا الاستعماريين، ومعهم العملاء المحليين، يحوّلونكم عن أهدافكم، فهم يعرفون كيف يجعلوننا نعيش في غيبوبة، وكيف يسلبوننا كل ممتلكاتنا. أنا لن أمنع نفسي، عن إعادة تذكيركم بالكلمات الأريبة للزعيم (جومو كينياتا)، المحارب العظيم ورئيس جمهورية كينيا الشقيقة، الذي قال إنه عندما حضر البيض إلى أفريقيا، كانت لدينا ثروات الأرض، وكان لديهم كتاب المسيحية المقدّس، فتعلّمنا منهم كيف نصلّي إلى الربّ بأعين مغلقة، وعندما أعدنا فتح أعيننا كانت الأرض قد سرقها البيض، إذَنْ هم أعطونا كلمات كتابهم المقدّس، مقابل استيلائهم على ثروات أراضينا.

أطفالي الأعزَّاء: يجب أن تحتفظوا في نفوسكم، وتحفظوا في قلوبكم وعقولكم، كلمات الحكمة التي نطق بها رئيس جمهوريتنا، فهو رجل حكيم ولديه رغبة قوية في التواصل وإقامة الجسور، وفي التجوّل الدائم وهو يحمل في يده مصباحًا ينير به الطريق، وسط متاهة العقول والأرواح والضمائر تلك التي نعيش فيها. فإذا تساءلتم ما الثورة؟ أقول لكم إن الثورة هي مهمّة يوميّة، نحاول فيها أن نغيّر عاداتنا القديمة، على أن نظلّ متيقّظين واعين، لكل المحاولات المبتكرة التي يخترعها الاستعمار العالمي المعاصر مع عملائه المحلّيين.

إن الثورة والاشتراكية العلمية يجب ألا يصيبانا بالانتشاء الزائف؛ لأننا لا يجب أن نعتقد أنهما قادران على الإتيان بأفعال سحرية طلسمية، فهما فقط قادران على جعلنا نتحوّل بأفكارنا وأفعالنا إلى الاتجاه

الصحيح، لتنمية بلادنا وإعادة تشكيل حياتنا، وهو ما لا يعتمد على المزايدة الثورية، بل على العمل الصبور الشجاع المتعقّل، دون أن نفقد ملامح الشخصية الوطنية، حتى نظلّ ثورة أصيلة في إطار الحركة الواسعة للثورة العالمية، غير القابلة للتراجع، وغير المستسلمة إلى القدر، وهو الاستسلام الذي تفرضه علينا الأديان.

كنا ننصت إلى هذه الخطبة الطويلة العصماء بأذن واحدة، بينما تتجه الأذن الأخرى نحو باب الفناء، يحدونا الأمل في سماع صوت محرّك سيّارة الأب موبلو، متسائلين عن مصيره بعد أن تمّ تجاهله طوال هذا الوقت، كأنه لم يكن موجودا أبدًا في الحياة. في نهاية الخطبة استمر المراقبون في التصفيق لمدة لا تقل عن عشر دقائق، كأنهم كانوا يجبرون التلاميذ بتصرّفهم هذا على الاستمرار في التصفيق هم أيضًا لنفس المدّة، وفي النهاية سمحوا لنا بالتفرّق.

اتجهت أنا وبونافنتورا إلى المكتبة، لنبدأ في عمل الواجبات المدرسية الطويلة، المطلوبة لصباح الاثنين التالي، في حين بقي آخرون في ساحات الألعاب الرياضية خلف المبنى الرئيس، وعادت الفتيات إلى المبنى الخاص بهنّ، حيث كانت في انتظارهنّ المربيات، اللائي كنّ كلهنّ من قبيلة (البيمبيه)، وهي القبيلة التي ينتمي إليها الناظر، وطبعا كان هو الذي وظّفهنّ.

كان اليوم الذي ألقى فيه الناظر هذه الخطبة، هو اليوم الذي حظي فيه عنبرنا، بأكبر حالة من الصخب عرفها في تاريخه. كان عنبر نومنا طويلًا جدًّا، حتى إنني كنت أقطع أحيانًا مسافة طويلة، للوصول إلى

المكان حيث فراش صديق أريد التحدّث معه. كان هذا العنبر يتكوّن من عشرين قسمًا، تحمل أرقامًا من واحد إلى عشرين، وداخل كل قسم منها توجد عشرة أسرّة، بعضها كان مزدوجًا، أي أن هناك سرير عند مستوى الأرض، يعلوه سرير آخر عند مستوى رأس الشخص، يمكن الصعود إليه بدرجات سلّم جانبي. كانت هذه الأسرّة المزدوجة توضع متجاورة، بحيث لا يفصل بين الواحد منها والآخر إلا متر واحد، وكانت هذه هي الحالة بين سريري وسرير صديقي بونافنتورا، وهكذا تولّد لدينا الانطباع بأن الفترة الليلية مخصّصة لمناقشة وتحليل الأحداث الواقعة في ذلك اليوم الذي يقترب من نهايته.

دارت إذن المناقشات المسائية في تلك الليلة، بين الأسرّة بامتداد العنبر بأقسامه العشرين، حول احتمالات ما حدث للأب موبلو، فقد امتنع عن الظهور في موعده المعتاد. فسّر بعضنا غيابه بأن اضطر إلى العودة إلى زائير وطنه الأم، وهو البلد الذي يعتبر موبلو أحد ممثلي العناية الإلهية، رغم أنه ليست لديه لحية طويلة رمادية اللون، مثل تلك التي كانت لأنبياء التوراة الحقيقيين. تمادى بعضنا في خيالاته، مدّعيًا أن عودة الأب إلى زائير، كانت بسبب أنه جمع من الأهالي تبرّعات كثيرة تسمح له ببناء كنيسة جديدة هناك.

بالإضافة طبعًا إلى قصّة الصداقة والاحترام المتبادل التي تجمع بين الأب موبلو وبين رئيس جمهورية زائير موبوتو سيسي سيكو، الذي استقبل الأب عند عودته إلى بلده الأم استقبال الفاتحين، رغم ما هو مشهور عن هذا الرئيس من قيامه بإلقاء معارضيه أحياءً في مياه

نهر الكونغو، فيجرفهم على الفور تيّار المياه القوي، أو من ضرب النار العشوائي على معارضيه، بعد تجميعه لهم في ملعب كرة قدم، ثمّ دفنهم تحت أرض الملعب. كانت الصورة المنتشرة في وسائل الإعلام للرئيس موبوتو، تظهره وهو يتنقّل بين الأماكن مستنِدًا إلى عصا، وواضعًا فوق رأسه قبّعة من جلد الفهد الطبيعي.

كذلك كانت شهرة الأب موبلو الواسعة في زائير، تجعل الناس يعتقدون في قدرته على الإتيان بالمعجزات، إذ أخيرًا سيتمكن المصابون بشلل الأطراف السفلية من استعادة حركتهم الطبيعية، بمجرّد أن يصيح فيهم الأب: «قفوا على أرجلكم وامشوا»، كما كان يسوع المسيح يفعل. والنساء العواقر بمجرّد لمسهنّ لثوب الأب سيصبحن حوامل، وفي ساعة الولادة ستضع كل منهنّ توأمًا. وسيفاجأ الرجال العاجزون جنسيًّا عند استيقاظهم في صباح اليوم التالي على رؤيتهم للأب، بأعضائهم التناسلية في حالة انتصاب دائم، يصل بهذه الأعضاء إلى مستوى سرّة البطن.

ثم يخلص التلاميذ إلى نتيجة مؤدّاها أن الأب موبلو قد ذهب أخيرًا إلى عالم أفضل من ذلك الذي كان يعيش فيه بيننا، وأصبح الآن قادرًا على الإتيان بمعجزاته، التي كان حقد وكراهية الناظر عطية الله يمنعه من الإتيان بها حين كان بيننا في لوانجو، بل أقول جحود الناظر وارتيابه في قدرات وتصرّفات الأب، بالإضافة طبعًا إلى سخافة مراقبي الممرّات.

بفضل هذه الأفكار الإيجابية عن الأب، وعن الرغبة في الإبقاء على الأمل في عودة الأب، استطعنا أن نذهب في نوم عميق. صباح اليوم

التالي قال بعضنا إنه في تلك الليلة قد جاءه الأب في المنام وقد ارتدى ثيابًا بيضاء. البعض الآخر قال إنه شاهده وقد نبت على كتفيه جناحان أثناء طيرانه باتجاه الفردوس السماوي. أما أنا فكنت أكثرهم جموحًا في خيالاتي، إذ شاهدت الأب موبلو يجلس إلى يمين الربّ فوق كرسي العرش السماوي، وهو المكان المخصّص وفقًا لما جاء في الأناجيل لجلوس يسوع المسيح إلى يمين أبيه، كما يقول الكتاب.

في الأيام التالية عندما كنّا نمرّ أمام باب قاعة حصص الدين، كانت قلوبنا الصغيرة تمتلئ بالحزن والشجن ويثقلها الأسى والأسف. كنا نتخيّل أن أشباحنا لا تزال بداخل قاعة حصص الدين، تغنّي مع الأب وترقص حوله، أو تصفّق على إيقاع رقصات أقزام زائير. إلا أننا لم نعد نقدر على أن نتخيّله وهو يمزح، رغم أن رائحة نفتالين ملابسه كانت لا تزال تملؤ الأجواء. من الغريب أن أذكر لكم هنا أنه بمجرّد ورود أي أفكار أو صور أو خيالات إلى ذهني عن الأب موبلو، كانت تأتي إلى منخاريَّ على الفور رائحة النفتالين. نوع من ارتباط الفعل المنعكس الشرطي.

لكن للأسف الشديد بمرور الأسابيع والشهور دون عودة الأب إلى الظهور، بدأت الذاكرة الجمعية للأطفال في نسيان الجمل والعبارات الثمينة التي كان الأب يكرّرها، ثم في نسيان ألحان وإيقاعات الأغنيات التي كانت كل يوم سبت تعطينا القدرة على استئناف الدراسة في هذه الدار خلال خمسة أيام طوال بين الاثنين والجمعة.

(٦)

استغلّ الناظر شبكة علاقاته، حتى يتمكّن أبناء إخوته وأخواته، من الحصول على دورات دراسية مكثّفة، في المذاهب السياسية والفلسفية، في معهد يقع ببوانت نوار. بالتالي تمكّن الناظر من تعيينهم رؤساء وقادة، في قطاعات الحركة الوطنية الخاصة بالشبيبة الكونغولية، ومن بينهم شباب دور الأيتام. وقد كثرت دور الأيتام في تلك المرحلة من تاريخ الكونغو بسبب غياب الآباء؛ إما في عمليات اقتتال، وإما في عمليات هجرة غير مشروعة إلى أوروبا. ورغم أنهم قد أصبحوا قياديين في هذه الثورة، إلا أنهم رغم ذلك ظلّوا واقعين تحت سيطرة عمّهم أو خالهم.

كانت هناك كذلك منظّمة اتحاد الشبيبة الاشتراكي الكونغولي، والتي كانت تعتبر مفرخة لأعضاء حزب العمل الكونغولي؛ لأن الحكومة كانت تختار من بين أعضاء منظمة الشبيبة، الأفراد الذين سيصلون لاحقًا لشغل وظائف قيادية في الحكومة. لهذه الأسباب كان أبناء إخوة الناظر من ناحية أبيه موعودين بمستقبل باهر. وهو ما أغاظ بقيّة أولاد إخوته، من ناحية أمه، الذين ظلّوا طوال حياتهم يشغلون وظيفة مراقبي ممرات دار الأيتام.

هكذا بدأت هذه المجموعة من المراقبين، في تصريف مشاعر الظلم المكبوتة الواقعة عليهم من طرف الناظر، بالإساءة إلى أطفال الدار وإيقاع الظلم عليهم. وقد تلذّذنا بهذه الأجواء العاصفة التي أوقعت بعض مراقبي الممرات في صراع مع بعضهم الآخر، كاد أن يصل في بعض الحالات إلى الصراع بالأيدي والأقدام، وبالتالي كان الناظر مضطرًّا إلى التدخّل بتهديدهم جميعًا بالرفت، وهو ما كان غالبًا يكفي لتهدئتهم.

لم يكن من السهل على أي شخص أن يصبح مسؤولًا في منظّمة الشبيبة، إذ كان المسؤولون الحكوميون يقومون بعمليات تمشيط دقيق، لكل ملفّات المتقدّمين لشغل هذه الوظائف، واضعين في الاعتبار الأصول العرقية والقبلية، للمرشّحين لهذه الوظائف. وحيث إن أغلبية أعضاء الحكومة والبرلمان، كانت من بين أفراد القبائل الشمالية، فإن أغلب المسؤولين في منظّمة الشبيبة كانوا هم أيضًا من بين أفراد القبائل الشمالية. خاصة من قبيلة (موبوشي)، رغم أنها لم تكن تمثّل أكثر من ٣,٥٪ من التعداد العام لسكّان البلاد.

كان بونافنتورا دائم التساؤل عن السبب في تعيين رجال عجائز مسنّين، بشعور رأس بيضاء في لون الدقيق، كرؤساء في منظّمة الشبيبة؟ ما صلتهم هم بالشبيبة؟ كان هؤلاء يأتون أسبوعيًّا إلى دار الأيتام، بحجّة إعطاء الأطفال محاضرات توعية سياسية! وكان مغتاظًا بشكل خاص من أن يقوم أولاد إخوة الناظر بإعطاء مثل تلك المحاضرات رغم مستواهم الثقافي الضحل. كان مغتاظًا من طريقة ارتدائهم لملابس قاتمة الألوان، ومن وضعهم عوينات ذات زجاج سميك بسبب معاناتهم من قصر النظر.

يقول بونافنتورا: «إنهم يتحدّثون إلينا كما لو كنا لا نزال أطفالًا في الثالثة من العمر، بل إنهم أحيانًا يتحدّثون إلينا بمصطلحات يستعملونها دون أن يعرفوا معناها، حفظوها هكذا أثناء الدورات التي ذهبوا لحضورها في رومانيا أو موسكو. أما الباقون الذين لم يسعدهم الحظّ بالذهاب في دورات دراسية إلى خارج البلاد، فهم يقلّدون تمامًا أولئك الذين ذهبوا إلى هذه الدورات، ويكرّرون على مسامعنا نفس تلك المفردات والمصطلحات، دون أن يكونوا قادرين هم أيضًا على فهمها أو على شرح معناها. لذلك كانوا جميعًا يكرّرون إلى ما لا نهاية هذه العبارة (هناك الكثير من الجدل الدائر حول هذا المصطلح أو ذاك)، وهكذا يتركون لأنفسهم خطّ رجعة، يسمح لهم بإعطاء تعريفات متناقضة لنفس المصطلح».

من بين الجمل الأخرى المتكرّرة، كانوا يقولون: «ينبغي أن ننظر إلى هذا الموضوع من وجهة نظر جدلية». أو يقولون: «إن ممثلي الإمبريالية العالمية وهي الاستعمار الحديث، مع عملائهم المحليين، هم الذين -من وجهة نظر جدلية- يصوغون كتب التاريخ، لذلك ينبغي علينا أن نعطي الأهمية الأولى لبناء الإنسان، ونعطي الأهمية الثانية لبناء الطرق والكباري والمساكن، وليس العكس كما تفعل أغلب نظريات التنمية الإمبريالية».

يجب ألا أنسى أن أذكر أن أبناء الإخوة الثلاثة المعينين في منظّمة الشبيبة، الذين عملوا طويلًا كمراقبي ممرات، كانوا قبل الثورة الاشتراكية قد عملوا طويلًا أيضًا، كثلاثة رجال كبار الحجم، يمكن الاستفادة بهم فقط بسبب قوّتهم العضلية البدنية، ولم تكن قد ظهرت

على أيٍّ منهم، في أي وقت من الأوقات، أيّ علامات تدلّ على الذكاء. رغم ذلك فقد وضعهم الناظر في حجرة إلى جوار حجرته، وقدّم فيها لكل منهم مكتبًا، كانوا يغلقون بابها عليهم، ويجلسون معًا يخطّطون لتحرير النشرة الأسبوعية المعروفة باسم (يقظة القادة)، وهي نشرة دعائية لمنظّمة الشبيبة.

لم تكن هذه النشرة تُوزّع باليد؛ لعدم وجود نسخ كافية منها، بل كانت تلصق على جدران المؤسّسات العاملة في قطاع الشباب صباح كل يوم اثنين في بداية أسبوع العمل. كانت العادة هي أن نقف أمام الجدار حيث تُلصق النشرة لنقرأها قبل دخولنا إلى أول حصّة مدرسية، في أول يوم من أيام الأسبوع. في الحقيقة لم يكن محرّرو هذه النشرة يفعلون أكثر من إعادة استعمال، مقاطع من خطب رئيس الجمهورية، أو من خطب غيره من رؤساء قطاعات الشباب، التي كانوا يحصلون على نسخ منها من المسؤولين. ورغم هذا كانوا يحاولون أحيانًا، صياغة افتتاحية من وحي قريحتهم، المتأثّرة بأسلوب خطب رئيس الجمهورية، يتوجّهون فيها غالبًا بالحديث إليه.

وكان الناظر يحاول أن يشارك أحيانًا في صياغة هذه الافتتاحية، معتقدًا أن رئيس الجمهورية شخصيًّا يهتم بما يكتبه عطيّة الله، ليستعين بأفكار عطية الله قبل أن يتوجّه الرئيس إلى اجتماعه الأسبوعي صباح الاثنين مع وزراء حكومته. لهذا الاعتقاد كان عطية الله يضيف إلى افتتاحياته عبارات من نوع (رئيس جمهوريتنا الذي لا يقهر)، أو (الرئيس الذي ينتصر في كل معاركه لأنه مبعوث العناية الإلهية إلى الأرض).

(٧)

من المفيد هنا أن أذكر أن رئيس جمهوريتنا كان قد عُرِفَ في شبابه بأحد الأعمال البطولية، الذي سُجّل في ملفّ سيرته الذاتية *CV*، وهو أنه تمكّن أثناء شبابه الأول، وهو على ضفاف نهر (كويو)، من الإمساك بتمساح من ذيله، ثم ضربه على رأسه ضربةً قويةً، أفقدته وعيه، مما مكّنه من سحب هذا التمساح، عائدًا به إلى منزل جدّته، التي قتلت التمساح وسلخته، ثم طبخت لحمه الذي أكل منه كل سكّان القرية لعدّة أيام.

وهكذا شاع الاعتقاد بأن رئيس جمهوريتنا أصبح شخصًا مخيفًا للتماسيح، حتى إنها تختفي من ضفّة النهر إلى عمق مياهه، لتنقذ نفسها من هذا الرجل المرعب المخيف كلّما رأته قادمًا إلى ضفّة النهر. فيما بعد لم تعد التماسيح تجرؤ على الخروج من مياه النهر لتستريح على ضفافه، وتتنفّس قدرًا من الهواء، حتى لو لم يكن رئيسنا موجودًا، فقد أصبحت تماسيح النهر تخاف من جميع أفراد قبيلة رئيسنا بما فيهم أطفال القبيلة.

وقد أدرك جميع أفراد القبيلة، حجم الشجاعة والإقدام اللذين تميّز بهما هذا الشاب، الذي سيصبح يومًا ما رئيس جمهوريتنا، وحجم إدراكه لمسؤوليّاته نحو مجتمعه، واستعداده للتضحية بنفسه في سبيل

إطعام كل أفراد القبيلة، وذلك لتميّزه الواضح عن الشباب المراهقين، الذين كانوا في ذلك الوقت في نفس سنّه، وكانوا لا ينشغلون إلا بتوافه الأمور، مثل مطاردة فئران أشجار النخيل، في حقول ذويهم، أو اصطياد الطيور الدورية، بالنبال وقاذفات الحصيّ، التي لم تكن قادرة حتى على كسر ساق ذبابة النوم المعروفة باسم (تسي تسي).

ثم فيما بعد أُضيف إلى هذه القصّة الخرافية المزيد من القصص الخرافية، مثل قصّة قدرته على تبادل أطراف الحديث مع القرود الضخمة الحجم من نوع الغوريلا، باستعمال لغة الغوريلا، وقدرته على تبادل أطراف الحديث مع الأفيال، باستعمال لغة الأفيال، وهكذا لا نهاية للأنواع الحيوانية التي كان يجيد الحديث بلغاتها، ناصحًا إيّاها بالابتعاد عن المناطق، التي يكثر فيها تواجد معسكرات الصائدين الأوروبيين، الذين يبغون صيد هذه الحيوانات، وبيعها إلى حدائق الحيوانات في المدن الأوروبية.

كان الحادث الثاني الذي يضرب للتدليل على شجاعة وإقدام رئيس جمهوريتنا، قد وقع أثناء الحرب الأهلية العرقية، التي اجتاحت البلاد ووقعت بين القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية، التي انتصر فيها الشماليون لما تميّزوا به من ذكاء مقارنة بأقرانهم الجنوبيين. هنا أيضًا ظهرت شجاعة هذا الشاب اليافع، الذي سيصبح يومًا رئيسًا للجمهورية. القصة تبدأ بالفكرة التي خطرت على بال رئيسنا، وهي أن يتنكّر زعيم قبيلته في زيّ نسائي، لامرأة عجوز تتعكّز على كتف حفيدها، وبهذا الشكل تمكّنا معًا من اجتياز مناطق الحدود بين الشمال

والجنوب، والتسلّل إلى معسكر رئيس الجنوبيين ومن ثمّ اغتياله، مما أدّى إلى تشتيت القوّات الجنوبية، وسهّل انتصار الشماليين. ولا يزال الجنوبيون يشعرون بالمهانة بسبب نجاح هذه الحيلة في خداعهم جميعًا.

أمام كل هذه الإنجازات الضخمة لهذا الشاب اليافع، وأمام دلائل هذا الذكاء الاستثنائي الذي أحسن استغلاله في هذه المعركة الحربية، قرّر زعيم قبيلته أن يرسله للدراسة في المدرسة العسكرية في برازافيل. لا تزال جموع الشعب تتذكّر تلك الفترة من حياة الزعيم، عندما كان يقطع كيلومترات عديدة على قدميه للذهاب إلى المدرسة وللعودة منها، ولم يكن غذاؤه يتكوّن إلا من فطيرة مانيوك وقطعة من لحم تمساح مدخّن.

بعد تخرّجه تمّت الاستعانة به كمقاتل في الحروب التي شنّتها القوّات الفرنسية على الوطنيين، في جمهورية أفريقيا الوسطى أولًا، ثم في جمهورية الكونغو ثانيًا. عندما تمّ الحصول على الاستقلال لجمهورية الكونغو، قرّر المسؤولون إرساله إلى فرنسا للدراسة في واحدة من أعرق أكاديميّاتها العسكرية. بعد حصوله على تلك الدرجة العلمية، عاد إلى حضن الوطن برتبة ملازم أول، وبشراسة ذئب يافع، أراد على الفور تغيير كلّ الأوضاع في أقلّ وقت ممكن. لم يتحمّل الاتجاه الذي اتخذته حكومة البلاد أثناء غيابه في فرنسا، فقرّر وهو في الثانية والعشرين أن يقوم بانقلاب عسكري لتغيير نظام الحكم، وهو ما وضعه على رأس السلطة في البلاد.

في تلك الافتتاحيّات الصحفية المشار إليها أعلاه للناظر عطيّة الله، كان يكتب بالخط العريض عناوينه التي تقول: إن المسألة لم تكن أبدًا حركة عسكرية لقلب نظام الحكم، فهذا هو فقط ما يشيعه الكتّاب الغربيون في جرائدهم وكتبهم، وهم ألدّ أعداء ثورتنا؛ لأننا كنا نطالب بتغيير نظام الحكم العميل، الموالي للاستعمار الغربي، وتأخرّت الدول الأوروبية في الاستجابة لمطالباتنا، فاضطررنا إلى التضحية بدمائنا التي سالت في سبيل حصولنا على الاستقلال. بعد وصول رئيسنا إلى قمّة السلطة، جاءته في منامه الدعوة إلى إنشاء حزب العمل الكونغولي، واتحاد الطلبة الاشتراكيين الكونغوليين.

كان الناظر عطية الله في نهايات افتتاحيّاته، رغم شيوعية البلاد، يقارن بين رئيس جمهوريتنا وبين يسوع المسيح؛ لأن رئيسنا فعل مثلما فعل يسوع المسيح، فحمل على كتفيه خطايا شعبه التي اقترفها عبر أجيال عديدة منذ أزمنة سحيقة القدم، على غرار ما فعله المسيح عندما حمل على كتفيه خطايا البشرية منذ زمن أبينا آدم وأمنا حوّاء، وقدّم نفسه على الصليب كذبيحة حيّة.

أتذكّر أنه بفضل العدد الأول من تلك النشرة المسمّاة (يقظة القائد)، أننا حصلنا على المعلومات، التي تشير إلى أن حكومتنا كانت قد أصدرت القرار، بمنع كلّ أشكال التعليم الديني من دخول كل المؤسّسات التعليمية الرسمية في البلاد، وقد تضمّن هذا القرار كلّ مؤسّسات رعاية الأحداث وملاجئ الأيتام، وأن هذا القرار قد صدر ليبدأ تطبيقه على الفور في نفس يوم صدوره؛ وذلك لأن سلاح الدين

المسيحي، كان من بين الأسلحة التي استعملها المستعمر الأوروبي، في تقويض ثورات الشعوب في أفريقيا؛ لأن التعاليم المسيحية تحضّ على الاستسلام للقدر.

في نفس الوقت أصدرت حكومتنا الغرّاء القرارَ بأن تكون مبادئ الشيوعية الماركسية اللينينية من بين المواد الدراسية الإجبارية في جميع مراحل التعليم. بعد ذلك أدركنا السبب في أن تعاليم الأب موبلو، كانت قد اعتبرت من بين التعاليم غير المرغوب فيها، رغم أنه لم يمارس على الإطلاق أي أنشطة سياسية. ذكر نصّ إحدى افتتاحيات (يقظة القائد)، أن هذا الأب كان أحد المتآمرين مع الاستعمار الأوروبي، ضد مصلحة الشعب الكونغولي، بمحاولة تدريسه مبادئ المسيحية الاستسلامية. قيل كذلك إن الأوروبيين اعتادوا في مستعمراتهم السابقة، على محاولة استعادة نفوذهم المفقود، وعلى محاولة إضعاف حماس شبابنا للثورة الاشتراكية الوليدة، بالاعتماد على نشر الديانة المسيحية بتعاليم أشخاص مثل الأب موبلو.

ونحن لم نعرف أبدًا، مَن هو محرّر النشرة، صاحب هذا الرسم الهزلي الكاريكاتيري الساخر، الذي صوّر الأب موبلو في صورة ساحر شرير، من سحرة الجحيم، وهو يقوم بمحاولة تنويم أفراد الشعب مغناطيسيًّا، وهو يحمل في يده كتابًا بعنوان (حكايات الأساطير المسيحية)، وقد وُضِعَ تحت هذا الرسم تلك العبارة المألوفة التي تقول إن (الدين هو أفيون الشعوب). كان من الواضح لنا جميعًا أن مستوى صياغة المعلومات الموجود في النشرة، يفوق مستوى ذكاء وثقافة

مجموعة محرّريها من مراقبي الممرّات السابقين، بما فيها من فصاحة لغوية، وملامح إحالات ذكيّة؛ لذلك اعتقدت أنه من المحتّم وجود محرّرين آخرين.

أما الفتيات فكنّ قد بدأن في عنابرهنّ يستقبلن مدام مابوكيه، وهي الممثلة الشخصية لزوجة رئيس الجمهورية والناطقة بلسانها، وكانت تشغل منصب رئيسة الاتحاد الثوري لنساء الكونغو، وكان اسم زوجة رئيس الجمهورية يأتي على لسانها، تقريبًا في كل جملة تنطقها، طالما أنها كانت تتحدّث إلى الفتيات، عن إنجازات زوجة رئيس الجمهورية. كانت في نفس الوقت تكرّر كذلك عبارة تقول، إن زوجة رئيس الجمهورية شديدة الاعتناء بالفتيات وبمستقبل الفتيات، كانت مدام مابوكيه غالبًا ما تأتي إلى الدار، وهي تصطحب معها عددًا من السيّدات كبيرات السنّ، يصلحن بالأحرى جدّات للفتيات، كن يقدّمن للفتيات دروسًا في فنون الطبخ، وهنّ يستعملن أدوات طبخ من الحجم الصغير، لتتناسب مع حجم أيدي الفتيات الصغيرات.

لكن هذه المدام كانت تصطحب معها أحيانًا فتيات شابات، يكبرن فتيات الدار فقط ببضع سنوات، وفي هذه الحالة كانت الدروس هي في فنون كيفية تضفير الشَّعر وصبغ الأظافر بالألوان. عند حضور هؤلاء الشابات إلى الدار، كانت تحدث حالة استنفار قصوى، لحراستهنّ من احتمالات التحرّش بهن من قبل صبيان ملجأ الأيتام، المحرومين من متعة مشاهدة هذه الغزالات، وهو اللقب الذي أطلقناه عليهنّ، خاصة وهنّ يرتدين سراويل تلتصق بأفخاذهنّ، ويرتدين قمصانًا تلتصق

بصدورهنّ، فتبدو من خلالها تفاصيل الأثداء. كان احتكاك أجسادهنّ بملابسهنّ يبدو في آذاننا مثل طقطقة حبّات الذرة فوق زيت نخيل في حالة الغليان.

أعتقد الآن أن بعض هذه الغزالات كنّ على استعداد لتبادل المشاعر مع صبية الملجأ، بدليل أنهنّ أثناء مرورهنّ بالفناء عند الوصول أو عند المغادرة، كنّ يتباطأن قليلًا في حركاتهنّ، ويتبادلن معنا عبر نوافذ عنابرنا بعض النظرات الموحية، وقد نتبادل معهنّ بعض الإشارات والتحيّات، حتى لحظة ظهور الأفظاظ الشرسين مراقبي الممرّات الذين كانوا يقفون في الفناء في انتظار لحظة مرور الغزالات، حتى يطيلوا النظر في مؤخّراتهن. لذلك أعتقد أن عدوانيتهم في الغالب كانت بسبب الغيرة؛ لأن الفتيات يتبادلن النظرات فقط مع صبية الملجأ، ويظهرن الودّ مع الصبية، ولا يظهرن الودّ نفسه مع المراقبين. كنا نخشى أن يلمح أحد مراقبي الفناء رأس أحد الصبية عبر إحدى النوافذ، فيسعى فيما بعد إلى الانتقام منه.

كنا نتمنى لو كان لنا حظّ تلك الفئران الصغيرة التي كانت قادرة على التسلّل إلى عنبر الفتيات دون أن يلاحظها أحد. كذلك كان يأتينا أحيانًا أصوات غناء وتصفيق، تصل إلى عنبرنا من عنبر الفتيات، لكننا لم نتمكّن أبدًا من معرفة إن كانت هذه الإيقاعات تصاحبها رقصات، إلا أننا على أي الأحوال كنا نشاركهنّ عاطفيًّا، بالتصفيق معهنّ على نفس الإيقاعات. ربّما وصل تصفيقنا هذا إلى الفتيات، وأدركن أنه كان نوعًا من المشاركة الوجدانية.

(٨)

في الحقيقة حتى ذلك العام الذي هبطت علينا فيه تلك الثورة الاشتراكية العلمية الماركسية اللينية، كما يسقط المطر فجأة من السماء، كنا غير متوقّعين على الإطلاق حدوثها، حتى أن أمهر سحرة البلاد، وأشهر مدّعي القدرة على التنبّؤ بالغيب، لم يستطيعوا رؤيتها قادمة. كنت أجد نفسي ذكيًّا جدًّا، بل كنت أكاد أجزم أن مؤسّسة دار أيتام لوانجو، ليست فقط لإيواء الأطفال الذين هم بلا أب أو أم، بل هي في الأساس مؤسّسة لرعاية الأطفال المتميّزين في الذكاء وفي المواهب المختلفة.

أما بونافنتورا فكانت بصيرته أقوى من بصيرتي. كان يرى الحقيقة أكثر مني. إذ كانت دار الأيتام في نظره مؤسّسة تجمع كلّ الأطفال غير المرغوب فيهم. ويفسّر ذلك قائلًا إننا إذا كنا نحب طفلًا، فإننا نخرج معه في نزهات خلوية، ولا نقوم بحبسه طوال الأسبوع خلف الجدران، بين أربعة حوائط، لا يستطيع الخروج منها، كما لو أنه كان مسجونًا أو أسيرًا. كان يستطيع قول هذا مستندًا فقط إلى قصّته الشخصية، وفقًا لما حكوه له عن والديه. نعم لم يكن بونافنتورا يجهل الشخصية الحقيقية

لوالديه. هو على الأقل متأكّد من أنَّ له أمًّا لا تزال على قيد الحياة. لم يفهم أبدًا لماذا وضعته هنا عندما كان طفلًا رضيعًا، ولماذا تركته مهملًا تمامًا لفترة طويلة، ولم تسأل عنه إلا بعد أن أصبح صبيًّا قويًّا، ثم عادت من جديد إلى الاختفاء.

تركته بين كلّ هؤلاء الأطفال الذين يبدو أن كلًّا منهم يعاني من مشكلة خطيرة، لم يجد لها أهل كل طفل أي حلّ إلا بالإتيان بالطفل إلى هنا. في رأيي أنا الشخصي، كنت أعتقد أن أطفال دار الأيتام، يحصلون على فرصة غير متاحة لغيرهم من الأطفال، إذ يحصلون على تعليم أرقى من ذلك التعليم الذي يحصل عليه غيرهم من الأطفال خارج هذه المؤسّسة. كان الناظر عطية الله يكرّر علينا هذه العبارة، التي كنت أجده مصيبًا فيها. لكنه كان كذلك كثير الميل إلى تقريظ ذاته، وإلى مدح كفاءاته الشخصية، التي جعلته ناظرًا لمدرسة، تكون نتائج تلاميذها في الامتحانات العامة في نهاية العام، هي أفضل نتائج على الإطلاق على المستوى القومي، بما في ذلك المدارس الأكثر حظوة في مدينة بوانت نوار، مع ملاحظة أن امتحانات نهاية العام، على المستوى القومي، تكون هي نفس الامتحانات في جميع مدارس البلاد.

كان هناك كذلك مصدر آخر لفخر الناظر، وهو أن مرتّبات مدرسي دار أيتام لوانجو، هي أفضل مرتّبات مدرسي جميع مدارس البلاد. قد يكون هذا حقيقيًّا وذلك لأن مصادر دخل دار أيتام لوانجو، التي تدفع منها مرتّبات العاملين، تأتي من ورثة مملكة لوانجو، التي كانت في البلاد قبل الفترة الاستعمارية، وهؤلاء الورثة يفعلون ذلك لأنهم يريدون

أن يشيروا إلى أن نفوذ مملكتهم القديمة لا يزال قائمًا، ولو على الأقل بشكل رمزي. لذلك كانت دار الأيتام تلك منفصلة عن دولة الكونغو، بل يمكنني حتى أن أدّعي أنها كانت منفصلة عن العالم كلّه.

ولأن حياتنا كانت بالكامل داخل دار الأيتام في (لوانجو)، لذلك لم يكن لدينا أي علم بما يدور خارج دار الأيتام، ولا حتى في التجمّعات السكنية المحيطة بها، ولا في الرأس الأسود (بوانت نوار) الميناء الرئيس والعاصمة الاقتصادية للبلاد، التي لم نكن نبعد عنها إلا بعشرين كيلومترًا فقط لا غير، وكانوا يحدّثوننا عنها، كما لو كانت الأرض التي وعد بها ربّ الجنود شعبه المختار. كان هذا الجهل التام بأحوال العاصمة الاقتصادية غريبًا جدًّا، مع هذا القرب الشديد منها. وفقًا لما قاله لنا مدرّس التاريخ، كانت بوانت نوار هي عاصمة مملكة لوانجو، التي أسّستها قبائل جنوبية، خلال القرن الخامس عشر للميلاد، لكنها بعد ذلك وخلال القرون من السادس عشر إلى التاسع عشر، تحوّلت إلى مركز هام لتصدير العبيد، إلى الأراضي الجديدة الواقعة غرب المحيط الأطلنطي.

حكاية تحوّل الأسلاف إلى عبيد يباعون ويشترون، كان مدرّس التاريخ يحكيها لنا بأسلوب يجعله يثور هو أولًا، ثم يجعلنا نحن كذلك نلحق به في نفس ثورته، ونحن في حالة سخط شديد على الرجل الأبيض، الذي بسبب تفوّقه العسكري حوّل أسلافنا الرجال الأشد قوّة والأصلح جسمًا إلى حيوانات وبهائم من المواشي، تعمل في حقول الأمريكتين بالكرباج، دون أيّ حقوق باستثناء وجبة الغذاء. لم تقتصر

العبودية على الرجال الأشدّاء، بل انضمت إلى الرجال نساؤنا الأكثر جمالًا، اللائي كنّ يُبَعْنَ في أسواق النخاسة للاستعمال الجنسي.

كان يتمّ شحن الجميع في باطن السفن المتجهة إلى الموانئ الأمريكية، في رحلات مهلكة دون أي مراعاة لشروط الصحّة النفسية والبدنية، مما كان يؤدّي إلى موت عدد كبير منهم قبل بلوغ ميناء الوصول. عند الوصول كانت عمليات التعذيب مستمرة، وذلك بختم جلود الجميع رجالًا ونساء، بعلامات حديدية ملتهبة تترك أثرًا غائرًا في الجلد، لا يمكن التخلّص منها أبدًا، ويظل هذا الختم دلالة على أن العبد هو ملكية خاصة للشخص الذي اشتراه، ويمكنه أن يبيعه لأي شخص آخر في أي وقت. هكذا كان يتمّ التفريق النهائي بين الآباء والأبناء، ولا يعود أي منهم يعرف أين ذهب الآخر. أما إذا حاول أحدهم الهرب، رغم استحالة عودته إلى البلاد، كانوا يعثرون عليه بسهولة ويقطعون له ساقًا من أسفل الركبة، بحيث يمكنهم استئناف استغلاله في العمل، على أن تصبح فرصته في الهروب معدومة؛ لأنه بساق واحدة ولم يعد قادرًا على الجري.

بعد ذلك كان مدرّس التاريخ ينظر عبر النوافذ، ليتأكّد من أن أحدًا لا يتجسّس عليه، ثم يخفض من صوته وهو مستمر في الحديث إلينا، ليفصح لنا وهو تعيس بائس، عن حقيقة أن الكثير من العائلات الكونغولية الثرية، كانت ضالعة مع المستعمر الأبيض، في عمليات مطاردة الشباب في الغابات، وبيعهم إلى الرجل الأبيض، كما لو أن هؤلاء الرجال الشباب، الذين أصبحوا عبيدًا، لم يكونوا يومًا ما

مواطنين صالحين. بل إن بعض أفراد تلك العائلات الثريّة، كانوا يرسلون أبناءهم إلى باريس، لممارسة عمليات التفاوض في أسعار البيع والشراء، والحصول على سمسرة كبيرة يضعونها هناك في حسابات بنكية، تسمح لهم بالعودة إلى باريس حين يشاؤون، ليعيشوا فيها حياة البذخ والثراء كسيّاح أجانب.

قال: كما ترون كان أسلافنا أحيانًا يباعون ويشترون، بواسطة رجال من مواطنيهم الكونغوليين، فإذا حدث ذات يوم وقابل أحدكم رجلًا أمريكيًّا أسود البشرة، يمكنه أن يقول في نفسه، لعلّه من نسل أحد أسلافه الأوائل.

إن المشكلة الحقيقية في الكونغو، هي أنه حتى ذلك الوقت من طفولتي، كانت القبائل الكونغولية تنظر إلى بعضها بعنصرية شديدة، فأي قبيلة كانت تعتقد أنها أفضل من كل القبائل الأخرى على الإطلاق، وكل قبيلة تقول لأبنائها إنهم أفضل البشر في كل القبائل، وإنهم خير من أنجبت الأمهات، وهو الشعور الذي يسمح لأفراد كل قبيلة بالتعالي على الآخرين، والنظر إليهم بنظرة تكبّر واستعلاء، وكانوا بالتالي يتعاملون باحتقار وعدوانية، وهكذا لم تكن هناك أي فرصة للتعاون بين القبائل من أجل توحيد البلاد، حتى يكون للبلاد الفرصة في مستقبل أفضل للأجيال القادمة. وكانت كل قبيلة مستمرّة في توجيه الاتهامات إلى القبائل الأخرى، فيما يتعلّق بالإجابة عن السؤال عمَّن كان المتعاون مع الرجل الأبيض في بيع الأسلاف؟

قال: وبما أنَّ هناك احتمالًا كبيرًا أن يكون هناك أفراد من كل القبائل الكونغولية ضالعون في التعاون مع الرجال البيض، إذَنْ فليس هناك أي مجال لاتهام الرجل الأبيض وحده بالمسؤولية عن انتشار تجارة العبيد السود في الأمريكتين، فكل قبيلة من قبائلنا كانت مشاركة في المسؤولية عن وقوع أفراد من القبائل الأخرى أسرى في يدّ تجّار العبيد.

طبعا لاحظ المدرّس صدمتنا بخصوص ما قاله لنا للتوّ، حتى إننا أصبحنا تقريبًا شبه فاقدين للنطق. فأراد أن يعيد إلينا قدرًا من الراحة النفسية، فبدأ يتحدّث عن حجم الآثار التي تركتها حضارات بلادنا القديمة، في أماكن متفرّقة من البلاد، كشواهد تاريخية على عظمة الأسلاف. وذكر لنا بعض النماذج عمّا يريد قوله، مثل القصر الملكي لمملكة لوانجو الذي يقع في منطقة ديوسو على بعد أقل من كيلومترين من مقرّ دار الأيتام، وقد تمّ تحويله الآن إلى متحف للمقتنيات الملكية، سيكون بالتأكيد من حسن حظّ بعضكم، زيارته في السنوات القادمة، بعد حصولكم بإذنِ الله على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية العامة.

في ذلك الوقت لم يعد لنا حديث أثناء الفسحات المدرسية خلال اليوم الدراسي إلا عن تراث الأجداد من قصور ومقار حكم، تركوها لنا في حالة جيدة، وأتلفها الإهمال. ثم بدأت مدينة بوانت نوار الساحرة الغامضة، تشغل هي الأخرى قدرًا كبيرًا من خيالاتنا. وكان مدرّس التاريخ دائم الحديث عنها بوله شديد؛ لأنها كانت مسقط رأسه، ومرابض صباه، وعاش فيها طفولته ومراهقته. أحسّ مراقبو الممرّات بخطر انغماسنا في أحلام اليقظة التي سنحاول حتمًا تحويلها إلى حقائق

معاشة، فبدأوا في حملة لتخويفنا من الهروب من دار الأيتام، ومن الذهاب إلى بوانت نوار، بدعوى أن شوارعها تعجّ بصبية متشرّدين، سيكون لهم أسوأ تأثير علينا لو اختلطنا بهم، ثم ينهون كلامهم بالإشادة بدار الأيتام في لوانجو، واصفين إيّاها بأنها جنّة الله في أرضه.

ولأني لا أثق إطلاقًا في كل ما يقوله لنا المراقبون، شعرت بأنني إذا لم أنقذ نفسي يومًا ما من دار الأيتام هذه، فمن الأفضل لي أن أذهب إلى شاطئ المحيط الأطلنطي على بعد كيلومترات قليلة، وأربط حجرًا حول عنقي، وأُلقي بنفسي في الماء الصاخب، حتى تأكلني أسماك القرش الجائعة. كان الاعتقاد السائد هو أن أسماك القرش هذه من الأرواح الشرّيرة، التي لا يمكن لها إلا الإتيان بأفعال شرّيرة. شاع كذلك الاعتقاد أن بعض سحرة بوانت نوار، كانوا قادرين على التواصل مع بعض أسماك القرش، مما يزيد من القدرات السحرية لتلك الأسماك. فإذا لم يكن هذا هو ما يحدث فعلًا، فكيف يمكن تفسير وجود كل هذه الأشلاء الآدمية، من بقايا الجثث الممزقة بأسنان أسماك القرش، بامتداد الشاطئ المهجور.

تقول الأسطورة: إن الذين سيقعون ضحايا بين أسنان أسماك القرش، يقفون أولًا بين يديّ (مامي واتا)، وهي كائن مركّب من نصف أعلى لأنثى بشرية، ونصف أسفل لسمكة قرش، تخرج فجأة من مياه المحيط بصدر عارٍ، وبشَعر رأس بلون الذهب، يسقط فوق كتفيها البشريين، وبعينين وضّاءتين بضوء النهار في منتصف الظهيرة، يبتسم هذا الكائن للطفل أو للمراهق، ويفتح له ذراعيه، فيندفع الطفل أو

المراهق نحوها صائحًا: (ماما، ماما)، فتنفجر فجأة أمامه في الضحك، ويتسبّب صوت صدى هذه الضحكات، في إثارة غضب أمواج المحيط، التي ترتفع فجأة إلى مستوى أعلى من مستوى البنايات السكنية الأكثر ارتفاعًا في المدينة. ثم فجأة يتحوّل هذا الكائن إلى سمكة قرش كاملة التفاصيل، بفم ذي أنياب حادة، تقبض بها على جسد الصغير، وتسحبه معها إلى أعماق المحيط.

يقول مروّجو الأسطورة: إنها تُدعى (نزينجا)، وإنها الجدّة العليا لكل ملوك الكونغو، تلك التي ظهرت أولًا هكذا على شكل نصف امرأة ونصف سمكة قرش، وقد استولت هكذا على حياة هذا الصغير سيئ الحظّ، وإنَّها فقط عيّنة من أعمال سحرة (بوانت نوار)، وإنهم قادرون على التحوّل إلى أي شكل يريدونه. إلا أن ذلك الشكل النصف آدمي النصف سمكة قرش، هو الشكل المعروف للجدّة العليا لكل ملوك الكونغو كما سبق القول، ولهذا تُنسب إليها كل المآسي التي تقع لشغب الكونغو.

هذا هو نوع الأحاديث التي كان مراقبو الممرّات يشيعونها في كلّ مرة يلتفّ حولهم بعض الصبية أثناء الفسحة المدرسية لسؤالهم عن مدينة بوانت نوار الساحرة التي يرغبون جميعًا في الذهاب إليها. ثم كان المراقبون يستغلّون فترات صمت التلاميذ المأخوذين المتردّدين بين التصديق والتكذيب، الخائفين المذعورين بكل ما تعني هذه الكلمات من معانٍ، يستغلّونها في إثارة المزيد من الرعب، بالقول بأنَّ كل الصغار الذين ذهبوا وحدهم إلى الشاطئ المهجور لبوانت نوار، وقعوا جميعًا

أسرى في يد الجدّة، التي سحبتهم معها واحدًا واحدًا إلى أعماق المحيط قبل أن تكمل افتراسهم هناك، ثم يلفظ المحيط بقاياهم في شكل أشلاء بشرية يتمّ العثور عليها بين رمال الشاطئ.

أما مدرس التاريخ فكان دائم السخرية من هذه الأساطير، ومن تلك الجدّة المدعوّة (نزينجا)، رغم أنه الاسم الحقيقي فعلًا لواحدة من أمّهات قدامى ملوك الكونغو. كان يتساءل لماذا هي تكره الأطفال رغم أنها حملت وأنجبت وأرضعت العشرات منهم؟ وهم الذين تكاثروا مئات المرّات حتى أنجبوا شعب الكونغو الحالي. ولماذا تأكل أطفالنا رغم أنها أمنا جميعًا؟ ولماذا تترك الأرض الثابتة لتسكن الماء المتقلّب رغم أنها كائن بشري وليست كائنًا بحريًّا؟

لم نندهش كثيرًا لاحقًا عندما عرفنا أن الناظر قد حذف اسم مدرّس التاريخ هذا من جدول الحصص، وأعاده بأمر إداري إلى مدينة مسقط رأسه بوانت نوار التي يهواها ويفضّلها على غيرها. هذا هو التبرير الذي ذكره الناظر لنا تفسيرًا لنقل هذا المدرّس. قال: إن المدرّس هو الذي اختار أن يعود إلى مدينة مسقط رأسه.

إلا أن الناظر لم يستطع أن يمنع نفسه من ذكر بعض الصفات، التي قال إنها كانت لصيقة بالمدرّس، مثل الدجّال الماكر المحتال، وبرّر ذلك بقوله: «إنه كان يحثّ الأطفال على الهروب من دار الأيتام»، و«إنه كان يدرّس للأطفال أفكارًا خاطئة عن تاريخنا القومي، بتصويره بعض أبطالنا في صورة متواطئين مع أعدائنا من المستعمرين البيض»، خاصة تلك المعلومات المضلّلة التي كان يشيعها، عن بيع بعض إخوتنا

السود المتواطئين مع المستعمر الأبيض، لبعض إخوتهم السود، كعبيد يشترون ويباعون في أسواق النخاسة الأوروبية.

ثم جاءنا مدرّس تاريخ جديد، كان هذه المرّة فرنسيًّا ١٠٠٪. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها شخصًا فرنسيًّا ١٠٠٪، أبيض البشرة ١٠٠٪، وأتحدّث إليه عن قرب. بدأ حصصه لنا بتدريس تاريخ ملوك فرنسا. وهكذا فجأةً لم نعد نتحدّث عن تاريخ ملوك الكونغو. هكذا بدأت فكرتنا عن الفرنسيين تتغيّر، ولم نعد نرى فيهم وجههم الاستعماري القديم القاتم، ولا حتى وجههم الإمبريالي الحديث الذي يعمل على إعاقة الثورة الاشتراكية، ليجبرنا على العودة إلى الاستعانة به. بل ظهرت لهم وجوه أخرى جديدة.

لكن حدث ذات يوم أثناء الخطبة الأسبوعية للناظر، ما جعل وجه مدرسنا الفرنسي الجديد يحمرّ خجلًا. قال الناظر: «مدرّسكم الجديد هذا ليس من فئة المستعمرين البيض الأوائل، وإن كان هذا لا يمنعني من قول إنه بين أفراد جيله الشاب من الفرنسيين، لا يزال هناك بعض الفرنسيين الذي يتمنّون لو عاد إلى فرنسا مجدها الاستعماري القديم». ثم قال إنه يؤكّد لنا أن ما سيعطيه لنا هذا المدرّس من دروس في التاريخ، سيزيد من ذكائنا، ومن قدرتنا على إدراك الكثير من الأشياء التي كانت غامضة علينا إلى الآن، حتى إنه قد يمكننا ذات يوم أن نصبح أكثر ذكاءً من التلاميذ الفرنسيين الذين هم في نفس عمرنا. ثم طلب منا أن نصفّق للمدرّس الأبيض.

كنت أعرف أن بلدنا الكونغو الفرنسي (كينشاسا) تقف بقدميها على جانبي خطّ الاستواء، بمساحة كلية تصل إلى ٣٤٢ ألف كيلومتر مربع، وأن الدول الأقرب إلينا هي الجابون وأنجولا والكاميرون وجمهورية أفريقيا الوسطى، بالإضافة طبعًا إلى الكونغو البلجيكي (زائير)، هذه الدول كلها تشاركنا في مياه نهر الكونغو. كنت أعرف كذلك أنه قبل زمن دخول الاستعمار الأوروبي إلى القارة، وتحويلنا إلى الديانة المسيحية، كانت هذه الدول كلّها متصلة بعضها ببعض، دون وجود أيّ حدود أو تقسيمات سياسية. كانت كل هذه الدول التي تشغل مساحة هائلة من الأرض، تحمل جميعها اسم مملكة الكونغو، كان هذا قبل القرن الثامن عشر. على رأس هذه المملكة الضخمة كانت توجد امرأة ملكة اسمها (نزينجا)، وهي الجدّة الكبرى لكل الملوك الذين تتالوا على عرش البلاد.

* * *

(٩)

كان الناظر يستقبل كل يوم المزيد من أعضاء (حزب العمل الكونغولي)، وكانوا يجوبون أرجاء المدرسة كأنهم مفتّشون، فكان يجب علينا كتلاميذ أن نضرب لهم المثل في الدقّة والانضباط. عندما كان هؤلاء يزوروننا في فصولنا، يصبح الناظر نزقًا متهوّرًا، فيصيح بصوت مرتفع في الفصول قائلًا: «عليكم أن تحسنوا التصرّف أمام الضيوف». في الحقيقة هو كان معتادًا، على أن يمرّ على الفصول قبل موعد الزيارة مهدّدًا إيّانا بأننا إذا لم نحسن التصرّف أمام الضيوف فإنه سيوقّع علينا أشد أنواع العقاب، الذي سيظلّ محفورًا في أذهاننا الغضّة لمدد طويلة.

لم نكن طبعا نتوقّع أن يكون هؤلاء الزوّار من أعضاء الحزب على استعداد للرقص والغناء معنا مثلما كان يفعل الأب موبلو، فهم كانوا مضغوطين تمامًا، ومحكومين بقواعد صارمة. فهم مثلًا لم يكن مسموحًا لهم بالحديث معنا، بإحدى لغاتنا المحليّة مثل لغة

اللينجالا، بل إن اللغة الوحيدة التي كانوا يتحدّثون بها معنا كانت اللغة الفرنسية، التي كانوا يستخدمون فيها أحيانًا مفردات غريبة علينا، في محاولة منهم لجعلنا ندرك أنهم يتقنونها. كنا نتساءل فيما بيننا إن كانوا يعرفون فعلًا معاني كل هذه المفردات الثريّة التي يستخدمونها، أم أنه مطلوب منهم فقط أن يحفظوها هكذا عن ظهر قلب دون فهم. كانوا يتعمّدون مثلًا اختيار الكلمات الأطول في اللغة الفرنسية، مثل كلمة *anticonstitutionellement*، وهي مكمّل ظرفي يعني (استعمال مواد قانونية مخالفة لدستور البلاد) أو باختصار (بالمخالفة للقوانين الدستورية)، أو كلمة *intergouvernementalisation*، وتعني (التداخل بين أجهزة الحكومة). هاتان الكلمتان كان رئيس وزرائنا في ذلك الوقت يكثر من استعمالهما في خطبه العصماء.

في المقابل كان سكرتير حزب العمل الكونغولي ينتقد الاستعماريين والمتواطئين معهم داخليًّا نقدًا لاذعًا، ويؤكّد أنهم يعانون من إمساك مزمن منذ نجاح ثورتنا الاشتراكية، وبالتالي أصبحوا يعانون مما يطلق عليه لفظ *apopathodiaphulatophobie*، والمقطع الأخير من هذه الكلمة *phobie* يعني الخوف المرضي، والمصطلح الطبّي بحروفه الأربعة والعشرين يعني (الخوف المرضي من الإمساك المزمن). كانوا يجعلوننا نصطف في الفناء حول العلم الأحمر، لننصت إلى كل تلك الخطب، بكل ما فيها من كلمات مشابهة للنماذج الموجودة أعلاه، مما كان يؤدّي ببعضنا خلال الأيام التالية، إلى المعاناة من أمراض صداع الرأس المختلفة الأشكال.

وكما كان يحدث على زمن الأب موبلو، كنا أثناء وجودنا في عنابر النوم، نستعيد كلّ ما مرّ علينا خلال اليوم، لذلك كنا حتى أثناء استغراقنا في النوم ننطق ببعض مقاطع من تلك الكلمات العجيبة المتورّمة الغامضة الملتبسة، التي كانت تأتينا خلال كوابيس حقيقية، فيستيقظ جيراننا في العنابر جزعين مذعورين، خوفًا من أن تكون روح شرّيرة لا فكاك منها قد تلبّستنا. ورغم أننا عادة في الأحلام نستطيع أن نفعل المعجزات، كأن نرفع جبلًا بيد واحدة، أو كأن نقفز بين ضفتي نهر الأمازون بقفزة واحدة، أو كأن نشرب مياه المحيط الأطلنطي حتى يجفّ تمامًا، إلا أننا رغم قدرتنا على الإتيان بكل تلك المعجزات التي تفوق قدرة كل البشر، لم نكن نستطيع أن ننطق بكلمة *apopathodiaphulatophobie*.

ولأن كلًّا منا كان يضع حول معصمه سوارًا معدنيًّا محفورًا عليه اسمه، وكنت أنا الوحيد بينهم الذي يضع سوارين حول معصمه، بسبب الطول الاستثنائي لاسمي، كان الآخرون يظنّون لهذا السبب أنني قد أكون الوحيد بينهم القادر على النطق بمثل تلك الكلمات الطويلة هذا الطول الاستثنائي.

كنا قد بدأنا في ممارسة عادة جديدة أيّام الآحاد، وهي أن نتجمّع في مجموعات من عشرة أشخاص، ونتناقش في مسائل تتعلّق بالمهام المجتمعية التي نقدر على تنفيذها لخدمة البيئة المحيطة بدار الأيتام. ولأنَّ ذلك العام كان عام الثورة الاشتراكية، كان رئيس الجمهورية قد أطلق على هذا العام اسم (عام الشجرة). وبهذه المناسبة زرع بيديه، أمام المدخل

الرئيس للقصر الرئاسي، أمام آلات التصوير التلفزيونية التابعة للإذاعة القومية، شجرة جرافيولا التي اسمها العلمي هو قشطة شائكة *Annona muricata*، وهي من فصيلة أشجار العائلة الحشوية الحرشفية، وتنتج ثمارًا قريبة الشبه في الشكل والطعم من ثمار المانجو. لذلك كان علينا نحن أيضًا أن نزرع في الفناء الواقع خلف المبنى الرئيس نفس هذا النوع من الأشجار، وقد تساءل بونافنتورا بسذاجته المعتادة: هل هذا هو العام الخاص بشجرة جرافيولا فقط أم أنه عام الاحتفال بكل أنواع الأشجار؟

كان العقاب الذي يوقعه الناظر على التلاميذ الذين لا يحفظون فقرات من خطبة الرئيس الأخيرة، هو أن توكل إليهم يوم الأحد من كلّ أسبوع مهمّة كنس الفناء. وقد أصبح هذا العقاب هو أيضًا الذي يستحقّه كل التلاميذ المتمرّدين، أي في رأي الناظر، كل أولئك الذين نظروا بوقاحة في أعين الزوّار المهمّين من أعضاء حزب العمل، بدلًا من أن يضعوا أعينهم بانكسار في الأرض. كان يجب على التلاميذ أن ينكسروا وأن يشعروا بالمذلّة. ولكن بسبب أن عدد كنّاسي الأفنية، قد أصبح الآن كبيرًا جدًّا، بسبب انضمام فئة المتمرّدين إليهم، قرّر الناظر أن عقاب المتمرّدين هو الحبس طوال يوم الأحد، في القاعة المهجورة الآن، التي كانت سابقًا مخصّصة لحصص الدين، وهي نفس القاعة التي ستصبح لاحقًا مخصّصة لدروس الاشتراكية الثورية اللينينية.

لهذا السبب حملت هذه القاعة اسم (الزنزانة) لفترة مؤقّتة من الوقت في ذلك العام. كان باب هذه القاعة من الحديد الثقيل، وكانت به فتحة تُفتح وتُغلق من خارج الباب، أصبحت الآن فتحة مرور الطعام

والشراب يوم الأحد، إلى التلاميذ المحبوسين فيها. لم يكن الحبس عقابًا قاسيًا، إذ كان العقاب الأقسى في الحقيقة هو الإنصات الإجباري طوال ساعات يوم الأحد، إلى شرائط مسجّلة عليها خطب رئيس الجمهورية، فكان هؤلاء المساكين لا يعرفون كيف يسدّون آذانهم، حتى يرحموا أنفسهم من الإنصات مائة مرّة إلى نفس الخطاب. عرفت لاحقًا أن رئاسة الجمهورية كانت قد وزّعت على كل المدارس أجهزة التسجيل الحديثة والشرائط فقط لهذا الغرض.

بسبب كل هذه الممارسات الاستبدادية، تمّ تحويل ثلاثمائة تلميذ وتلميذة، إلى ببّغاوات تكرّر كلها نفس الجمل والعبارات التي جاءت على لسان وحيد عصره رئيس جمهوريتنا. بسبب كلّ هذه الممارسات الاستبدادية كرهناه بدلًا من أن نحبّه. كنّا نردّد عبارات لا نفهم معناها. كأن الشكل قد أصبح أهمّ من المضمون. لم يكن لدينا خلال ذلك العام البائس إلا أن نحفظ عن ظهر قلب الجمل والعبارات التي يُقال لنا إنها ستصبح لاحقًا مهمّة جدًّا في حياتنا، عندما نصبح رجالًا ناضجين، وتنبت لنا لحى كثيفة الشَّعر في ذقوننا. أما بالنسبة للفتيات فكان مقياس النضج هو أن تكون أثداؤهنّ ثقيلة مثل ثمار البابايا الناضجة، وأن تكون أردافهنّ عند مشيهن في شوارع المدن وحواريها، قادرة على إدارة رؤوس الرجال.

بفضل ذاكرتي الاستثنائية، أصبحت ذلك الفتي الذي يتلو على مسامع الزوّار أثناء حصص التوعية السياسية التي حلّت محلّ حصص الدين في أيام السبت خطب رئيس الجمهورية دون أن يتعثّر في

مفرداتها، حتى إن أعضاء الحزب الذين يكونون بين زوّار المدرسة، كانوا بمجرّد انتهاء تلاوتي للخطبة يصفّقون لي ويهنّئونني. لهذا السبب كان الناظر يضعني دائمًا في الصفّ الأول في الفصول التي يزورونها. كما أنه كان يطلب مني أن أرفع إصبعي أمام الزوّار الضيوف لأوجِّه إليهم أسئلة بعينها يكون قد اتفق معي على توجيهها إليهم، فيتوجّه الزائر بعد الإجابة عن السؤال بالشكر إلى ناظر المدرسة، على هذا المستوى المرتفع من الوعي السياسي الذي يبديه أحد تلاميذها، بما سيمكّن هذا التلميذ لاحقًا في مستقبل أيّامه من العمل في إطار الثورية الاشتراكية.

كنت أتفوّق على جميع التلاميذ الآخرين، في إثارة عواطف الجمهور، خاصة عندما أُنْشِد تلك الخطبة العصماء لرئيس الجمهورية، التي أعاد فيها الفضل في تقدّم البلاد، إلى العمّال اليدويين، وإلى نساء البلاد. كان يقول في تلك الخطبة: «منذ ساعات الصباح الأولى تنشغل نساء بلادنا بأطفالهنّ رجال المستقبل، ثم إنهنّ يذهبن منذ الصباح الباكر إلى الحقول، حيث يعملن في قلب الطبيعة، لإنتاج المزيد من محاصيل الحقول، هنّ صاحبات الفضل في خلق حياة جديدة لبلادنا. هناك كذلك طبعًا الكثير من الرجال العاملين في الحقول، لكن فضل النساء أكبر لضرورة انشغالهنّ كذلك بالأطفال. كل هؤلاء الفلاحين الفقراء، هم الطبقة الأكثر أهمية في مجتمعنا».

أنا كصبي في الرابعة عشرة من العمر، كنت أدرك أن هناك دائمًا

فجوة بين ما أريده وما أحصل عليه، وبين ما يُقال على ألسنة الحكّام وما يتحقّق فعلًا على أرض الواقع، أي في عبارة واحدة هناك دائمًا فرق بين النظرية والتطبيق. كان الحكّام بمن فيهم ناظر المدرسة، يجيدون خلط الأوراق، وينشرون على الناس الكثير من المرويّات الكاذبة التي تجعل الناس يعيشون في وهم السعادة.

كنت أدرك كلّ هذا في سنّي المبكّرة، لكن هذا لم يمنعني من مشاركتهم في لعبتهم. لعلّي كنت أتملّق الناظر وأرضي كبرياءه، لعلي كنت أبحث بذلك عن قدر من الحماية، يوفّرها لي حقيقة كونه ناظر المدرسة. كان يكفيه جدًّا أن أحفظ بعض فقرات من افتتاحيته الأخيرة، في نشرة (يقظة القائد)، حتى أرى ابتسامته العريضة على وجهه، ويتيه بي فخرًا أمام زوّاره، ثم يقدّم لي أمامهم قلمًا جافًّا من ماركة بيك *Bic* هدية. هذه الهدية كانت في حدّ ذاتها إنجازًا كبيرًا، إذ كنا نعرف مدى بخله علينا في مسألة الهدايا.

* * *

(١٠)

في بعض المرات كان بونافنتورا يتعمّد أن يلعب دور الساذج، في حين أن هدفه في تلك الحالات يكون غالبًا الاستهزاء بأغلب الأطفال والصبية من نزلاء الدار، بمَن فيهم أنا أعزّ أصدقائه. كانت تلك هي حالته، عندما ترجّاني أن أعيد أمامه شرح درس اللغة الفرنسية الذي كنّا قد تلقيناه في الفصل صباح ذلك اليوم.

هو: هل تعتقد فعلًا أن مدرّس اللغة الفرنسية كان محقًّا، عندما ذكر أنه إذا كان هناك فعلان متتاليان في جملة واحدة، فإن الأول يتمّ تصريفه مع الفاعل، في حين يأتي الفعل الثاني في صيغة المصدر؟

أنا: نعم إنها قاعدة نحوية معروفة في اللغة الفرنسية.

قلت هذا وأنا أبدي اندهاشي.

هو: وإذا لم نحترم هذه القاعدة النحوية ماذا يمكن أن يحدث؟ هل تكون العواقب وخيمة؟

أنا: لو لم يحترم الناس قواعد اللغة، فإنهم سيكتبون وسيتكلّمون كيفما اتفق بطريقة عشوائية، وبالتالي لن يعود أحد يفهم ما يقوله الآخرون.

هو: قل لي إذَنْ ماذا سيحدث إن جاءت أربعة أو ستّة أفعال متتالية في نفس الجملة؟ لأن المدرّس لم يتحدّث إلا عن مجيء فعلين فقط لا غير متتاليين.

وجدت في الحقيقة أن لديه بعض المنطق هنا.

أنا: لماذا تريد لأربعة أو ستّة أفعال أن تأتي متتالية بعضها خلف بعض هكذا؟ كأنه ليس هناك لدى كل هذه الأفعال المتتالية أي شيء آخر عليها أن تفعله في حياتها، إلا أن تظهر هكذا متتالية في جملة واحدة. أين سبق لك أن رأيت هذا؟ وفي أي لغة في العالم؟

هرش في ذقنه، وقد بدا عليه التركيز في الفكرة المسيطرة على دماغه. كنت أحبّ النظر إلى وجه بونافنتورا أفضل أصدقائي وأقربهم إلى قلبي. لون بشرته الداكن السواد، الذي لا تتخلّله أي بقعة من أي لون آخر أقلّ سوادًا. كنت أحبّ ذقنه بتلك الغمّازة في منتصفه، التي تزداد عمقًا عندما يكون في حالة مزاجية طيبة. وجهه النحيف البارز العظام، رغم جسمه الرياضي القوي، الذي يمكنه أن يخيف به الصبية لو تشاجر معهم، لكن هذا لم يكن يخطر له على بال.

هو: هناك الكثير من الأفعال التي يمكنها أن تأتي متتالية بعضها خلف بعض، لو فكرّنا مثلًا في فعل ستّة أشياء مختلفة في نفس الوقت.

أنا: اضرب لي مثلًا على ما تقول.

هو: يمكننا كلنا أن نأكل ونشرب ونقرأ ونتبوّل وننام ونستيقظ وننظّف أسناننا بالفرشاة والمعجون ونفتح النافذة وننظر منها إلى الشارع، كلّ هذا يحدث بالتتالي في نفس الوقت.

أنا: من المستحيل أن تفعل كل هذا في نفس الوقت، كل فعل من هذه الأفعال يأخذ وقته وينتهي، ثم يأتي بعده فعل آخر.

هو: أنت إذَنْ مثل كل الآخرين الذين يميلون على الفور إلى تأنيبي، كأنه ليس من حقّنا أن نفكّر، بل فقط علينا أن نتقبّل كلّ ما يُقال لنا دون تفكير. هل تعتقد أنك أكثر ذكاءً مني؟ هل أنت تريد أن تعاقبني بالضرب؟ هل تريد أن أقع أمامك وأتمدّد على الأرض لأسهّل عليك مهمّة ركلي بالقدم؟

أنا: أنا لا أريد أن أضربك، ولم يحدث أبدًا أنني ضربتك، وأنت تعرف أننا إخوة، وأنني لست مثل الأشقياء الأشرار الذين يلعبون كرة القدم في الفناء ويصوّبون الكرة نحوك.

بونافنتورا كان يعلم -كما سبق أن أوضحت- مَن هي أمه، وكانت تأتي أحيانًا لزيارته عندما أصبح في الثالثة عشرة من العمر، ثم عادت من جديد إلى الاختفاء بعد قيام الثورة الاشتراكية. لكنه لم يكن يُظْهِر أبدًا أنه يشتاق إليها، كأنه قد استغنى عن فكرة وجود أم له. أما أبوه البيولوجي، الذي أعطى أمه البذرة التي تحوّلت فيما بعد إلى بونافنتورا الطفل الرضيع، فقد اختفى تمامًا منذ اللحظة التي أعلنت فيها زوجته نبأ الحمل.

كان أبوه موظّفًا صغيرًا في المؤسّسة الوطنية لإدارة توزيع الكهرباء والماء، واسمها المختصر هو *SNEDE*، ويبدو أن بداية العلاقة بين والد كوكولو ووالدته قد بدأت بأنه عرض عليها في البداية خدماته مقابل مبلغ من المال، إذ إنه كان قادرًا على التلاعب

في عدّادات الكهرباء والماء، فلا يدفع الساكن إلا مبلغًا رمزيًّا زهيدًا، وقد قام بهذا التلاعب في مسكن الأم، حتى لا تدفع هذه المرأة ملّيمًا واحدًا، عن استهلاكها للماء والكهرباء. ثم عندما أعجبته ووجد أنها وحيدة، عرض عليها أن تكون خدمة الكهرباء المجّانية مقابل خدمة أن تقدّم نفسها له جنسيًّا، فوافقت المرأة الوحيدة، ثم انتهى الأمر بتعلّقه بها وعرضه الزواج.

في البداية كان يخفي عنها أنه متزوّج من امرأة أخرى، رغم أنه لم يكن يذهب إليها إلا في يومين اثنين فقط من أيام الأسبوع، هما الجمعة والسبت في فترة ما بعد الظهر، بين الثانية والسادسة مساء، مما كان يمكن أن يدعوها إلى الشكّ في وجود زوجة ثانية، ثم عندما يتركها يذهب إلى زوجته الأولى في منزله في (لواندیلي)، وهو حيّ يقع في أطراف بوانت نوار، أبعد ما يمكن عن منزل والدة كوكولو، لذلك كان احتمال تلاقي المرأتين ضعيفًا. لكنها غالبًا بمرور الوقت أدركت أنها الزوجة الثانية، ولكنها رضيت بذلك.

لكنها بعد فترة وجيزة، قرّرت أم كوكولو هي الأخرى إقامة علاقة مع رجل آخر اسمه (مبوا مابيه)، لم يكن يذهب إليها إلا في الساعة التاسعة مساء كل يوم ويقضي الليلة معها، ثم يغادرها في الصباح الباكر، لذلك لم يحدث أن التقى الرجلان أبدًا لديها. كان (مبوا مابيه) هذا يعمل في مصلحة الطرق والكباري، مع فرق إنشاء الطريق الحدودي بين الكونغو كينشاسا وأنجولا. هذا الرجل أطلق عليه جيران والدة كوكولو اسم حامل اللقب، ويقصدون لقب الزوجية؛ لأنهم كانوا يرونه

لديها كل مساء، في حين لم يكن والد كوكولو يظهر عندها إلا يومين اثنين فقط في الأسبوع كما سبق القول.

بدأ والد كوكولو في تحقيق مكاسب كبيرة من تقديم خدماته للناس، لذلك بدأ في توسيع نطاق خدماته في المدينة كلّها، مقابل حصوله على مبالغ من المال من المستفيدين من هذه الخدمات، تتفاوت حسب أوضاعهم الاقتصادية، ويبدو بوضوح أنه لم يكن لديه ما يخشاه، إذ إنه كان هناك على ما يبدو، متواطئون معه من بين كبار موظّفي تلك المؤسّسة الوطنية، يشاركونه في الأرباح التي يحقّقها، وهو ما انعكس على حالة الثراء المؤقّت التي نعمت بها أم كوكولو. لذلك رغم كل شيء، كانت أم بونافنتورا على ما يبدو راضية بحالها، ولم ترغب حقًّا في تغيير أي شيء، مثل حالة أغلب نساء بوانت نوار غير المتزوّجات، اللائي يدخلن في علاقات مع رجال متزوّجين. لهذا اكتفت من موظّف الكهرباء والماء بساعاته الثلاث في يومين متتاليين.

وكان رجل الطرق والكباري معتادًا على الغياب لفترة شهر أو شهرين مرة واحدة في العام، بحجّة أنهم في عمله ينقلونه بين المشاريع الكبرى في البلاد، فيجد نفسه أحيانًا على بعد كيلومترات عديدة من بوانت نوار، فتنقطع زياراته عن أم كوكولو. لهذا السبب وحده كانت المرأة متأكّدة أن الحمل قد جاءها من رجل الكهرباء والماء أثناء واحدة من فترات الغياب الطويل لرجل الطرق والكباري.

رغم أن المرأة كانت لديها بعض العلامات الدالة على الشكّ في احتمال قبول رجل الكهرباء والماء، مسألة أن يقبل الإعلان عن أن

الجنين هو ابنه. كان هذا الرجل عندما يخرج من منزل أم كوكولو، يتمهّل قليلًا وينظر حوله في كل اتجاه، ليتأكّد من أن أحدًا لا يراقبه. هذا هو ما جعل المرأة تعتقد أنه لن يعلن أبدًا عن علاقته بها، وأنه لو خيّروه بينها وبين زوجته الأخرى لاختار الأخرى.

كان رجل الكهرباء والماء يعلم بعلاقة أم كوكولو برجل الطرق والكباري، ويعرف بمسألة اضطراره إلى الغياب لوقت طويل بين حين وآخر، لذلك عندما أعلنت عليه نبأ الحمل، لم يعترض ولم يناقشها ولم يسألها ولماذا لا يكون الأب هو الآخر، بل تظاهر بأنه يتقبّل الأمر على علاّته. ويبدو أنه قد قال لها عبارات قريبة الشبه بهذه العبارات: «إذَنْ عزيزتي هذا هو طفلنا أنا وأنتِ، وسأحرص على رعايته حتى يكبر، فلا تكوني قلقة بهذا الخصوص».

عندما اختفى تمامًا، بدأت المرأة المسكينة المهجورة، ومعها جنينها الذي تحمله في بطنها، في الذهاب بشكل منتظم إلى مقرّ الشركة الوطنية للكهرباء والماء، على أمل أن تلتقي به ولو صدفة، فتسمع منه التبرير الذي لديه عن سبب غيابه وانقطاع زياراته، بل في الحقيقة عن سبب هذا التصرّف الذي يتصف بالنذالة والجبن. كان موظّفو الاستقبال يحبسونها في مكاتبهم الأمامية، ولا يسمحون لها بدخول مبنى المؤسّسة، في نوع من التواطؤ الواضح مع زميلهم في العمل وفي نذالة الرجال. وكانوا يعتذرون لها بحجّة أنه مشغول، وأنه حتمًا سيعاود الاتصال بها. بعد مرور شهرين على بداية تهرّبه منها، نطقت بصوت عالٍ أمام موظّفي الاستقبال، بالعبارات التي يفهم منها أنها ستلجأ إلى

القضاء، وتذهب بقضيّتها إلى المحاكم، وهو ما يدلّ على أنه كان لديها عقد زواج.

تراجع موظّفو الاستقبال عن موقفهم الرفض بالسماح لها بالدخول، خوفًا من أن تنفّذ تهديدها باللجوء إلى المحاكم، التي كانت في بعض الأحيان تنصف المرأة على الرجل، خاصة في حالات الحمل. أدرك الموظّفون أنه على زكريا كوكولو أن يفعل شيئًا. أما هو عندما سمع بهذا التهديد، قال لهم: «أنا لي صلات عديدة بأناس مهمّين، وقد آن أوان استغلالها والاستفادة بها». بدأ في استغلال شبكة معارفه لقلب الحقائق. وقد بدأ أولًا بفضحها أمام مفتّشي المؤسّسة بدعوى أنها متهرّبة منذ سنوات من دفع مستحقّات المؤسّسة، وأن عليها الآن دفع ثمن الفواتير المتراكمة عليها. وقد تعمّد هذا الزكريا إرسال كلّ الفواتير مرّة واحدة إليها لعلّها ترتدع. كان هذا هو انتقامه منها. بل وصلت به الجرأة بعد ذلك إلى حدّ اتهامها بأنها هي التي تلاعبت في عدّادات الكهرباء والماء، وأنكر إنكارًا تامًّا أن تكون له يدّ في هذه المسألة.

كانت قاعة محكمة نظر القضيّة ممتلئة عن آخرها بالحضور، كما لو كنّا في محكمة جنايات تنظر في جريمة قتل، وأغلب الحاضرين كانوا من بين جيران المرأة المسكينة، الذين لم يكن دافعهم إلى الحضور هو مساندة هذه المرأة المسكينة في قضيّتها العادلة، بل هم كانوا قلقين على أوضاعهم الشخصية، إذ إنهم كانوا من بين من استفادوا من ألاعيب زكريا لعدم دفع فواتير الكهرباء والماء؛ لذلك كانوا يريدون

معرفة الإجراءات القانونية التي ستُتخذ ضد المرأة المسكينة في حال إدانتها. كسبت المؤسّسةُ قضيّتها ضدّ المرأة، فمن المعروف في بلادنا أنه يمكن بسهولة رشوة القضاة، أو تهديدهم بأشياء لا تعرفها إلا الشرطة. كانت شبكة الفساد في ذلك الوقت من الستّينيات ممتدّة في جميع أنحاء البلاد.

ونظرًا لوجود عنصر إنساني هام، هو بطن المرأة المنتفخ بحملها، فقد قرّرت المؤسّسة الوطنية التوقّف عن السير في عمليّات التقاضي، وقرّر القضاء العادل عدم حبسها، والاكتفاء بإعلانها بضرورة سداد الفواتير المتأخّرة المتراكمة، وقد أعلنت المرأة أمام هيئة المحكمة عن استعدادها لسداد المتأخّرات عليها.

وهكذا مرّت أم كوكولو بونافنتورا من مرحلة السعادة التامة في حياتها إلى مرحلة التعاسة المطلقة. بعد ذلك على الفور انتقلت من مرحلة الإضاءة المبهرة لكل حجرات المنزل، إلى مرحلة الإظلام شبه التام، باستعمال الضوء الشحيح لشعلة مصباح الغاز. كانت المرحلة التالية هي أنه بدلًا من استعمال الماء الجاري في الصنابير، بدأت في الذهاب إلى شاطئ النهر على الأقل مرّة كل يوم للحصول على احتياجاتها من الماء ونقلها إلى المنزل في قوارير، ثم تنظيف الماء مما قد يكون عالقًا به من قاذورات يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة. أما الماء الذي يمكن أن يُستعمل للشرب، فيجب أن يتمّ تسخينه إلى درجة الغليان، للقضاء على ما قد يكون به من جراثيم، لا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة.

عند مولد الطفل ذهبت الأم إلى هيئة التسجيل المدني، حيث تمكّنت من تسجيل الطفل باسم أبيه كوكولو، لوجود عقد زواج يحمل اسم الزوج ولقب عائلته. أما الطفل نفسه فقد أعطته أمه هذا الاسم الإفرنجي (بونافنتورا)، ويعني (المغامر حسن الحظ) على أمل أن يلعب هذا الاسم في حياة الطفل دورًا إيجابيًّا، أقوى من الدور السلبي الذي لعبه أبوه في حياته. أما رجل الطرق والكباري فقد انقطع هو الآخر بشكل تام ونهائي عن زيارة أم كوكولو منذ لحظة بداية انتفاخ بطنها، فالرجال بشكل عام أنانيّون جدًّا، ولا يُريدون أن يُصابوا بالصداع بسبب بكاء طفل رضيع أثناء الليل.

عندما كان عمر الطفل شهورًا قليلة، لم تكن الأم تعلم بعد كيف ستخرج من أزمتها المالية تلك بسبب ضرورة سداد الفواتير المتأخّرة المتراكمة. هنا حدث أن تقابلت أم كوكولو مع ابنة عمّ لها، حدّثتها عن دار أيتام لوانجو، وقالت لها إنه من السهل جدًّا إدخال هذا الطفل الرضيع تلك الدار، لو أنها فقط تحدّثت مع مدير الدار وناظر المدرسة بلغة (البيمبيه) التي تجيدها الأم، وهي لغة القبيلة التي نشأ فيها هذا الناظر، ويتعصّب لها جدًّا، ويحقّق رغبات كلّ مَن يجيد نطقها. عندما وصلت هذه الأم الشابة إلى باب دار أيتام لوانجو، كنت أنا قد استقرّ مقامي في الدار قبل أسبوع واحد. كان عمر كلٍّ منّا شهرين اثنين فقط لا غير.

(١١)

كنت أفهم السبب في غضب بونافنتورا عندما أدعوه كوكولو، لكنه الاسم الذي اختارته له أمه، وهو لقب عائلة أبيه (زكريا كوكولو)، فلماذا كان يغضب مني أنا، فأنا لم أجرم في حقّه بأي شيء؟ لذلك كنت أحاول حصر ذهني في كل مرة أتحدّث إليه فيها، لأتجنّب استعمال (كوكولو)، والاقتصار على استعمال (بونافنتورا). لاحظت كذلك ملاحظة غريبة، وهي أنه في الأيام التي يقدّمون لنا فيها في مطعم الدار وجبة من اللحوم البقرية والفاصوليا، يكون مزاج (بونافنتورا) رائقًا جدًّا، حتى إنه لا يغضب أبدًا لو ناديته باسم (كوكولو).

بل حدث في مرّات قليلة أن تفاخر (بونافنتورا) أمام حشد من التلاميذ الصغار، بكون والده من بين كبار الموظّفين في المؤسّسة الوطنية للكهرباء والماء، رغم أنه يعلم أن هذا الأب كان فاسدًا مفسدًا جبانًا. بل حدث كذلك أن تفاخر بونافنتورا أمامنا بأن والده شديد الثراء، وأنه يمتلك العديد من المنازل وقطع الأراضي، في أنحاء متفرّقة من بوانت نوار، رغم أن بونافنتورا متأكّد من أن مصدر هذا الثراء هو الفساد والإفساد. لكن فجأةً تظهر على وجهه ملامح الحزن الشديد

والألم، نحو هذا الأب الذي كان قادرًا بجرّة قلم على إخراجه من هذه الدار، وبالتالي على تغيير مستقبله كلّه.

ثم ونحن نجلس في مطعم المدرسة، يكون بونافنتورا صاحب الشهيّة القوية للطعام قد انتهى قبلي من التهام وجبته، فيدفع طبقه بعيدًا عنه ثم يبدأ يحدّثني عن وضع هذا الرجل أبيه، فتبدو في نظره صورة رجل بارد المشاعر منتهز للفرص، يشتهي النساء ويتلذّذ بتعذيبهنّ، خاصة لو كنّ من صغيرات السنّ، وهي تقريبًا نفس الكلمات التي كانت أمه تذكرها له بخصوص أبيه، في الوقت الذي كانت تأتي إليه فيه لزيارته، فكانت تحاول قدر استطاعتها أن تسيء إلى هذا الرجل أمام ابنه، وهو كان مستعدًّا لتقبّل كلّ ما يُقال له عن أبيه؛ لأنه حتى هذا السنّ لم يكن قد قابله ولو مرّة واحدة. وقد تسبّب كلام الأم هذا في تكوين صورة ذهنية لا يمكن تغييرها عن هذا الأب في نظر ابنه، أنه أكثر الرجال الآباء أنانية وحقارة ووضاعة، حتى لو كان وفقًا لما يعتقده ابنه، أكثر الرجال ثراءً على وجه البسيطة.

الصداقة التي قامت بيني وبين بونافنتورا هي أقرب ما يكون إلى الصداقة بين المشلول والأعمى، أو بين المخّ والعضلات، أنا المشلول وهو الأعمى، أنا المخّ وهو العضلات، كان هو الأعمى لأنه لا يرى ما أراه، وكنت أدلّه على ما أراه، وكنت أنا المشلول لأنه لم تكن لي قدراته البدنية، وكان هو القادر على تنفيذ ما نجد أنه يستحق أن ينفّذ اعتمادًا على قواه البدنية. كنا نتحرّك معًا، وكان هو دائمًا إلى جواري، يبحث عني حتى يجدني ثم لا يفارقني، وكنت عندما لا أجده إلى جواري أفتقده وأبحث عنه.

أبدأ عادة البحث عنه بالبحث في فناء الألعاب، ثم أذهب إلى المخازن لعلّ وعسى، ثم أصل في نهاية المطاف إلى خلف فصل الحصص الدينية سابقًا، وهو فصل التوعية السياسية حاليًا، لعلّي أجده هناك، وكنت غالبًا أجده هناك جالسًا على الأرض، يهزّ رأسه بطريقة منتظمة تشبه طريقة الفقهاء، ممسكًا في يده عصا صغيرة يرسم بها أمامه على الأرض الترابية، صورة طائرة ستهبط يومًا ما حسب قوله، من أجله هو وحده فقط لا غير، أمام دار الأيتام، لتصطحبه إلى العالم الجديد. كان غرامه بالطائرات يتحوّل لديه إلى وسواس قهري، يجعله بمجرّد أن يسمع صوت إزيز محرّكات طائرة في السماء، يهرع إلى النافذة ويظلّ هناك حتى تختفي الطائرة من مجال رؤيته. ثم يستدير نحوي وعلى وجهه تعبير اليائس المغلوب على أمره، قائلًا: «الطائرة لم تهبط هذه المرّة أيضًا، إنهم نسوني من جديد».

كان بونافنتورا مستمرًّا في إلقاء أسئلة عن مصير الأب موبلو، وقد حاولت أن أجعله يفهم أنه ينبغي علينا يومًا ما أن نعتاد على هذا الوضع الجديد، وأننا على أي الأحوال ينبغي علينا أن نشارك في لعبتهم الجديدة تلك المسمّاة (الثورة الاشتراكية)، وبالتالي علينا أن نحفظ عن ظهر قلب خطب رئيس الجمهورية، بدلًا مما كنّا نحفظه مع الأب موبلو من صلوات مسيحية وأغنيات دينية، وإيقاع رقصات شمالية لأقزام البيجميه. كان يقول غاضبًا: «أنا لا أريد ثورتهم تلك، بل أريد عودة الأب موبلو».

وذات يوم في فترة ما بعد الظهيرة، كنّا في فناء الألعاب بعيدًا عن بقيّة الصبية المشغولين بلعبة كرة القدم، وهي اللعبة التي لم نكن لا أنا ولا هو نهتمّ بها، تفرّست في وجهه ربّما بقدر من الإصرار أكثر من المعتاد، بسبب إحساسي نحوه بالشفقة، إذ بدا لي أكثر تأثّرًا مني بغياب الأب موبلو.

هو: هل المسألة خطيرة جدًّا إلى هذا الحدّ؟

أنا: كنت أقول في نفسي أنك أسعد حظًّا مني؛ لأنك على الأقلّ لديك الأم التي تعرف أنها موجودة، وأنها قد تأتي للسؤال عنك.

هو: لا تحدّثني عنها يا موسى.

كان بونافنتورا صبيًّا شديد الحساسية، وهو طبعه الذي حاول أن يخفيه عن الآخرين، رغم اعتقادي الآن أنه لو كان الآخرون قد أدركوا مدى حساسيّته المرهفة، لغيّروا إلى حدّ ما نظرتهم السلبية إليه. كنت ولا أزالُ أعتقد أن حظّ بونافنتورا في الدنيا كان سيتحسّن تمامًا لو أن والده البيولوجي كان قد جاء واستردّه من الدار، حتى ولو في سنّ الثالثة عشرة. كان من الممكن أن تأتي لحظة يتعرّف فيها أحدهما على الآخر، وأن يحدث بينهما نوع من التصالح.

كما سبق وأن ذكرت كنا قد جئنا إلى الدار في نفس التوقيت، ونمونا معًا في العقل والجسد تحت إشراف ورعاية المربية سابين نيانجو، وكنا نجلس جنبًا إلى جنب في الفصول الدراسية خلال أعوام متتالية، حتى في الإجازات الصيفية لم يكن لكلّ منا إلا الآخر. لكل ذلك فعندما كان بونافنتورا يغيب عن الفصل بسبب إصابته بالحمّى، وهو ما كان يحدث

أكثر من مرّة خلال العام الدراسي، كان المدرّسون يسألونني أنا فقط ولا أحد سوايَ عن سبب غيابه.

لا أعرف على وجه الدقّة السبب الذي جعلني لفترة طويلة من طفولتي أعتقد أنني الأخ الأكبر لبونافنتورا، وأنني بهذه الصفة أكون مسؤولًا عن حمايته، حتى لو اضطررت كأخ أكبر أن أرفع صوتي عليه لتوبيخه أو تعنيفه، إذ كنت أرى أحيانًا أن تصرّفاته تتصف بقدر من الخسّة والنذالة. كان من المعتاد أن يهدِّد أحدُنا الآخرَ بتوجيه اللكمات إلى الوجه، فكان بونافنتورا إذا تلقّى تهديدًا مماثلًا، يتصرّف بشكل غريب، إذ يفترش الأرض، ويغمض عينيه، ويغطّي وجهه بيديه، في إشارة إلى الاستسلام التام، دون أي محاولة للدفاع عن النفس، رغم كونه جسديًّا قادرًا على ردّ التهديد بمثله.

كنت في مثل تلك الحالات، أتدخّل لأمسك بذراعه وأرفعه عن الأرض، في محاولة مني لتخفيف وقع هذه المهانة عليه أمام الزملاء، ثم أقول بصوت مرتفع إنه قادر على مواجهة هذه اللكمات، والردّ على خصمه بأقوى منها، وإن هذا هو ما ينبغي عليه فعله ولو مرّة واحدة أمام الزملاء، حتى يتوقّفوا عن تهديده، وإن موقفه النفسي الدفاعي فقط لا الهجومي، يشجّع الآخرون على التطاول عليه، حتى لو كانوا أضعف منه جسمانيًّا. هو لم يكن يجهل أن محاولات إزعاجه وتهديده تلك، كانت تتوقّف فور ظهوري أمام المهدّدين الذين لم ينسوا بعد كيف قد سبق لي الدفاع عن نفسي، ضدّ الأخوين التوأم سونجي سونجي وتالا تالا، وانتقمت منهما رغم أنهما يتزعّمان حركة إرهاب كلّ نزلاء الدار في الأفنية وفي عنابر النوم.

كان هذا التوأم قد استوليا على مرتبة فراش بونافنتورا، ووضعا في مكانها مرتبة فراش سونجي سونجي، التي كان قد أسقط عليه قدرًا كبيرًا من صلصة عجينة الفول السوداني بزيت النخيل، وخشي من تأنيب المشرفين على نظافة العنابر وتغيير ملاءات الفراش. هنا تدخّلت علنًا وشجّعت بونافنتورا على الذهاب إلى المدير لفضح التوأم، اللذين عاشا أتعس لحظاتهما في الدار، عندما تجمّع عليهما مشرفو النظافة، وضربوهما ضربًا خفيفًا باليد. كان هذا العقاب عذابًا غير محتمل، لمَن يعتبران أنفسهما زعيمين لكل حركات التمرّد. كانت تلك الإهانة العلنية قد أثّرت كثيرًا فيما بعد، على موقفهما النفسي كقائدين للحركات الإرهابية داخل الدار.

بعد مرور أسبوع اعتقدا أنه فترة كافية، حتى ينسى جمهور الدار تلك الإهانة العلنية، أراد هذان التوأم الانتقام من بونافنتورا، بضربه علنًا أمام التلاميذ في فناء الألعاب. العجيب هو أن التلاميذ قد تواطأوا مع التوأم بصيحات التشجيع على ضرب بونافنتورا، بدلًا من الذهاب على الفور لإخطار أحد مشرفي فناء الألعاب. كان تصرّف التلاميذ هذا هو خيانة علنية لكل مبادئ الزمالة. لذلك ظللت لمدّة أسبوع أنتظر وأخطّط للانتقام الذي يمكن أن أوجّهه إلى التوأم، دون أن تكون لبونافنتورا أي دراية بما سأفعل.

اختلست القليل من مسحوق الفلفل الأحمر، وانتظرت حلول الظلام في العنابر، والتأكّد من صدور الشخير المرتفع من فراشي التوأم، ثم غادرت فراشي ومشيت على أطراف أصابع القدمين، حتى الفراشين

اللذين يشغلهما التوأم، حيث توجد تحتهما مجموعة أطباق بها بعض المأكولات، لاعتياد هذين التوأم الشرهين، على الاستيقاظ أثناء الليل، لالتهام المزيد من أطباق الطعام. فردت جسمي على الأرض، ومددت يدي إلى الأطباق لأرفع عنها أغطيتها، ثمّ وزّعت عليها منثور الفلفل الأحمر، وأعدت الأغطية إلى أمكنتها.

في الساعة الثانية صباحًا وأنا في فراشي نصف نائم نصف مستيقظ، أستعدّ فور حدوث الواقعة أن أضحك بملء فمي على التوأم هازئًا منهما، لحظة سماعي صراخهما المتوقّع. صرخ أحدهما في الآخر بصوت مبحوح متقطّع: «لماذا وضعت كلّ تلك الكمّية من الفلفل الأحمر في الأطباق؟»، فردّ الآخر بنفس الصوت: «لست أنا مَن فعل هذا، وقد اعتقدت أنه قد تكون أنت مَن فعل هذا». ظلّ التوأم يتردّدان على دورة المياه طوال الليل، بل حتى طوال النهار التالي، بسبب الإسهال العنيف الذي أصابهما، وظلاّ بقية الوقت في فراشهما يعانيان من الحمّى التي لا علاج لها. إن هذه الفِعْلة التي قمت أنا بها، وهاجمت اثنين من أشرس نزلاء الدار، كانت بالنسبة لتاريخي في الدار إنجازًا كبيرًا. استطاع بعض نزلاء عنبرنا تخمين أنني الفاعل، لكنهما لم يصرّحا بذلك للتوأم، اللذين ظلّا لبعض الوقت، رغم شدّة ذكائهما، لا يدركان أنني الفاعل. لذلك ظللّت أتوقّع ردّ فعلهما، إذ ليست هناك حقيقة يمكن إخفاؤها إلى الأبد.

(١٢)

كان التوأم أكبر مني بأربع سنوات، وقد جاءا إلى دار أيتام (لوانجو)، من دار أيتام أخرى في (بوانت نوار)، بهدف أن يحصلا على أفضل تعليم متاح في كلّ دور أيتام المنطقة، مما قد يسمح لهما يومًا ما بالعودة إلى الحياة العادية والانضمام إلى المجتمع. لكنهما ظلَّا على طبعهما المعاند، وعلى تحدّيهما المستمرّ لسلطة المدير والمراقبين، ولم يمرّ عليهما يوم واحد في الدار دون أن يوقع عليهما العقاب أو الإهانة العلنية أمام بقيّة نزلاء الدار. وقد كان أسوأ عقاب وقع عليهما، هو ربطهما إلى شجرة كازوارينا *filao* في الفناء، وتركهما هناك تحت المطر طول الليل.

قال الناظر: «هكذا يمكنهما إدراك أن الحياة ليست فقط هي الشوارع الممهّدة». وهو يقصد أن يقول إن الحياة ليست مجرّد الذهاب على الطريق الممهّد، بين (بوانت نوار) و(لوانجو). وكان الناظر غالبًا يحثّ التلاميذ على احتقار هذين الغلامين اللذين كانا يحاولان دائمًا إرهاب التلاميذ. بالتالي كان هناك من بين التلاميذ، من تشجّع وردّ ضربات التوأم إليه بضربات مضاعفة، معتمدًا في الأساس على حماية الناظر.

هكذا بدأ التوأم بالتدريج في إدراك أنه لا يصحّ استعمال قوّتهما البدنية في معالجة مسائل الحياة اليومية. وقد أشاع الناظر والمراقبون، أن سبب نقل التوأم من الدار التي كانا فيها، إلى دارنا في لوانجو، أنهما هناك كانا قد تشاجرا مع تلميذ شجارًا عنيفًا، انتهى بأن فقآ له إحدى عينيه. لكن لم يعرف من منهما بالضبط المسؤول عن هذه الجريمة، خاصة وأن التلميذ نفسه لم يعرف مَن منهما الفاعل. قيل: إن ذنب التلميذ الضحية هو أنه كان ذات يوم قد اقترض منهما بعض الطعام، كان عليه أن يردّه لهما ولم يفعل. كان هذان التوأم أطول وأكبر حجمًا من جميع تلاميذ الدار، وبذلك فإنهما معًا لا يسهل التغلّب عليهما في أي صراع جسدي. كان هذا هو السبب الأول في إجرامهما، أما السبب الثاني فهو ماضيهما الإجرامي المذكور في السجلّات، إذ بدآ في سنّ مبكّرة جدًّا، في محاولة فرض سيطرتهما على الآخرين باستعمال الإرهاب.

اعتاد التوأم على البحث في صناديق قمامة الدار، عن أعقاب السجائر التي يدخّنها الناظر والمدرّسون والرقباء، الذين اعتادوا لأسباب صحيّة، على تدخين السيجارة فقط حتى منتصفها. هكذا استحدث التوأم نوعًا من التجارة السرّية، التي لم تكن معروفة في الدار حتى وصولهما، وهي تجارة أعقاب السجائر، التي كان التلاميذ قد بدأوا في الاعتياد على تدخينها، وكانوا يشترونها من التوأم بنظام المقايضة، فإنَّ شراهة التوأم للطعام، كانت أكبر من شراهتهما للتدخين، فكانا يحصلان من التلاميذ على أنصبة من وجبات طعامهم مقابل أعقاب السجائر.

كان إدمان التدخين يساعد التلاميذ في الحصول على حالة من الانبساط، فيصبحون قادرين على الضحك لأتفه الأسباب. وقد كنت من بين التلاميذ الذين جرّبوا تدخين هذه الأعقاب، ثم تعلّمت من التوأم أن أبلع الدخّان كلّه في صدري، رغم ما كانت هذه العادة تسبّبه من كحّة، بل أحيانًا من إحساس باقتلاع الرئتين من جذورهما، على الأقل في بداية ممارستها. ثم بدأت أثناء التدخين، في الشعور بالاختناق وباحتراق الصدر، وبدأت في التساؤل عن جدوى كلّ هذا. كنت أبحث في رأسي عن السبب في إدمان التدخين، ولم أجد. وهكذا حاول التوأم الادّعاء بأن عاداتي المخطئة في التدخين هي السبب في معاناتي، فأفهماني أنه عند التدخين ينبغي أن تميل الرأس قليلًا إلى إحدى الجهتين، وأن تكون العين اليُمنى نصف مغلقة، وأن تكون السيجارة بين إصبعيَّ السبابة والوسطى، وأن يكون طرف السيجارة بالكاد بين الشفتين، وأن ينتظر المدخّن لحظات بين كل نفس سيجارة والنفس التالي له، وأن يتظاهر المدخّن بمشاركة الآخرين أحاديثهم، بإشارات من الرأس وإيماءات متعالية.

أنا لم أكن أبدًا في صراع مستمرّ مع التوأم، بل أعتقد أنهما كانا يكنّان لي قدرًا من الاحترام، ويثمّنان قدرتي على الصمت وإغلاق الفمّ، في الوقت الذي لا يتوقّف فيه الآخرون عن الثرثرة. الحقيقة أن الصمت فضيلة عظيمة. ثم إنهما كانا متأكّدين من أنني، لست من بين التلاميذ الذين ينقلون أخبار أفعالهما إلى مراقبي الممرّات. ثم كانت قدرتي على حفظ فقرات كاملة من خطب السيّد الرئيس، هي السبب في

العلاقة الخاصة بيني وبين التوأم، حين طلبا منّي مساعدتهما في حفظها، لأهمية هذا في تحسين علاقتهما بالناظر. كان هذا هو السرّ في قدرتي على الاحتفاظ بجميع وجباتي كاملة، رغم استمراري في تدخين أعقاب السجائر. بل إنني كنت أحيانًا أحصل على بعض الزيادات الغذائية، من بين ما يحصلان عليه من التلاميذ الآخرين. وهكذا أصبح لي وضعي الخاص جدًّا.

بالمناسبة، كنت أثناء تلاوة خطب رئيس الجمهورية، قد بدأت في تقليده، ليس فقط تقليد طبقته الصوتية، بل كذلك حتى تقليد حركاته اللا إرادية. لكنهما سخرا مني بسبب ذلك التقليد واستهزآ بي. لذلك بدأت أشعر بعدم الارتياح لهذا التقليد وتوقّفت عنه. كنت أقف بينهما في عنبر النوم الذي نتشارك فيه، وأتلو عليهما الفقرات مرّة بعد أخرى ليحفظاها منّي، وأنا أرتدي قميصي الأبيض وسترتي السوداء، فسخرا مني من جديد قائلَيْن إنني أشبه طائر البطريق، الذي وهبته الطبيعة نفس ألوان هذه الثياب. بدأت أخشى تماديهما في السخرية منّي، خاصة لو أنهما سخرا مني أمام آخرين. ثم بدآ يستغلانني كمادة فكاهية، فيطلبان مني في أي وقت أمام الآخرين أن أتلو عليهما فقرات من خطب الرئيس، بشرط أن أقلّد حركاته، فيقهقهان بصوت مرتفع.

كانت مادة خطابات الرئيس في منتهى الجديّة ولا تدعو على الإطلاق إلى الضحك والسخرية. كنت أقول على لسانه: لا يهمّ إن كان رئيس البلاد من شمالها أو من جنوبها، فليست هناك منطقة واحدة في البلاد، تستطيع أن تدّعي أنها مكتفية ذاتيًّا، وفي غير حاجة إلى غيرها من

مناطق البلاد، وليست هناك قبيلة واحدة في البلاد، تستطيع أن تعيش معزولة عن غيرها من القبائل، لذلك فإن التكافل والتكامل بين القبائل، هو حتمية تاريخية وجغرافية، وصولًا إلى الهدف الأسمى، وهو ألَّا تكون الأمّة الكونغولية منقسمة على ذاتها.

ما الذي يضحك في هذا؟

عندما وضعت الفلفل في طعام التوأم، كنت أعرف أنه لو شاهدني أحد التلاميذ من نزلاء عنبر النوم، وفضحني أمام التوأم، فإنه يمكنهما أن يجعلاني أدفع إحدى عينيَّ ثمنًا لهذه الفِعلة. ورغم أنني فعلت هذا لأنتقم لبونافنتورا منهما، إلا أنني لم أصرّح له بأنني الفاعل، ثم فوجئت بتعاطفه معهما، مما أدّى إلى إحساسي نحوهما ببعض مشاعر الندم. لم يكن ضميري مرتاحًا تمامًا لما فعلته.

هو: هذا شيء خطير جدًّا يا موسى، لقد وضع أحدهم للتوأم السمّ في الطعام. يجب أن نفعل لهما أي شيء، فأنا لن أحتمل أن أراهما يموتان.

كانت لديه في رأسه قائمة متّهمين، وضع في بدايتها كل مشرفي النظافة ومراقبي العنابر، بل إنه وضع اسم الناظر، الذي لم يكن يخفي استياءه من وجود هذين التوأم في مؤسّسته. كان يقول: «لقد أرسلوا لي قطّين توأمين سياميين منحرفين في سلوكهما؛ لأنني بفضل شدّتي وحزمي، أقدر من غيري من نظّار المدارس، على علاج اعوجاج مثل تلك الحالات الصعبة، وإعادتها إلى الطريق القويم، لكن سوء التربية الذي حصلا عليه قبل وصولهما إلى داري، سيكون السبب في استحالة شفائهما بالكامل، إذ سيظلّ لديهما بعض سوء الخلق الذي نشآ عليه في سنينهما الأولى».

ثم يضيف: «لقد اختلطت المسائل على مديري التربية والتعليم في هذه البلاد، فهم يرسلون إليَّ كل المعوجّين، كأنني لست مديرًا لمدرسة أيتام، بل لأحد السجون، فهذان التوأم ليس مكانهما هنا، وأنا أخشى أن يكون لتأثير سلوكهما المعوجّ، أكبر الخطر على سلوك بقية التلاميذ».

أتذكّر أنه بعد شفائهما من حالة الإسهال بأيام قليلة، اعترض تلا تلا طريقي إلى الحمّام العمومي الملحق بعنابر النوم، سائلا إيّاي:

هو: هل أنت سعيد؟

أنا: لا أفهم هذا السؤال.

هو: هل أنت تعتقد أنني لم ألاحظ أي شيء؟ أنت تعرف أنني أعرف لذلك أنت لا تستطيع مواجهتي، وفي كل مرّة نظرت إليك فيها هربت بعينيك بعيدًا عن عينيَّ ووضعتهما في الأرض. الآن أطلب منك أن تنظر إليَّ في عينيَّ وتقول لي، إنك لا دخل لك فيما أصابنا من إسهال.

الحقيقة هي أنني لم أتمكن فعلًا من رفع رأسي عن الأرض لوضع عينيَّ في عينيه.

هو: إن كلّ ما تفعله أنت في حياتك، سواء أثناء النهار أو أثناء الليل، يمكننا أن نراه أنا وأخي في منامنا، ولن تحصل على احترامنا لمجرّد أنك أقدم منا في الدار، ثم إننا لا نقيم أي اعتبار للمربية سابين، التي تعتقد أنها تستطيع حمايتك منا، كما لو أنها كانت أمّك، لذلك سنعطيها هي الأخرى درسًا، حتى لا تتدخّل بعد ذلك في شؤوننا، وتكفّ أنت عن الإتيان بأفعالك السخيفة.

صرخت: لا تلمسا سابين، اتركاها في حالها.

هو: لماذا إذَنْ وضعت الفلفل في طعامنا؟

أنا: بونافنتورا ليس صبيًّا سيّئًا، وهو بمثابة أخ لي، وأنتما تستمرّان في ضربه أمام الجميع منذ حضوركما إلى الدار، وهو لهذا السبب يشعر بالاختناق.

هو: سونجي سونجي يتفّق معي على ضرورة نسيان الماضي، وأعدك بأننا لن نلمس صديقك كثير الخوف بسوء بعد الآن، لكنك مع ذلك يجب أن تكفّر عن خطيئتك في حقّنا، فنحن قد تعذّبنا كثيرًا خلال بضعة أيام، بل حتى إننا كدنا أن نموت بسبب ذلك الفلفل الأحمر الذي وضعته لنا في الطعام.

أنا: كيف أكفّر عن خطيئتي لا أفهم.

قال: سنطلب منك أن تساعدنا في بعض المسائل، وسأشرح لك كلّ شيء بالتفصيل لاحقًا.

أذعنت له؛ لأنني أعلم مقدّمًا أنه لا مجال على الإطلاق لرفض هذا الطلب، وأعلم أن مزاج التوأم حاد وعنيف.

قال: إذَنْ حتى ننسى الماضي يجب أن تتعاون معنا في الحاضر.

أنا: وما هو شكل هذا التعاون؟

هو: لقد سرق المدعو لويندولا صابون ومعجون أسنان أخي، لذلك ستذهب أنت إليه وتقنعه بالخروج معك إلى الفناء الخلفي، حيث سنقوم أنا وأخي بتلقينه درسًا جديدًا، يتوقّف بعده عن السرقة.

كان لويندولا هذا من أشدّ نزلاء دار الأيتام عنفًا وإجرامًا، وقد جاء به والده إلى هنا؛ لأنه كان يغار من أختيه التوأم الأصغر منه سنًّا، لشدّة اهتمام والديه بهما، على حساب سابق اهتمامهما به، حتى أن والديه ضبطاه عدّة مرّات وهو يحاول خنق أختيه بيديه، أو قضم أصابع أقدامهما. كان والده يظنّ أن بقاء هذا الصبيّ العنيف وسط صبية من سنّه أشدّ منه عنفًا، قد يعلّمه بعض الأدب. والحقيقة هي أنه كان سيئ الحظّ بوصوله إلى دار الأيتام، في نفس توقيت وصول التوأم إليها، فأعلنا على الفور الحرب الشعواء عليه، حتى يدرك كم هما أكثر منه إجرامًا.

كان لويندولا صغير الحجم ضعيف العضلات، بالمقارنة بالتوأم اللذين تميّزا بطول القامة وقوّة العضلات، بالإضافة إلى ظهور ملامح الرجولة على وجهيهما، مثل الشوارب وشَعر الذقن. أنا في الحقيقة لم أكن قادرًا أبدًا على التمييز بينهما، فهما متشابهان بنسبة ١٠٠٪، ويرتديان دائمًا نفس الثياب المتشابهة، لكني بفضل الاقتراب الشديد منهما، أدركت أن هناك فرقًا طفيفًا بينهما، وهو أن سونجي سونجي لديه بقعة سوداء في بياض عينه اليمنى، في حين أن تلا تلا لديه نفس البقعة السوداء، ولكن في بياض عينه اليسرى. لكن كثيرًا ما اختلطت المسائل عليَّ رغم إدراكي لوجود هذا الفرق.

إذَنْ فقد قبلت مخاطرة أن أتآمر معهما على الآخرين، وأن أعمل مساعدًا لهما في تنفيذ خطتهما الإجرامية، فقط من أجل إنقاذ بونافنتورا من مخالبهما. فإذا كانا قد تمكّنا من الانفراد بلويندالا في الفناء الخلفي، فإن ذلك كان بفضل تعاوني معهما، وقدرتي على خداع الصبيّ المجرم، بأن وعدته لو ذهب معي إلى الفناء بأن أكشف له عن سرّ خطير لا يعرفه

غيري من نزلاء الدار، فجاء على الفور خلفي من أجل معرفة هذا السرّ الذي أقسم أمامي ألا يبوح به لأي شخص.

عند وصولنا إلى هناك كان التوأم في انتظارنا، وفي يد كلٍّ منهما عصا خشبية، وعلى الفور قفزا فوق المسكين، وبقيت أراقبهما وهما يضربانه، وأحاول أن أبدي له اندهاشي من المفاجأة، كأنني لم أكن أعلم بوجودهما هناك، وذلك حتى لا يتحوّل ضدّي أنا فيما بعد. كان لويندالا يصرخ بكلّ قوّته بكلمة واحدة هي: «النجدة»، ثم بدأ يطلب مني أن أتدخّل للدفاع عنه، قائلًا: «حاول أن تفعل أيّ شيء»، لكن ذهب كلّ صراخه هباء؛ لأن التوأم كانا قد اختارا لحظة بداية مباراة هامة في كرة القدم، تجمّع بسببها كل نزلاء الدار والمراقبين في فناء الألعاب، فغطّت أصوات التشجيع على صراخ المسكين. لم يستطع لويندالا لاحقًا أن يخطر الإدارة، بما ناله من أذى على يدّ التوأم، بل تقبّل الأمر بخضوع وخنوع؛ لأنه يعلم أن هذين التوأم قادران على العودة إلى الانتقام منه في أي وقت يشاءان، ويعلم أن حتى مراقبي الممرات يخشون التدخّل في المسائل المتعلّقة بهذين التوأم، خاصة منذ اكتشاف وجود فأس حادة جدًّا مخصّصة لقطع أخشاب الغابات، تحت فراش أحدهما، وتساءل الجميع: «فيمَ كانا ينويان استخدام تلك الفأس؟».

عندما بلغ المدير نبأ العثور على هذه الفأس، تحت فراش أحد التوأم، أشار إلى احتمال رغبتهما في استعماله في حفر نفق تحت الأرض، يستطيعان الوصول به إلى الشارع والهروب من الدار، على

غرار ما فعله ثلاثة سجناء في سجن الكاتراز الأمريكي، الشهير بقوّة استحكاماته التي لا تسمح للسجناء بالهروب منه، وقال: إنه شاهد هذه الوقائع في الفيلم الذي عرض في قاعة سينما ركس، ورأى كيف وصل السجناء الثلاثة من زنزانتهم مباشرة إلى مياه المحيط. لكنه عاد وأكّد أن استحكامات دار الأيتام أقوى من استحكامات السجن الشهير، لذلك هو يرجّح أن يكون سبب وجود الفأس، هو قيام التوأم باختطاف أحد المراقبين والتهديد بقطع عنقه، لو اعترض أحد طريقهما، وبالتالي استعمال المراقب كرهينة لحين هروبهما من الدار.

ثم كانت بقعة من الدمّ الأزرق القاتم، قد ظهرت حول إحدى عيني لويندولا، فسأله المراقبون عن السبب فيها، وهل كانت نتيجة مشاجرة بينه وبين أحد النزلاء، فأنكر أن تكون لهذا السبب، وأقسم لهم أنها قد حدثت بسبب سقوطه على وجهه، أثناء وجوده في قاعة الاستحمام، بعد أن وضع قدمه بالخطأ، على قطعة صابون كانت على الأرض، مما أدّى إلى انزلاقه. وهكذا بسبب رغبتي في حماية بونافنتورا، أصبحت العضو الثالث في عصابة الأخوين، حتى بدأ النزلاء يلقبّوننا بالثلاثي، وبالتالي أصبحنا أقرب شبهًا بثلاثي سجن ألكاتراز.

إلا أن بونافنتورا لم يكن راضيًا عن هذه التطوّرات الخطيرة، إذ تخيّل أن التوأم قد سلباه صديقه الوحيد، الذي كان يثق فيه ثقة عمياء، ولهذا كرّرت على مسامعه مرّات عديدة، أن السبب الوحيد الذي من أجله حاولت التقرّب إلى التوأم، هو أن أحافظ على سلامته هو الشخصية، وأنه بفضل تعاوني معهما، لن يحاولا أبدًا أن يعودا إلى ضربه من جديد.

(١٣)

أرى نفسي ممدّدًا على فراشي، وقد امتلأت بشرتي بالبثور، وبالطفح الجلدي حول الفمّ، الناتج عن ارتفاع درجة حرارة الجسد، بالإضافة إلى احتقان في الحلق يكاد أن يمنعني من التنفّس. كل زملائي في العنبر في فصولهم الآن، بينما أنا مريض بالحمّى وطريح الفراش. شعرت بوجود شخص غريب في العنبر حيث أنام، اقترب مني ووقف إلى جوار فراشي. اعتقدت أنه بونافنتورا الذي كان يراقبني، خوفًا عليَّ من تدهور صحّتي السريع. حتى في الحالات العادية، كان معتادًا على بعض الأفعال الصبيانية، مثل التسلّل هكذا إلى العنبر، والوصول إلى فراشي، ثم الصراخ في أذني محاولًا إخافتي. أخرجت رأسي من تحت الأغطية لأنظر إلى بونافنتورا، وأجعل يفشل في لعبة محاولة إخافتي، رغم شعوري العام بالغثيان.

فوجئت مفاجأة سارة، بأن مَن إلى جواري ليس بونافنتورا بل المربية (سابين)، أقرب المربيات إلى قلبي. ها هي ذي واقفة أمامي وقد أمسكت بكوب ماء في يدها، لأتناول به بعض الأقراص المسكّنة

للألم والخافضة للحرارة. نظرت إلى شَعرها الرمادي الكثيف، الذي يغطّي جانبي وجهها، والى عويناتها السميكة التي تدل على معاناتها من حالة قِصَر نظر حاد، اعتقدت لفترة طويلة أنها بسبب، أن سابين حتمًا قد أمضت وقتًا طويلًا، في قراءة كتب مطبوعة بحروف صغيرة الحجم جدًّا، فالكتاب المقدّس مثلًا، كان يطبع بمثل هذه الحروف الصغيرة، حتى يخرج في أقلّ عدد ممكن من الصفحات، وبالتالي في أكثر عدد ممكن من النسخ، التي كانت على زمن شباب سابين، توزّع مجّانًا على مواطني الكونغو.

كنت بسبب براءتي الشديدة أودّ أن أضع عوينات مثل عويناتها، بشرط أن أقرأ مثلها كتبًا مطبوعة بحروف صغيرة الحجم جدًّا، على أن يقلّ حجم الحروف بالتدريج، كلّما تقدّمت في ثقافتي العامة. كنت أقول في نفسي إنني لن أندم إطلاقًا، لو تدهورت عيناي، بشرط أن أقرأ نفس ما قرأته من كتب. وضعت كوب الماء على الأرض، وجلست إلى جواري على فراشي. قالت: «إنه منذ مغادرة الأب موبلو للدار، فإن صفحة هامة من تاريخ الدار قد تمّ اقتلاعها وتمزيقها». لاحظت من بلل عينيها أنها كانت تبكي. قالت: «كان في إمكان مدير الدار الاحتفاظ بالأب موبلو، فإن وجوده لم يكن يؤذي أحدًا».

ثم صمتت لحظات عادت بعدها إلى الكلام. قالت: «إن المدير عطيّة الله ظلم عددًا كبيرًا من البشر، وقد سبق له قبل سنوات طويلة من وصولك إلى الدار أن ظلمني أنا شخصيًّا ظلمًا فادحًا، إذ جرّدني من درجتي العلمية، ومن رتبتي الوظيفية، ليجعل منّي مجرّد مربية أو حتى

خادمة، فأنا لو كنت قادرة على مغادرة هذه الدار لغادرتها على الفور، إلا أنني مضطرّة إلى البقاء رغم الظلم».

طبعًا لم أفهم ماذا تريد أن تقول بعباراتها تلك الغامضة. لكنها تنحنحت قليلًا وعادت إلى الكلام: «أريد اليوم أن أفتح لك قلبي ومخزن أسراري، وأحكي لك كلّ شيء. أعرف أنه كان ينبغي لي أن أفعل هذا من قبل، لكنك الآن فقط أصبحت في سنّ، يمكنك معها أن تدرك معاني عباراتي. أنا أعرف عنك أشياء أكثر بكثير مما تعرفه أنت عنّي. في الحقيقة أنت لا تعرف أي شيء عنّي. لقد احترمت فيك أنك طوال تلك السنوات لم تحاول أن تطرح عليَّ أي أسئلة، من نوع تلك الأسئلة الشخصية المحرجة، التي يمكن بسهولة للأطفال الفضوليين طرحها على الكبار. قد أكون في نظرك مجرّد جزء مكمّل لصورة الأثاث الموجود في العنابر والفصول، مجرّد مربية اعتدت على رؤيتها في الدار، منذ أن تفتّحت عيناك على الدنيا التي حولك، وتعتقد أنني سأستمر في هذا المكان أمارس نفس المهنة إلى آخر يوم في حياتي».

مسحت زجاج عويناتها واستأنفت: «أنا أسكن وحدي منزلًا يقع في أطراف مدينة بوانت نوار، أي على بعد حوالي عشرة كيلومترات من دار الأيتام، وعندما أكون مفلسة تمامًا، لا أستطيع دفع ثمن تذكرة سيّارة النقل العام، أقطع هذه الكيلومترات مشيًا على قدميَّ ذهابًا وإيابًا، وفي مثل هذه الحالات أغادر منزلي في الرابعة صباحًا، لأكون هنا قبل السابعة صباحًا، أسير على حافة الطريق الأسفلت، وأنا خافضة الرأس، حتى أتمكن من رؤية الأرض التي تطؤها قدمي، في ظلام الليل الحالك

السواد، فلا أخطئ وضع القدم في مكان قد يجعلني أسقط على الأرض، وأظلّ طوال ساعات المشي تلك، أفكّر في الزمن القديم، الذي التحقت في أثنائه بالعمل في الدار لأول مرّة.

«عندما جئت إلى هنا لأول مرّة، كانت الدار لا تزال تحت إشراف رجال الدين المسيحي والراهبات البيض، وكان ذلك الوقت من بداية حياتي، هو أفضل أوقات حياتي على الإطلاق. كان التعليم في ذلك الوقت يا صغيري موسى، يختلف تمامًا عن التعليم الحالي؛ فالتعليم الآن يتمّ خلطه بالسياسة بشكل يُسيء إلى التعليم، وذلك لاعتقاد المسؤولين السياسيين، أن دور الأيتام هي معامل لتفريخ الشباب الثوري، وأن التلاميذ الأيتام هم حيوانات تجارب معملية. في ذلك الزمن الأول لم تكن هناك ثورة اشتراكية علمية لينينيّة كما يسمّونها، وكان كلّ شيء أفضل مما هو عليه الآن، كنت شابة صغيرة وجميلة، لكني لم أكن أعرف إن كنت سعيدة بحياتي تلك أم لا، لأني لم أكن أعرف بعد تحديد معنى السعادة. هل تعرف أنت؟».

فكّرت للحظة أن أردّ عليها، إن السعادة هي في استعادة صحتّي على الفور، حتى أتمكّن من أن أذكر لها كلمة شكرًا، على كلّ ما فعلتيه وتفعلينه من أجلي، وهي الكلمة التي لم أصرّح لها بها أبدًا. لكني فضّلت الصمت، حتى تستمر في فتح صناديق الأسرار.

قالت: «في ذلك الوقت يا موسى كان الأطفال الأيتام يلقّبونني بالأم النشيطة، ولم يكن لدينا وقتها إلا حوالي ثلاثين طفلًا، لذلك كان من السهل توجيه اهتمامي إلى كلٍّ منهم على حدة، وكانت الأغلبية من

الأطفال الإناث، اللائي كنّ قد تُركن رضيعات، على عتبة باب الدار أثناء الليل، وكان السبب في كثرة الإناث بين نزلاء الدار، هو اعتقاد الناس في ذلك الوقت، أن مجيء طفلة أنثى في بداية الإنجاب على رأس الذرّية علامة على النحس وسوء الحظ، لذلك كان الآباء يسرعون في التخلّص منها.

«كانت وظيفتي في ذلك الوقت تتلخّص في قضاء الوقت في الفناء مع أصغر الطفلات سنًّا، في محاولة للتسرية عنهنّ، مع محاولة تعليمهنّ حروف الكتابة والأعداد الحسابية، تمهيدًا لدخولهنّ الفصول في الصفّ الأول الابتدائي، عند بلوغهنّ سنّ الخامسة، وفي المساء كنت أساعد الأكبر سنًّا بقليل في مراجعة واجباتهنّ المدرسية.

«لم يكن بالدار في ذلك الوقت إلا ثلاثة مبانٍ، وقد زاد عدد المباني إلى الضعف مع مرور الوقت. كانت الفصول تشغل أحد المباني، بينما كان الطابق الأرضي في المبنى الرئيس مخصّصًا لعنابر نوم الأطفال، الذكور في ناحية والإناث في ناحية أخرى، وتفصل بين الناحيتين قاعة الطعام، وكان الطابق العلوي من نفس المبنى مخصّصًا لحجرات نوم الراهبات. كان التلاميذ الماكرون مثلك ومثل بونافنتورا، يتسلّلون في الليل إلى قاعة الطعام؛ لسرقة الطعام والفاكهة المخصّصة لوجبات اليوم التالي. لم يكن هذا يغضب الأب القسّ البولندي رئيس الدار، بل على العكس كان يطلب من مسؤول الطعام عدم غلق باب قاعة الطعام، مع زيادة كميّة وأنواع الطعام المتروك فيها، ليستطيع الأطفال الصغار إشباع جوعهم أثناء الليل.

«كنت أقوم غالبًا بدور همزة الوصل بين القسس والراهبات من ناحية، وبين الأطفال من ناحية أخرى؛ لأن الأطفال عند وصولهم إلى الدار، لم يكونوا غالبًا يعرفون ولا حتى كلمة واحدة من اللغة الفرنسية، التي كنت قد أتقنتها، بالإضافة إلى قدرتي على فهم أغلب اللهجات القبائلية، التي كان الأطفال يتحدّثون بها. في ذلك الوقت لم أكن أعود في المساء إلى منزلي، بل كنت أبيت في حجرة خاصة بي في نفس الدور الذي تسكن فيه الراهبات، أصبحت الآن مخزنًا لأدوات التنظيف. لذلك كنت أغلب الوقت في حالة نفسية طيبة، خاصة أنني كنت أفهم بسهولة نفسية الأيتام؛ لأنني في الأصل كنت واحدة من أولئك الأطفال الرضّع الذين تركهم آباؤهم على عتبات دور الأيتام، ووفقًا لمديرة دار الأيتام التي تربّيت فيها، فقد ذهبت أمّي الحقيقية إلى هناك بنفسها وأنا رضيعة، وسجّلت اسمي الحقيقي في الدار ثم تركتني ومضت، ولم تعد أبدًا بعد ذلك للسؤال عنّي.

«عرفت بعد ذلك أنها كانت مِن بين مَن يبيعون ويشترون كلّ ما تقع عليه أيديهم، في أسواق المناطق الحدودية بين الكونغو وأنجولا، إذَنْ كانت من بين مَن يجيدون التصرُّف في المواقف الصعبة غير المتوقّعة. أتساءل كم كانت تكسب تلك المسكينة من بيع الفول السوداني والموز؟ مبالغ زهيدة تافهة، غير كافية بكلّ تأكيد، للصرف على احتياجات طفلة رضيعة. كانت تلك وسيلتها الوحيدة للبقاء على قيد الحياة، فلم تكن تستطيع أن تعتمد على أبي، الذي كان جنديًّا مرتزقًا من أصول إسبانية كاريبية، قابلها بالصدفة على الحدود السابق الإشارة

إليها، ووقف أمامها لشراء فول سوداني محمّص، فأعجبته وأعجبها، واستأجرا كوخًا صغيرًا من الصفيح لقضاء ليلتهما معًا فيه، وهناك ترك بذرتي في رحمها، واختفى صباح اليوم التالي قبل أن تستيقظ. كان هذا النوع من العلاقات العابرة منتشرًا جدًّا في مناطق الصراعات الحدودية، حيث يوجد جنود مرتزقة، لا يجدون حلولًا أخرى لتفريغ طاقاتهم الجنسية. أنت تفهم يا موسى الآن كلّ هذه الأشياء».

أعادت تثبيت عويناتها، وقالت بنبرة جادة: «أنا ثمرة هذه العلاقة التي لم تدم إلا ليلة واحدة، ولم يتمّ فيها تبادل أي نوع من الحوار؛ لأن أبي لم يكن يتحدّث إلا الإسبانية، وأمي لم تكن تتحدّث إلا باللهجة القبائلية، ويبدو أنني ورثت قدرًا من بشرة أبي البيضاء؛ لأن أمي كانت بشرتها شديدة السواد، ولهذا أصبحتُ خلاسيّة اللون، وهو ما تسبّب لي في الكثير من مشاعر الغيرة والحسد والعداء في طفولتي وشبابي، من طرف زميلاتي من نزيلات دار الأيتام، اللائي كنّ كلهنّ ذوات بشرة فاحمة السواد، لذلك أطلقن عليَّ لقب بذرة السفاح، في محاولة منهنّ للانتقام منّي، ومَن كانت منهنّ أقل عداوة أطلقت عليَّ لقب الكوبيّة، أو لقب الكاريبيّة، بل إن منهنّ مَن تطاول على أمّي وادّعى أنها لم تكن بائعة متجوّلة، بل فتاة ليل عاهرة داعرة رخيصة، وأنا لا أشكّ على الإطلاق في سلوك أمي، وأعتقد أن دافعها على النوم مع الجندي الكاريبي، كان الحصول على طفل ذي بشرة أقل قتامةً وسوادًا، ليكون متميّزًا عن غيره من الأطفال، ولو فقط بلون بشرة سمراء. كان هذا جزءًا من مركبّاتنا الذهنية وعقدنا النفسية، بسبب شعورنا بالدونية نحو الجنس الأبيض،

كان كلّ ما هو أبيض مباركًا، وكلّ ما هو أسود ملعونًا. كان كلّ ما هو أبيض متفوّقًا، وكلّ ما هو أسود متخلّفًا».

كنت في تلك الأثناء أثبّت نظري عليها، وأحاول أن أتخيّل وجه أبيها الكوبي، ولم أكن قد رأيت شخصًا كوبيًّا من قبل في حياتي. وكانت هي قد استأنفت الحديث، بالتساؤل عن موقفها النفسي من أبيها، وهل هي تلومه، أم أنها تعذره، بل وتعجب به؟

«تقول أمي إن أبي كان رجلًا جميلًا، طويل القامة وعريض الكتفين، وبعينين عسليّتين، وكان قد جاء إلى أفريقيا، في الوقت الذي تدخّلت فيه إسبانيا عسكريًّا في أنجولا، واستعانت بجنود مستعمراتها في البحر الكاريبي. كانت المواجهة بين إسبانيا وأنجولا من أشدّ المواجهات عنفًا في تاريخ القارة الأفريقية. كنا نجد الكثير من الجنود الكوبيين في بوانت نوار، فهي أقرب مدينة كونغولية كبيرة، إلى الحدود مع أنجولا. وكان هؤلاء الجنود يتمتّعون بإقبال غير عادي من قِبَل الفتيات الكونغوليات، اللائي كنّ شديدات الإعجاب بكل العاملين في السفن التي تمخر عباب المحيطات، الآتين من أبعد الأماكن في الكرة الأرضية عن القارة الأفريقية، والمرتدين للأزياء الرسمية البيضاء والزرقاء لرجال البحرية، ببشراتهم البرونزية وأعينهم العسلية. كان هؤلاء البحّارة يملؤون حانات الميناء والشوارع الرئيسة المؤدية إليه، يفعلون كلّ ما يرغبون فيه، بهدف محاولة تعويض مشاعر الحرمان، بعد أسابيع طويلة في عرض البحر. وهكذا فبالنسبة للنساء مثل أمي، كان الجنود الكوبيّون على الحدود، يحظون بنفس الإعجاب الاستثنائي الذي يحظى به الجنود في ميناء بوانت نوار».

أنا لم أعرف إلا لاحقًا، أن هؤلاء الجنود الكوبيين، الذين يُقدّر عددهم بنحو خمسة عشر ألفًا، كانوا قد أرسلهم فيديل كاسترو، لمواجهة قوّات المستعمر الإسباني، ولمساندة النظام الشيوعي الوليد في أنجولا. هنا كانت سابين تبتسم، وقد شعرت على الفور بأن ابتسامتها تلك جعلتها في نظري أصغر في السنّ بعشر سنوات.

قالت: «جاء الجنود الكوبيّون إلى أنجولا، لمساعدة إخوتهم الشيوعيين الأفارقة من أعضاء الحركة الشعبية لتحرير أنجولا، بزعامة أجوستينو نيتو، الذي كان قد دخل في مواجهة عسكرية، مع الاتحاد القومي لاستقلال أنجولا بزعامة يوناس سافيمبا، الذي كانت تسانده الولايات المتحدة الأمريكية، والنظام العنصري في جنوب أفريقيا، وجمهورية زائير جارتنا. كانوا كلّهم ضدّ انتشار الشيوعية في أفريقيا. وحيث إن الحركة الشيوعية كانت تنتشر في الكونغو، لذلك أصبح الجنود الكوبيّون عندنا بمثابة أبطال شعبيين لأنهم يدافعون عن الشيوعية. هل يمكن أن نلوم هؤلاء الجنود الشباب لمحاولتهم الاستفادة من وضعهم المتميّز، الشباب والجمال والمال بين أيديهم، واحتمالات ضياع الحياة في لحظة تواجههم، لذلك كانوا يتلطّفون مع الفتيات الكونغوليات فيتساقطن تحت أقدامهم، رغم معرفة الفتيات بأن هذه العلاقات ليس لها مستقبل، فهي لن تستطيع أن تسافر معه إلى بلده، وهو لن يستطيع أن يبقى معها في بلدها.

«في كلّ مرة أرى خريطة العالم، يتجه نظري مباشرة إلى جزيرة كوبا، وأقول في نفسي لقد وُلد أبي في مكان ما من هذه الجزيرة، في

هافانا أو سانتا ياجو أو لاس توناس أو بايامو أو سانتا كلارا، رغم أن هذه الأسماء هي لمدن كوبيّة، ولا أشعر نحو أيّ منها بأي علاقة خاصة، ولا أختلف عن أولئك السيّاح الذين يحلمون بتلك الجزيرة، فتظهر في عقولهم صور شواطئ البحار برمالها الناعمة، وصور الفرق الموسيقية التي تجول في شوارع المدن أو تتوقّف عند تقاطعات الطرق، وصور السيّارات الفارهة من الطرز الأمريكية لنهاية سنوات الخمسينيات التي تركها الأمريكيون وهربوا في طائرات خوفًا من كاسترو عند قيامه بقلب نظام الحكم سنة ١٩٥٩، هذه السيّارات لا تزال تجوب شوارع كوبا، رغم تكاثر أعداد السيّارات سوفييتيّة الصنع من طراز لادا وموسكوفيتش، هناك يُفاجأ السيّاح بأن سائقي السيّارات الأجرة يدخّنون أثناء القيادة السيجار الكوبي الفخم الأغلى في العالم على الإطلاق.

«عند مولدي، وضعتني أمي على الفور في دار أيتام الفتيات في لواندجيلي، حيث اكتشفت بمرور الوقت أن نصف فتيات تلك الدار لهنّ آباء من الجنود الكوبيّين، كما لو أن هذه المؤسّسة قد أُنشئت لهنّ فقط دون غيرهنّ من يتيمات البلاد، أو أن هذه المؤسّسة كانت تمارس نوعًا من العنصرية العرقية بعدم قبول إيواء يتيمات إلا من هذه الفئة من أطفال الجنود الكوبيين والنساء الكونغوليات. ثم علمت لاحقًا أن الرئيس الكوبي فيديل كاسترو كان يدفع من ميزانية كوبا مصروفات بقاء هذه الدور على قيد الحياة والمال اللازم لحسن إدارتها. كانت أمي تعتقد أنها قد تستطيع يومًا إذا تحسّنت ظروفها أن تستردّني، وغالبًا هو نفس الكلام الذي تعتقده كلّ الأمّهات، لئلّا يتعذّبن من الندم على تخلّيهنّ

عن أطفالهنّ. ماتت أمّي قبل أن أستطيع رؤيتها ومحاورتها. ماتت أمي وأنا بالكاد في الثالثة من العمر. ماتت لأنها كانت فقيرة مسكينة لا ظهر لها، فقتلها جنود حرس الحدود، ولم يطالب أحد بمعاقبتهم، ولا حتى طالب أحد بمحاسبتهم.

«بعد شهرين من موت أمي، جاء إلى المؤسّسة زوج وزوجة يريدان تبنّي طفلة، كانت الزوجة التي ستصبح لبعض الوقت أمّي الثانية معجبة جدًّا بلون بشرتي السمراء القمحية، وبعينيَّ الواسعتين العسليّتين، وبشَعر رأسي الكثيف على الطريقة الأفريقية، وفعلًا تمّت كتابة العقد الذي بموجبه أصبحت ابنتهما بالتبنّي. وظلّت أمي الثانية حتى أصبحت في الثالثة عشرة من العمر، ترفض أن تقصّ لي شَعري، أو حتى أن أصنع منه ضفائر، وذلك حتى أظل أشبه تلك التي أطلقت اسمها عليَّ وهي أنجيلا دافيز، الناشطة السياسيّة الأمريكية السوداء في فترة الستّينيات. أسعدني هذا الاسم خاصة عندما بدأت أقرأ عنها، وعن تاريخ كفاح الشعب الأمريكي الأسود للحصول على كافة حرّيّاته وحقوقه المدنية، وعرفت أنها عضوة في جمعية يسمّونها الفهود السوداء بلاك بانترز، التي يتميّز أعضاؤها بالشجاعة في مواجهة السلطات الأمريكية الظالمة الغاشمة، على زمن أسوأ رئيس جمهورية أمريكي على الإطلاق، وهو ليندون بينز جونسون».

هي: هل غلبك النعاس؟

أنا: أبدًا بل أنا في قمّة تركيزي أنصت إليك.

هي: «في الحقيقة أنا لم أندم أبدًا على انضمامي إلى أسرتي الجديدة، إذ عندما انتقلت للإقامة معهما في منزلهما، وضعاني على الفور في مدرسة خاصة للغات في وسط المدينة، ثم فيما بعد استأنفت الدراسة في أفضل مدرستين في البلاد، وهما كلية باستور وليسيه فيكتور أوجانيور، حيث حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية وفقًا للنظام الفرنسي بتقدير جيد جدًّا من القسم الأدبي الفلسفي، ولو كنت قد أتممت دراستي العليا في جامعة برازافيل، كما كان والداي بالتبنّي يخطّطان لي، لأصبح لي شأن آخر الآن، وربّما كنت أصبحت الآن مديرة كبيرة في أحد المكاتب الحكومية، وحصلت على احترام الناس. إلا أن ما حدث لي وأنا في سنّ السابعة عشرة، هو الذي أدّى بي إلى الوصول إلى هنا. وقعت في حبائل أول رجل في حياتي، وتركت له جسدي، فسلبني عذريّتي وبراءتي، ثم أدركت أنه مثل كل أولئك الرجال المجهولين، الخالين من الإحساس بالمسؤولية تجاه الفتيات، اللائي بالتالي يفقدن الأمل في المستقبل، بسبب أنهنّ يصبحن أمّهات قبل الأوان، ودون وجود أبّ.

«هذا الرجل الذي حطّم مستقبلي كان في الأربعين من عمره، متزوّجًا ويعمل ساعيًا في أحد مكاتب البريد والاتصالات اللاسلكية الحكومية. كنت أعرفه منذ كنت في الثالثة من العمر، ولم أشعر نحوه أبدًا بالخوف، إذ كان يأتي بالبريد إلى منزل أسرتي بالتبنّي، مرّة كلّ أسبوع، فيدخل ويجلس مع والدي لبعض الوقت، فيراني وأنا أنمو في الجسد عامًا بعد عام. كان والدي كريمًا جدًّا مع البسطاء، لذلك كان

يدعوه إلى أن يحتسي معه كأسًا من نبيذ البلح، وكنت أجلس أحيانًا إلى جوارهما، فيمدّ هذا الساعي يده إلى شَعر رأسي ويداعب فروة رأسي وهي منطقة حسّاسة غنيّة بالأعصاب الحسّية. ثم يحاول مجاملة أبي وأمي قائلًا إنه يعرف أنني عندما أكبر سأدير يومًا ما رؤوس الرجال.

«نعم يا صغيري موسى، إنه هذا الرجل الذي أدار رأسي أنا بعد أربعة عشر عامًا، فحوّلني من فتاة عذراء إلى امرأة. يمكنك طبعًا أن تتخيّل حجم الفضيحة التي أصابت هذه الأسرة الصغيرة، خاصة وأن هذه الفعلة الشائنة قد حدثت في منزل الأسرة. كان أبي حريصًا جدًّا على سمعته كرجل شريف، لذلك أزعجته هذه التطوّرات الخطيرة. أمّا أمّي فكانت أكثر تسامحًا وقالت: إن هذا الشيء يمكن أن يحدث لأي فتاة، مهما كان حرص والديها عليها، وكل ما في الموضوع أن هذا الشيء قد جاء قبل موعده، وحدث مع شخص غير مناسب. فردّ عليها والدي: إنه لهذا السبب الأخير فمن المستحيل الاحتفاظ بهذا الحمل، وقال إنني إذا لم أمتثل لإرادته فلا مكان لي في منزله. وافقته أمي على ضرورة التخلّص من هذا الجنين، وقالت: إنه إذا عاش سيظل إلى آخر يوم في حياته يذكّرهما بالعار الذي جلبه عليهما، وبخيانة ساعي البريد الذي اعتادا على استقباله في منزلهما».

خلعت سابين عويناتها من جديد وانشغلت بمسحهما، كردّ فعل عكسي متكرّر لديها، للتعبير عن التوتّر الذي تعاني منه. تولّدت لديَّ النيّة، أنني عندما أكبر وأضع عوينات، سيكون هذا هو نفسه ردّ فعلي، لمحاولة إزاحة التوتّر.

هي: «لم أجد نفسي قادرة على إيذاء هذا الكائن الصغير الهشّ، الذي ينمو داخل أحشائي، وكنت أتخيّل رأسه الصغير بملامح كوبية مثل أبي، أتخيّل ملامح وجهه وبكاءه وابتساماته، أتخيّل حركة ذراعيه الصغيرتين. كنت أتناول كمّيات كبيرة من الطعام أكثر من الكمّيات التي اعتدت عليه؛ لأنني أعرف أننا قد أصبحنا شخصين يعتمدان في نموّهما على هذا الغذاء. كنت أتخيّل اليوم الذي سيولد فيه ليصبح إنسانًا كاملًا حقيقيًّا بعد أن كان يعيش فقط في خيالي. أحسست بالخطر عندما حجز والدي موعدًا، في عيادة طبيب أبيض للنساء والولادة، يمارس عمليات إجهاض الأجنّة. قالا إن الطبيب الأبيض هو موضع ثقتهما لأنه لن يفضحهما، مثلما قد يفعل الطبيب الأسود، فحتى لو كان الطبيب الأسود على نفس الدرجة من الكفاءة العلمية والمهنية، فإنه لن يكون أبدًا على نفس الدرجة من الكفاءة الإنسانية، ويفتقد الثقة في قدرته على الاحتفاظ بالأسرار المهنية، التي غالبًا سيقوم بإفشائها مع أول كأس يحتسيها، مع أول شخص يقابله في أول حانة يدخلها. الثقة فيه منعدمة تمامًا. ثم إن الطبيب الأبيض غالبًا لا يختلط بالمجتمع الأسود؛ لذلك ستكون الفرصة معه منعدمة تقريبا بنسبة ١٠٠٪، في كشف أسرار مرضاه للآخرين.

«مع اقتراب موعد التدخّل الجراحي لإجهاض الجنين، كنت أتساءل لماذا كان لي الحقّ في البقاء على قيد الحياة رغم أنني أنا أيضًا طفلة سِفاح؟ ولماذا لا يكون لطفلي نفس الحقّ في البقاء على قيد الحياة، وهو بريء من الذنب الذي اقترفته أنا؟ لذلك عندما جاء اليوم

السابق على عملية الإجهاض، انتهزت فرصة خلوّ المنزل من أمي وأبي، وجمعت بعض أغراضي في حقيبة صغيرة كيفما اتفق، وذهبت إلى منزل في حيّ ركس، تسكنه صديقتان من زميلاتي السابقات في الليسيه، هما عليمة ومليكة، اللتان كانتا تستأجران منزلًا من البناء الصلب يقع في شارع الاستقلال. هاتان الصديقتان استقبلتاني بكل ترحاب، وأحاطتاني بكل رعاية ممكنة، حتى أن مليكة بدأت في شراء ملابس أطفال رضّع بعد مرور أيام قليلة من وصولي. كانت تختار الملابس باللون الوردي، كأنها واثقة أن الجنين لطفلة أنثى لا لطفل ذكر.

«كنت أستمتع بهذه الحريّة في منزل صديقتيَّ، إذ لم يعد هناك أب يرفع صوته عليَّ، ويخاطبني بقسوة وعنف، ولم تعد هناك أم تخشى أن تدافع عني أمام زوجها وتختار أن تصمت. لم أعرف أبدًا إن كانا قد بحثا عنّي؟ أو إن كانا قد افتقداني وشعرا بالحزن لغيابي؟ كنت أكثر ميلًا إلى الاعتقاد، في أن غيابي قد أراحهما من الهمّ الذي كانا يحملانه فوق كتفيهما. هما قد استمتعا بوجودي معهما أثناء طفولتي ومراهقتي، أما الآن فقد أصبحت امرأة تحمل جنينًا».

هنا لمست سابين بطنها بطريقة آلية، كأنها لا تزال امرأة تحمل جنينا. ثم تحوّلت نبرة صوتها إلى الحزن وهي تقول:

«أثناء الاستحمام في منزل صديقتيَّ، لاحظت أن الماء عند قدمي قد تحوّل إلى اللون الأحمر، وأدركت أن هناك نزيفًا من الرحم، ففقدت وعيي وسقطت على الأرض. عندما عدت إلى الوعي وجدت نفسي في الفراش، وأدركت من ملامح وجهيَّ صديقتيَّ أن الجنين قد

قرّر الذهاب إلى العالم الآخر. قرّرت الذهاب في اتجاه التديّن. كنت من قبل منضمّة إلى جوقة غناء التراتيل الدينية في كنيسة القدّيس جان بوسكو، وهناك التقيت بالقسّ الذي وجد لي وظيفة مربّية في دار الأيتام هذه هنا في لواجو. لقد جئت أنا إلى هنا يا موسى قبل وصول الناظر عطيّة الله إلى الدار ببضع سنوات، الذي لم يصبح مديرًا إلا بعد رحيل آخر قسّ في جمعية رعاية المسيحيين البروتستانت، بسبب تدخّل حكومة البلاد وبداية تطبيق سياسة، أن يحلّ المواطنون في الوظائف القيادية بدلًا من الأجانب، فأغلب أعضاء تلك الحكومة كانوا من قبائل البيمبيه، لذلك اختاروا ناظرًا من نفس الأصول العرقية القبائلية بيمبيه مثلهم.

«منذ الأيام الأولى لوصوله، تسبّب في إحداث قدر كبير من الاضطراب في الأمور المستقرّة، وبدأ في فرض قوانينه الخاصة به، ومنها مثلًا أنه نقلني من وظيفة مشرفة على الأنشطة المدرسية، وهي الوظيفة التي حصلت عليها ابنة أخته، إلى وظيفة مربّية وعاملة نظافة، والسبب الوحيد في تلك المهانة هو أنني لست من نفس أصوله العرقية القبائلية، وهو السبب الذي ظللت طوال حياتي أدفع ثمنه غاليًا، إذ لم أحصل أبدًا طوال حياتي على أي ترقية وظيفية، فأنا في نظر أشخاص مثل عطية الله أنتمي إلى معسكر الأعداء، ومن الجائز حتى اعتباري جاسوسة، تنقل الأخبار إلى معسكر الأعداء. هذه هي عقلية المدير، لذلك كان يسير خلفي يراقبني من الصباح إلى المساء. بعد ذلك رفد جميع العاملين الذين ليسوا من قبيلته، ووضع بدلًا منهم عاملين من

نفس أصوله القبلية. من بين المعيّنين الجدد، كان هناك المسؤولون عن المطعم المدرسي، الذين قدّموا إلى الأطفال وجبات من لحوم القطط والكلاب، ومن ديدان الأرض؛ لأنهم اعتادوا على أكلها في قبيلتهم، ولم يدركوا أنها خطر على صحّة أطفال لم يعتادوا عليها.

«حتى بعد أن جاء رئيس جمهوريتنا الحالي إلى منصبه، وهو لا ينتمي إلى قبيلة عطيّة الله، ظل الناظر في منصبه؛ لأنه كان متقلّب الرأي، قادرًا مثل الحرباء، على تغيير لون جلده حسب الظروف والملابسات، ولنفس هذا السبب تمكّن فيما بعد، من التحوّل من تشجيع الأنظمة الرأسمالية، إلى تشجيع الأنظمة الاشتراكية، عندما وصلت الثورة الشيوعية إلى البلاد. لكني متأكّدة من أنه سيأتي يوم الحساب، الذي لا بدّ فيه أن تنفضح تلك الطبيعة المخادعة، وأنا متأكّدة من أن هذا اليوم قريب».

هنا دقّ جرس الفسحة المدرسية، ونزل التلاميذ من فصولهم إلى الفناء، وهم في هذا الوقت من النهار، ممنوعون من الصعود إلى عنابر النوم، هنا صرّحت لي سابين بما اعتبرته أكثر ما قالته لي في ذلك اليوم إثارة.

قالت: «لقد كنت أنا مَن عثر عليك قبل ثلاثة عشر عامًا، ذات صباح باكر في يوم من أيام العمل العادية في ذلك الشتاء، طفلًا رضيعًا موضوعًا على عتبة باب دار الأيتام، ملفوفًا في ملاءة بيضاء، باستثناء الرأس الذي كان حرّ الحركة. أنت لم تكن تبكي، بل كنت تفتح عينيك واعيًا، كأنك تنظر إلى ما حولك بانتباه، حتى لا يفوتك أي شيء، وتفهم ما الذي

يحدث لك بالضبط. أخذتك بين ذراعيَّ وصعدت بك إلى مكتب الناظر، وانتظرت حتى جاء موعد فتح باب المكتب. عندما رآك بين ذراعيَّ بدأ في توبيخي، كما اعتاد أن يفعل مع كلّ الأمهات المسكينات، اللائي يأتين إلى هنا لترك أطفالهنّ الرضّع، كأنه لم يلاحظ أنني موظّفة في الدار، وأنني لم أكن حاملًا في الشهور الأخيرة. هذا الرجل كان دائمًا معتادًا على خلط الأوراق بهذه الطريقة. في لحظة ما توقّعت أن يطردني من مكتبه، طالبًا مني الذهاب بك إلى إحدى دور الأيتام الأخرى. ثم صمت لفترة بعدها قال إنه يتمنى على الأقل أن تكون من نفس أصوله القبائلية. تساءلت كيف يمكن لطفل رضيع متروك على باب دار أيتام أن يعرف ما هي أصوله العرقية القبائلية.

«أما أنا فكنت مشغولة بالتساؤل حول مَن الأب، أو مَن الأم، التي تستطيع أن تترك طفلًا ذكرًا جميلًا في حالة صحيّة جيدة، أمام باب دار أيتام؟ إذ كان من المعتاد في حالة ترك الأطفال الذكور، أن يذهب الأب أو الأم، إلى مكتب المدير، لإثبات انتماء الطفل إلى أيّ منهما، على أمل استرداده عندما يكبر، ويصبح قادرًا على العمل وكسب المال. الناس هنا لم يكونوا يتركون على عتبات دور الأيتام، إلا الطفلات الإناث، دون أيّ رغبة في محاولة إثبات نسبها إلى أهلها. كأنها مصيبة حلّت بهم يريدون أن يتخلّصوا منها على الفور، ثم تنقطع بينهم وبينها الصلات تمامًا. كانت عقلية المدير تصوّر له أن الأطفال مجهولي النسب، هم شياطين متخفية في ثوب أطفال، وأنهم عند منتصف الليل يتخلّون عن أرديتهم الطفولية، ويظهرون بوجههم الشيطاني الحقيقي، في شكل

محارب عملاق، لذلك كنت أنت في طفولتك تحت مراقبة مستمرة، من المربّيات ومراقبي الممرات ومدرّسي الفصول، رغم اسم موسى الذي حملته، منذ يوم تعميدك مسيحيًّا بطقس الماء المقدّس، على يد الأب موبلو».

بعد مرور كل هذه السنوات، عندما أتذكّر سابين لا أستطيع أبدًا أن أنسى، أنها تلك المرأة التي كانت تظهر دائمًا إلى جواري في الأوقات الصعبة، لتدافع عني كلما احتجت إليها، ربّما لأنها تشعر كأنها أم حقيقية لي، وأنها مسؤولة عن مصيري منذ لحظة عثورها عليَّ طفلًا رضيعًا. عندما أستعيد ذكرى مُرّةً هي أن المدير كان يضربني وأنا في سنّ العاشرة بسوط مصنوع من ألياف نباتية مبرومة على بعضها البعض، وكنت أصغر حجما منه بكثير، لكني كنت رغم ذلك أحاول أن أحمي جسدي بفرد ذراعيَّ، محاولًا الإمساك بالسوط، ولو فقط كعلامة تمرّد على المدير، وإعلان رفضي لهذا الأسلوب في العقاب، ظهرت سابين إلى جوار المدير بوجه غاضب، وهي تحاول أن تنتزع منه السوط. كان المدير يدينني دائمًا دون أي محاكمة حقيقية أو محاولة استقصاء، في كلّ مرّة سُرِقَت مخازن الطعام في المدرسة، أو تمّت مهاجمة الفتيات في عنابرهن أو في الفناء.

عندما كنت في العاشرة من العمر، كانت سابين في الأربعين، لكنها كانت بمثابة الأم أو الجدّة لجميع التلاميذ، وليس لي أنا وحدي فقط لا غير، ففي جميع حالات الظلم التي استخدم فيها المدير هذا السوط، لتوقيع عقاب بدني عنيف على الأطفال، كانت سابين تظهر

على الفور، بملامح وجه منقبضة متقلّصة يبدو عليها الألم، وهي تحاول انتزاع السوط من يد المدير. ارتبطت سابين في ذهن الأطفال الجمعي، بالصورة المعلّقة في كل بيوت الكونغو، للجدّة (نزينجا)، التي أنجبت عددًا كبيرًا من الأطفال، الذين أصبحوا لاحقًا ملوكًا مؤسّسين لمملكة الكونغو، في القرن الخامس عشر الميلادي، قبل العصر الاستعماري، بل حتى قبل بداية نظام الاستعباد والتجارة في العبيد. لهذا السبب اعتقد بعض الأطفال أن العمر الحقيقي لسابين ليس أربعين عامًا، بل هو أربعة أو خمسة قرون.

بمجرّد توقف المدير عن التعذيب، كانت تأخذ الطفل المجروح في حضنها، ثم تسحبه من يده إلى قاعة الاستحمام، لتنظّف له بيديها الدافئتين الجروح القطعية، التي كانت تحدث أحيانًا بسبب السوط، وتضع عليها الصبغة المطهّرة (الميكروكروم)، وتضمّدها له، ثم تضع دهانًا يخفّف الآلام على كل مواضع الزرقة في الجلد، التي تدلّ على وجود رضوض أو كدمات. هي تفعل كل هذا أثناء حديثها إلى الطفل بصوتها الحنون، في محاولة لإعادة الطمأنينة والإحساس بالحنان والتعاطف الإنساني إلى قلبه الصغير. كنت أدرك كم كنّا سعداء الحظ بوجود هذه الإنسانة في هذا البيت الآن، لتقوم برعايتنا نفسيًّا وجسديًّا بكل هذه المحبّة وكلّ هذا الحنان.

لكن فيما يتعلّق بسابين، لم يكن هذا المذكور أعلاه هو كلّ شيء، فمرّات عديدة قدّمت لي هدايا مفيدة، مثل القمصان والغيارات الداخلية، والكرّاسات والأقلام الملوّنة، والكتب المصوّرة للأطفال التي وجدت

فيها قصصًا، تحكي عن أميرة جميلة وأقزام سبعة، وعن أختين تعيشان في مزرعة، حيث الحيوانات يمكنها أن تتحدّث بلغة البشر، وتخطّط لمؤامرات ضد الأشرار من البشر. لا أحتفظ في ذاكرتي بهدايا قدّمها لي آخرون، فلم يكن هناك آخرون يقدّمون لي هدايا عدا سابين، هي وحدها التي كانت تهتم بفعل ذلك، رغم ضيق ذات اليدّ، مع ملاحظة أن اللائحة الداخلية لدار الأيتام، كانت تمنع موظّفي الدار من تقديم هدايا إلى أطفال الدار. كانت تلك اللائحة تقول إنه في حالة تقديم هدايا، فيجب أن تكون هناك هدايا لكل أطفال الدار دون أي استثناء، أو لا يتمّ تقديم أيّ هدايا على الإطلاق.

وفقًا للشائعات الرائجة في الدار، قيل إن سابين لديها حتى الآن، وضع متميّز داخل الدار، بسبب قيام علاقة خاصة جدًّا بينها وبين مدير الدار في السنوات الأولى لوصوله إلى الدار، عندما كانت سابين لا تزال في بداية عشريناتها. كانت نفس تلك الشائعات تقول إن المدير عطية الله، يحتّم في بعض الأحيان، على أمّهات الأطفال اللائي ترغبن في ترك أطفالهنّ في الدار، أن تمرّ الواحدة منهنّ أولًا على فراشه الموجود في مكان ملاصق لمكتبه، خاصة في حالة أن تكون الأم صغيرة وجميلة. وحتى بعد قبول الطفل في الدار، قد تضطر الأم إلى الاستمرار في العلاقة مع المدير، حتى يحصل طفلها دونًا عن غيره من الأطفال، على معاملة تفضيلية خاصة. كان المدير في مثل تلك الحالات، يغلق عليه باب مكتبه لمدّة ساعتين أو ثلاث ساعات، ومعه الأمّ الشابة الجميلة، مهما كان ضغط العمل يلزمه بالتواجد في الأماكن المشتركة، ثم تخرج الأم بشعر مشَعث، وقد بدا عليها الاضطراب، وارتدت ملابسها بشكل متسرّع كيفما اتفق.

لم أتمكن أبدًا من تخيّل صورة المدير وهو يرتعش بساقيه فوق جسد سابين. وبشكل عام كان من الصعب تخيّل المدير وهو يمارس هذا الفعل مع أي امرأة، بسبب بطنه الدهني الضخم الذي يتدلّى مغطّيًا منطقة أسفل البطن، وبسبب صحّته المتهالكة، فصوت تنفّسه المضطرب المتسارع، الذي يشبه صوت خوار ثور، كان يصل إلينا في عنابر نومنا، بمجرّد أن يضع قدمه في بداية الممر، بعد أن يكون قد صعد السلّم، من الطابق الأرضي إلى الطابق الأول. كنت متأكّدًا من أنه حتمًا سيموت قريبًا بأزمة قلبية أثناء وجوده فوق جسد إحدى الأمهات وهو يتلوّى مثل سمكة نهرية. ولقد احتفظت في قلبي بعتاب لسابين، لم أَبُحْ لها به أبدًا، وهو كيف أنها وافقت على الإتيان بهذا الفعل مع هذا الخنزير، مهما كانت نتائج الرفض؟ كيف استطاعت أن تقدّم اللذّة لهذا الخنزير الذي لم يقدّم لنا نحن الأطفال الأيتام معدومي الحيلة إلا الرعب؟ لم أجرؤْ أبدًا أن أطرح عليها هذه الأسئلة. كنت أخشى أن أحصل منها على ردود تزيد من تعاستي.

في المساء فردت فوق فراشي الستار المانع لدخول البعوض، وأخفيت رأسي داخل ملاءتي، وبدأت في تلاوة صلاة طويلة صامتة بيني وبين الربّ، وبدلًا من أن أشكره كالمعتاد على نعمه علينا، كنت أطالبه بأن يكون عقابه شديدًا على المدير عطية الله. من الغريب أنه اليوم التالي على اعترافات سابين لي اختفت حالة الحمّى، كأن هذا الاختفاء كان بفعل السحر. لم يعد المخاط يسدّ أنفي، وهكذا عدت إلى التنفّس الطبيعي من الأنف. إلا أن بعض الحبوب ظلّت في مكانها حول الفمّ؛

لذلك غسلتها قبل نومي بصابون مطهّر. انتظرت عودة سابين في الليلة التالية لكنها لم تظهر. ثم اعتقدت أنها ستختفي من حياتي إلى الأبد، ولن أعود أراها أبدًا بعد اليوم، وأن السبب في اعترافاتها أنها كانت تنوي الاختفاء تمامًا من حياتي، وأن هذا اللقاء الأخير بيننا كان لقاء الوداع. ثم سمعت أنها قد أُحيلت إلى التقاعد، رغم أنها كانت بالكاد في الثالثة والأربعين من العمر. ثم عندما سألت عن سبب إحالتها إلى التقاعد في هذا السنّ المبكّرة، قالوا لي: إن عمرها الحقيقي هو ثلاثة وستون عامًا، وليس ثلاثة وأربعين عامًا كما ادّعت.

* * *

(١٤)

لم يحدث أبدًا أن رأينا المدير، وعلى وجهه ملامح ذهول مثل تلك التي نراها الآن. كان يجري في الفناء مندفعًا، ليصطدم بالبستاني كوليلا.

قال: هل رأيتهم بنفسك هؤلاء الرجال؟

حرّك البستاني رأسه بعلامة النفي. استمرّ اندفاع المدير نحو الباب الرئيس، وقف ينظر حوله في كل الاتجاهات، كأنه ينتظر ظهور شخص مهمّ أو أشخاص مهمّين. ثم نفخ زفيرًا حارًّا من فمه قد يكون دليلًا على الارتياح.

قال: أعتقد أنهم لن يحضروا إلى هنا اليوم، فنحن الآن في منتصف النهار، وهم معتادون على المجيء في الفترة الصباحية.

كنا نعرف أن المدير لم يعد ينام أبدًا باستغراق، لا أثناء الليل، ولا أثناء النهار، أو ينام وإحدى عينيه مفتوحة. فقد حدث منذ بضعة أشهر أن جاء إلى دار الأيتام أربعة رجال يرتدون سترات سوداء، ويضعون أربطة عنق حمراء، وصلوا إلى الدار دون سابق إنذار، ودخلوا في حجرة المدير وأغلقوا بابها عليهم وهو معهم، ثم ارتفع صياحهم مما جعلنا نسمع المدير وهو يصرخ.

قال: أنتم لا تعرفون مَن أنا حتى تعاملوني بهذه الطريقة، أنا أحذّركم أنني قادر على رفتكم من وظائفكم، فانتبهوا جيدًا لما تقولونه.

عند رحيلهم قالوا للمدير إنهم سيعودون، لكنهم لم يحدّدوا موعد عودتهم، لذلك ينتظرهم في كلّ الأوقات. وبدلًا من البقاء في مكتبه، أصبح أغلب الوقت يقضيه في الفناء، حتى يتمكّن من الاختفاء منهم حين عودتهم. بل أعدّ إحدى حجرات المبنى الرئيس، التي لها مدخل على الفناء الخلفي، وتهبط نسبيًّا إلى تحت مستوى سطح الأرض، لتكون مخبأً له عند عودة رجال أربطة العنق الحمراء. إلا أنه توقّف بالتدريج عن الذهاب إلى مكتبه، وأصبح منذ لحظة استيقاظه إلى لحظة ذهابه إلى فراش النوم، مختبئًا في الحجرة تحت الأرض، بعد أن يتأكّد من غلق بابها ونافذتها. يبدو أنهم كانوا قادرين على توجيه الاتهامات إليه، وإلقاء القبض عليه. وكانت التعليمات المشدّدة إلى كل موظّفي الدار، هي إنكار وجود المدير في أي وقت يصل فيه هؤلاء الرجال، وادّعاء أنه في بوانت نوار لحضور مؤتمر حزب العمل الكونغولي.

لذلك بدأ هذا المدير يظهر لنا نحن التلاميذ، كما لو كان مهرِّجًا سخيفًا يدعو إلى السخرية. نحن لم نفهم أبدًا كيف أن هذا المدير -بكل ما له من سلطات إدارية وسياسية- يخشى من هؤلاء الرجال الأربعة! وتساءلنا مَن هم؟ وما سلطاتهم؟ ثم عندما قرّر ذات يوم الذهاب في الصباح إلى مكتبه، معتقدًا أن هؤلاء الذين أسماهم (الغزاة) قد تخلّوا عن مهمّتهم، فُوجئ بعودتهم في نفس اليوم إلى مكتبه، كأنهم كانوا

يختبئون في أحد المباني المحيطة بالدار، يراقبونه بمنظار مقرّب، أوكأن يكون هناك من بين موظّفيه أحد الخونة، على اتصال بالغزاة وأبلغهم وبوجوده في مكتبه.

وهكذا قرّر الناظر الدخول في مرحلة المواجهة المكشوفة، فجمع كل نزلاء الدار في الفناء، ووقف على المنصّة وخلفه وقف مساعدوه من موظّفين ومراقبي ممرات.

قال: سندفع هؤلاء الغزاة بعيدًا عن دارنا، هؤلاء الذين ما جاؤوا إلى الدار إلا للبحث عن القمل في شَعر رأسي. إن الأسلوب الوحيد المناسب معهم، هو أن نُسْمِع صوتنا لرئيس الجمهورية؛ لأنني متأكّد أنه ليس على علم بهذه المطاردة التي أقع أنا ضحيّة لها. سنقوم جميعًا أنا وأنتم بالإضراب عن الطعام، حتى يدرك وزير الأسرة والطفولة خطورة الموقف، ويطلب من هؤلاء الرجال التوقّف عن مطاردتي.

قبل تلك الخطبة القصيرة ببضعة أيام، كانت افتتاحية نشرة (يقظة القائد) بقلم المدير، قد هنّأت وزير الأسرة والطفولة على تعيينه مشرفين جددًا، على المؤسّسات العامة الحكومية، التي تتوجّه بخدماتها إلى صغار السنّ، جميعهم وليس فقط الأيتام منهم، وكان وصف المدير لشخصية وزير الأسرة والطفولة، قد جاء وبه قدر كبير من التقريظ الزائد عن الحدّ.

كتب: «عندما تخرّج هذا الوزير من الكلية القومية للإدارة، كان الأكثر لمعانًا في دفعته، لما يتميّز به من الذكاء والحكمة. إنه يجسّد يقظة الوطن، يجسّد الوجه الجديد للسياسة الجديدة، التي ينتهجها

وطننا، لتصبح كلّ المسائل محدّدة ودقيقة، بهدف وحيد هو خدمة الشعب. هذا الوزير كان معروفًا في أوروبا باسم المحارب الشجاع، إبّان فترة الصراع ضد الاستعمار، لاستبساله في الدفاع عن الوطن، وقد استمرّ معه هذه اللقب حتى العصر الحالي، الذي لا يزال وطننا يحارب فيه الاستعمار الإمبريالي الجديد، مع عملائه المتواطئين معه من الخونة المحلّيين. هذا الوزير هو الذي نجح في تحريك جموع الشباب، عندما جعلهم يدركون المخاطر التي يتعرّض لها وطننا العزيز. نحن نتمنّى له النجاح في مهمّاته الصعبة الجديدة، التي أوكلها إليه رئيس جمهوريتنا؛ لأن الاهتمام بالأسرة وبالطفولة، هو القاعدة التي توفّر الأساس الصلب، التي سيقوم عليها بناء مجتمعنا الجديد.

أما الكلام الذي جاء بعد ذلك، الذي حاول به المدير تبرير تصرّفاته المتعلّقة بطريقة إدارته لدار الأيتام، فقد جاء بنتيجة عكسية، إذ بدلًا من أن يكون هذا الكلام دفاعًا عنه، بدا واضحًا أنه يدين المدير، الذي حوّل دار الأيتام من مدرسة وملجأ، إلى سجن أو مؤسّسة عقابية أو إصلاحية أحداث، وأنه بسبب هذه السياسة في إدارة المؤسّسة كان المسؤولون يحوّلون إليه المراهقين الجانحين من أمثال التوأم سونجي سونجي وتلا تلا.

كانت تلك الخطبة العصماء التي دعانا فيها إلى الإضراب عن الطعام، لا تقلّ حماسة عن كل خطبه التقليدية، التي دعانا فيها مثلًا إلى اعتناق مبادئ الثورة الاشتراكية اللينينيّة، والى إلغاء حصص الدين، بل إلغاء الدين كلّه من حياتنا. إلا أن ملامح وجهه وجسده ظهر لنا فيها

ما يدلّ على أن المدير قد أصبح أقلّ حيوية من السابق، بل قد انكسر، حتى صوته كان مكسورًا، ونظرات عينيه تهرب من مواجهة نظرات أعين الآخرين. ومع ذلك فقد وجد الشجاعة والطاقة اللازمين لإطلاق الدعوة إلى الإضراب عن الطعام. هذه المرّة كان المدير يعرف أن الحكومة الجديدة بوزرائها الجدد، يتّبعون سياسة مختلفة عن سياسات الحكومات السابقة، ويقومون بتوبيخ ولفت نظر القيادات، التي كانت لديها عادات سيّئة في إدارة مؤسّساتها. لم يعد أحد يغضّ الطرف عن الفساد. بل إن الحكومة قد استحدثت وزارة أسمتها (وزارة مكافحة العادات القبائلية)، والمقصود بها عادات محاباة الأقارب في التوظيف، التي كان المدير هو أحد أسوأ نماذجها.

قال: «علينا أن نكون جميعًا متّحدين كرجل واحد».

ثم نظر إلى النساء الموظّفات الواقفات أمامه وسط جمهوره.

وقال: «أقصد أن نكون جميعًا متحدين كرجل واحد، وأن نكون متحدات كامرأة واحدة».

ثمّ في مواجهة ردود الأفعال غير المتحمّسة، بل حتى اللامبالية، للجمهور الواقف أمامه، حاول أن يلعب على الوتر، الذي ظنّ أنه أكثر حساسية عن غيره من الأوتار.

قال: «هل أنتم على دراية تامة بمدى خطورة الموقف الذي نواجهه؟ فأنا إذا لم أعد مديرًا لهذه الدار، فستعمّ الفوضى أرجاء المكان، بل إنها ستكون نهاية هذه المؤسّسة، وستفقدون أنتم أيضًا وظائفكم، وستجدون أنفسكم في الشوارع».

أحسست كأن جميع الموجودين في الفناء سيضحكون سخرية من مبالغات هذا المدير، بسبب كلامه هذا الذي لا معنى له، فلو أن الموظّفين فقدوا وظائفهم، ووجدوا أنفسهم في الشوارع، فهل سيجد الأطفال من نزلاء الدار هم أيضًا أنفسهم في الشوارع؟ في الحقيقة كان منظر هذا المدير وأسلوبه في الكلام يدعوان لا إلى السخرية منه، بل إلى الشفقة عليه. قلت في نفسي: «إذَنْ ها قد حانت ساعة حساب هذا المدير على كل الجرائم والموبقات التي ارتكبها، وإن العقاب السماوي الذي صلّيت مرارًا إلى الله أن يوقعه عليه، قد اقترب أوانه، وإن فرعون موسى سيسقط من فوق عرشه، بسبب ما عاناه شعب الله من يهود مصر من عذاب ومهانة على يديه». إن هذا الناظر الواقف أمامنا الآن، أصبح عاجزًا تمامًا عن علاج الموقف الذي يجد نفسه فيه، وهو موقف المتّهم الذي لا يجد ما يدافع به عن نفسه، الموقف الذي حتمًا سيكلّفه فقدان منصبه، بل فقدان تاريخه الوظيفي كله، وبدلًا من أن يقف على قدميه كرجل شجاع محارب، إذا به يركع على ركبتيه أمامنا، يطلب منّا أن نساعده، يطلب من ضحاياه أن يساعدوه، دون أيّ إحساس بالخزي والعار، بل دون أيّ إحساس بالحياء.

كان بونافنتورا واقفًا إلى جواري وسمعته يقول لي: «أنا متأكّد من أنهم سيقبضون عليه، ويضعون في يديه القيود، لم يعد الزمن الحالي يناسب شخصًا مثل الحرباء، يتغيّر لونه وفقًا للموقف الذي يجد نفسه فيه».

من تاريخ عطية الله، كنا نعرف أنه تخرّج من الكلية الوطنية للوظائف العامة، في العاصمة برازافيل، وأنه لم يتزوّج ولم يكن له

أبناء من علاقات بنساء دون زواج، وقد كرّر كثيرًا أن هذه المسائل تعوق الصعود في السلّم الوظيفي، والتقدّم في المناصب. كان انتماؤه إلى قبائل البيمبيه، هو كلمة السرّ التي سمحت له بالصعود في السلّم الوظيفي، وهكذا وجد نفسه في مكتب وزير الحكم المحلّي؛ لأن الوزير كان من قبائل البيمبيه، ثم انتقل إلى وظيفة نائب محافظ لمدينة (مويوندزي)، وهي التي تتركّز فيها الأغلبية البيمبيه، وكان محافظ تلك المدينة زميلًا قديمًا في الدراسة لرئيس الجمهورية.

لم يكن عطية الله راضيًا عن منصب نائب المحافظ، فهو لا يحبّ أن يكون الشخص الثاني في مكان ما، لذلك سعى حتى حصل على منصب محافظ مدينة أخرى هي (بوينزا) رغم أنها أصغر حجمًا من (مويوندِيزي)؛ لأن بوينزا هي مدينة مسقط رأسه وطفولته، ومن هناك بعد ثلاث سنوات، رشّح نفسه لعضوية مجلس النوّاب عنها، إلا أن شعب المدينة لم يعطه الأصوات المطلوبة، وهذا هو أول دليل على الفساد في تاريخه الوظيفي، فالحاسة الشعبية لا تُخطئ أبدًا. أو قد تكون الحقيقة هي فساد الإدارة الحكومية كلّها؛ لأن مَن نجحت في هذه الانتخابات وحصلت على عضوية مجلس النوّاب بدلًا منه هي ابنة أحد الأصدقاء المقرّبين لرئيس الجمهورية. ومن الغريب أنها لم تقم بأي دعاية انتخابية. ومن الأغرب أن اسمها لم يكون موجودًا في قائمة الأسماء عند بداية الحملات الانتخابية للمرشّحين المتنافسين على نفس المنصب، بل لم يظهر الاسم إلا قبل أربعٍ وعشرين ساعة من نهاية

العمليات الانتخابية، فكيف تمكّنت من الحصول على كل الأصوات التي جعلتها تكسب هذه الانتخابات؟

هنا أدرك عطية الله أنه يجب عليه أن يبحث عن وظيفة لا يتكالب عليها المرشّحون، لذلك قبل على الفور وظيفة مدير دار أيتام لوانجو، رغم أنه لا يحبّ الأطفال، بدليل أن هدفه الوحيد من عدم الزواج هو ألا يكون له أطفال. كانت الوظيفة التي تداعب خياله هي أن يكون مديرًا لميناء بوانت نوار (الرأس الأسود)، لكن الوزير المسؤول عن التعيينات في مثل هذه الوظائف الكبيرة، أفهمه أن هذا المنصب يتطلّب إمكانيات تفوق إمكانيّاته. كان منصب مدير دار الأيتام قد راق له، فور علمه بأنه في منصبه الجديد، سيكون قادرًا على أن يحدّد بنفسه مقدار الميزانية السنوية التي تلزمه، وبالتالي المرتّب الذي يرضيه، كما أنه سيختار بنفسه أفراد طاقم العمل المعاون له. في تلك الفترة الذهبية من تاريخه الوظيفي، لم يكن هناك أي إشراف من الدولة، على طريقة صرفه للميزانية التي يحصل عليها مباشرة من تبرّعات الأثرياء.

ما حدث فعلًا هو أنه استقلّ تمامًا في إدارة الدار، حتى أنه لم يحدث أبدًا طوال حوالي ثلاثين عامًا أن جاءه مسؤول حكومي واحد لمراجعته في مسائل إدارية أو مالية، وهو ما شجّعه عامًا بعد عام على المزيد من الفساد، وعلى ارتكاب كلّ الذنوب التي أتاح له منصبه أن يرتكبها. حتى قامت الثورة الاشتراكية.

ظهر هؤلاء الرجال الأربعة، بستراتهم السوداء وأربطة أعناقهم الحمراء، فأرّقوا نومه حتى أنه عمليًّا لم يعد ينام الليل إلا بنصف

دماغ، ليظلّ النصف الآخر متيقّظًا، وقد أدرك أن نهايته قد اقتربت. هبط عليه هؤلاء الرجال الأربعة الذين يصفهم بالدُّخلاء دون موعد مسبّق، ليظلّ أمامهم لساعات طويلة، يبحث عن إجابات عن أسئلتهم المحرجة، التي تكرّرت مرّات عديدة على ألسنتهم واحدًا واحدًا، كأنهم كانوا يبحثون عن أي تناقض قد يظهر بين الإجابات عن نفس السؤال، لعلّ زلّة لسان تؤدّي إلى إدانته. قاموا أمامه بفتح ملفّات الدار المحفوظة مغلقة منذ ثلاثين عامًا، في علب كرتونية مملوءة عن آخرها بالمستندات والوثائق. هذه هي ملفّاته القذرة. كأن مكتبه قد تحوّل إلى مقلب قمامة، فكلّما فتح الرجال الأربعة صندوقًا كرتونيًّا، تركوه مفتوحًا على أرض المكتب لتخرج منه كلّ أنواع الحشرات التي سكنت داخل تلك الصناديق. كانت تفوح داخل أجواء حجرة المكتب في نفس الوقت، روائح مختلطة من العفن والرطوبة والتبغ، دليلًا على انعدام التهوية وإهمال النظافة.

كان يجب عليه أن يشرح لهم الكثير من الأشياء، وأن يبرّر لهم العديد من تصرّفاته الغريبة. كانت أسئلة الرجال تدور حول موضوعات عديدة، فهي لم تكن تتوقّف عند موضوع بعينه، فهناك مثلًا أسئلة عن وقائع مسجّلة بخصوص اعتداءات جنسية ارتكبها مراقبو الممرّات على العديد من أطفال الدار التي سكت عنها تمامًا ولم يعاقب مرتكبيها مما جعلهم يستمرّون في ارتكابها. كيف يمكن مسامحة رجل على مثل هذه الفِعلة الدنيئة؟ كيف يمكن تركه مستمرًّا في وظيفته؟ إلا إذا كان هذا هو مقابل سكوت هؤلاء المراقبين على اغتصابه للعديد من أمّهات

نفس الأطفال؟ كان ردّ المدير على هذا السؤال مستفزًّا جدًّا، إذ قال: إن الاعتداءات الجنسية على الأطفال، تحدث في كل مكان في العالم طول الوقت، حتى في أوروبا وأمريكا، وهي أفعال عادية تمامًا لا يُعاقَب عليها مرتكبوها. قالوا له: إن مجرّد عقاب الطفل بضربه باليد على مؤخّرته، هو فعل جنسي يعاقب عليه القانون الأوروبي. لم يرد أن يصدّقهم، بل ردّ عليهم بالقول إنه هو نفسه قد تلقّى ضربات على مؤخّرته عندما كان طفلًا صغيرًا.

فإذا كان عطيّة الله قد راوغ كثيرًا في هذه المسألة الجنسية، ولم تهتم لجنة التحقيق تلك باستدعاء الأطفال المعتدى عليهم، فإنه لم يجد ردودًا بخصوص مسألة أخرى، هي طريقة صرفه لميزانية الدار، على مرتّبه البالغ الضخامة، وعلى مرتّبات محاسيبه من أولاد إخوته وأخواته ومن أفراد قبيلته، الذين عيّنهم كلّهم في وظائفهم بمعرفته هو وحده. سألوه مثلًا عن السبب في زيادات مرتّبه بنسبة ٥٠ ٪ كلّ سنة، في حين أن أحد قدامى موظّفيه الذي لم يكن يمتّ له بصلة قرابة، لم يحصل على أي زيادة في مرتّبه طوال عشرين عامًا؟ سألوه مثلًا عن السبب في أنه تخلّص مرارًا من موظّفات في الدار بعد بلوغهنّ سن الأربعين، وأنه استبدل بهنّ موظّفات صغيرات في سنّ العشرين دون أي إخطار مسبّق لهؤلاء السيّدات المرفوتات، ودون حصولهنّ حتى على أي مكافآت نهاية خدمة؟ إذا لم يكن هذا التصرّف المتكرّر من طرفه، هو لضمان حصوله الدائم على المزيد من الإشباع الجنسي على حساب موظّفاته؟ وقد ذكر هنا اسم سابين ضمن الأسماء المذكورة. هنا ردّ قائلًا: إن

عمليات الرفت والتعيين وفقًا للائحة الداخلية للدار، هي مسألة تتعلّق باختيارات المدير وحده، وهو لهذا السبب يطالبهم بعدم سؤاله عن عمليات الرفت والتعيين تلك.

ثم سألوه عن عدد أقاربه من بين العاملين في الدار. هنا استعمل ردًّا لا صلة له بالسؤال، إذ قال إنه عضو بارز في حزب العمل الاشتراكي القومي، معتقدًا أن هذه العضوية قد تعطيه قدرًا من الحصانة، فردّ عليه أحد الرجال الأربعة قائلًا: إن عضو هذا الحزب، يجب أن يكون قدوة أخلاقية لكلّ عمّال البلاد، وأن يضرب لهم المثل في الصدق والأمانة، لا أن يكون من بين المفسدين في البلاد. ثم في نهاية التحقيقات قال الرجال الأربعة: إن تقرير مصير عطية الله هو في يد وزير الأسرة والطفولة شخصيًّا، لكنهم سيبدأون من الآن، في اتخاذ إجراءات احترازية ضدّه، برفت أولاد إخوته من وظائفهم، وتعيين آخرين لا يمتّون إليه بأي صلة قرابة.

استمرّ إضراب الأطفال عن الطعام لمدّة يومين. في الحقيقة لم يكن هذا إضرابًا، بل كان حرمانًا للأطفال من طعامهم. لم ينقذنا من الجوع إلا شجاعة التوأم، اللذين تمكّنا بوسائلهما الخاصة من تهريب بعض المأكولات من قاعة الطعام إلى عنابر النوم. هل وصل خبر إضرابنا عن الطعام إلى رئيس الجمهورية؟ في اليوم الثالث عدنا جميعًا إلى تناول الطعام علنًا. بعد مرور أسبوع لم يكن الرجال الأربعة قد ظهروا من جديد في الدار. استأنف المدير مع أبناء إخوته إقامة التحصينات والاستحكامات العسكرية في فناء الدار، وأمام الحجرة تحت الأرضية

التي يهرب إليها المدير، وفي حجرات الطابق الأول حيث مكتب المدير. قال المدير إنه في حالة عودة الرجال الأربعة إلى الدار ستكون في انتظارهم مفاجأة. وهذه المفاجأة هي الأسلوب الوحيد، الذي قد يسمح بوصول أنباء هذا الصراع إلى رئيس الجمهورية، طالما أن أنباء الإضراب لم تكن قد وصلت إليه. وتساءلنا فيما بيننا ماذا ستكون هذه المفاجأة؟

* * *

(١٥)

كان العجوز كوكوبا يعاني من مشكلات صحّية خطيرة، ولم نعد نراه في الفناء الأمامي إلا نادرًا جدًّا، كانت لديه مشكلة ما في عمليّة التبوّل، إذ كثيرًا ما ينحبس البول، وعندما ينجح في إخراج بضع نقاط من البول، في دورة مياه العمّال، كان يصرخ من الألم، حتى تعتقد أن صوته هو صوت ثور يذبح. لذلك جاء لفحصه داخل الدار عدد من أطباء بوانت نوار، كانوا جميعًا يضعون عدسات سميكة على أعينهم، وليس لديهم أي شَعر في رؤوسهم. قيل لنا إن سُمْك العدسات وانعدام الشَّعر في الرأس يتناسب مع أهمية الطبيب، فكلما كانت لديه عدسات سميكة ولم يكن لديه شَعر في الرأس، كلما زادت أهميّته في مجال الخبرات الطبية. قيل لنا إن هذه هي القاعدة المعروفة في العالم أجمع، وليس فقط في بوانت نوار. رغم ذلك لم يستطع أيّ منهم أن ينهي عذاب كوكوبا. بل أعلنوا جميعًا أنه ليس هناك أيّ أمل في شفائه. قالوا إن السبب في عدم احتمال شفائه، ليس هو قوّة الميكروبات، بل السبب هو في ضعف المقاومة العامة للجسد، وتدهور الحالة الصحّية لهذا الشيخ المتهالك، وإن الرجال في سنّ الثانية والسبعين مثله، يجب ألَّا

يطمعوا في الحصول على علاج، بل عليهم أن يستعدّوا للرحيل إلى العالم الآخر.

كان بونافنتورا المنزعج دائمًا إلى حدّ الهلع، قد ذكر لي نبوءته عن المصير التعس لهذا العجوز.

قال: «أمس شاهدت غرابًا عجوزًا، يحطّ فوق سطح المبنى القديم الذي يقيم فيه العمّال، وقد ظلّ يوجّه إليَّ نظرات غريبة، حتى أنني كدت أن أسأله ماذا يريد منّي. لكنه لم يسمح لي بذلك، إذ بمجرّد أن نطقت بحرف واحد، عاد هو فورًا إلى الطيران. هل تعتقد أنت أن هذا هو شيء طبيعي؟ ماذا كان غرض الغراب من تصرّفه هذا، إلا أنه يريد إبلاغي برسالة مؤدّاها، أن العجوز كوكوبا قد أشرف على الهلاك؟ أؤكّد لك أن المسألة جدّ خطيرة».

نحن لم نكن نعرف كوكوبا معرفة شخصية. كنا نعتقد أنه قد ولد عجوزًا، ولم نستطع أبدًا أن نتخيّل أنه كان ذات يوم طفلًا مثلنا. لم نكن نتخيّل أنه قد مرّ في حياته بجميع مراحل العمر، لكننا كنا متأكّدين من اقتراب نهايته. هنا بدأ زملاؤه من حرّاس الدار، يحكون لنا عن ماضي حياته. لاحظت أنهم في حكاياتهم تلك تحدّثوا عنه باستعمال الزمن الماضي كأنه قد مات فعلًا. تحدّثوا عن مزاياه وعيوبه، فقرّظوا المزايا، وانتقدوا العيوب التي شابت سلوكه في بعض مواقف حياته الوظيفية. تحدّث عنه أحدهم ساخرًا بقوله: «عند موته سيحملونه إلى مشرحة مستشفى أدولف سيسي في بوانت نوار، فهو المكان الذي عمل به حارسا لمدّة عشرين عامًا، قبل مجيئه إلى دار الأيتام»، ثم أضاف شيئًا

لم أفهمه، عن طبع غريب فيه، إذ كان يوجّه أحاديثه إلى الموتى، مؤنّبًا إيّاهم على الملابسات التي سمحوا بها وأدّت إلى وفاتهم، كأن كلًّا منهم كان وحده مسؤولًا عن موته. كان يخرجهم من توابيتهم الخشبية حتى يتحدّث إليهم، ثم يعيدهم بعد ذلك إلى التوابيت. بل قال إنه أحيانًا كان يعتدي بالضرب على بعضهم عقابًا له على موته!

قال: «بعض هذه الجثث كان يرفض مغادرة الحياة، والذهاب إلى عالم الموتى، وذلك بقيامهم بتحريك بعض أطرافهم، وهي حركات يريدون بها أن يقولوا للأحياء: إنهم لا يزالون على قيد الحياة».

من الغريب أن بعض المدارس كانت تنظّم للتلاميذ رحلات إلى المستشفى لزيارة المشرحة، في الحقيقة أنا حتى الآن لست متأكّدًا من السبب في ذلك. كان المدرّسون الذين يقودون هؤلاء التلاميذ إلى هذه الرحلة، هم غالبًا من بين مدرّسي العلوم، خاصة مادة الأحياء. في تلك المناسبات السعيدة، كان يمكن لكوكوبا أن يعتبر نفسه أهم شخص في العالم. هو يستقبل الأطفال بابتسامة ماكرة على شفتيه، ويشير إلى الجثث التي يقوم بتجميلها، خلال تلك المرحلة المؤقّتة في حياة الجثث، بين وصولها إلى مشرحة المستشفى، وبين انتقالها الأخير إلى مقرّها النهائي في مدافن أطراف المدينة. ويقول: إن الغرض من التجميل هو أن يبدأ الميّت رحلته إلى العالم الآخر وهو في أبهى صورة.

كان يقول للتلاميذ بفخر شديد: «إن وصول الجثث إلى المشرحة لا يتوقّف ليلًا ونهارًا، فقد استقبلت هذا الصباح جثّتين منبعجتين بسبب موتهما في حادث سيّارة، وقع في ميدان ألبير موكيلا، كانت تنقصهما

بعض الأجزاء من الجسد، بحثت عنها في فناء المستشفى حتى وجدتها، هذا بسبب إهمال عمّال نقل الجثث. عرفت أن حادثة السيّارة قد وقعت، بسبب أن أحد الاثنين قاد السيّارة بطريقة مجنونة، قادتهما إلى القبر».

كان هذا هو أسلوبه في السخرية السوداء من الموت، الذي يحاول أن يجعله فكاهيًّا، ليضحك التلاميذ، في حين أن هؤلاء التلاميذ كانوا في منتهى الخوف من مجرّد الوجود في هذا المكان أمام هذه الجثث المتجمّدة. كانت هناك أقنعة تُوزَّع على التلاميذ لتكميم أفواههم وأنوفهم، لئلَّا يشموا الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث، فتتسرّب إلى شعبهم الهوائية. ثم يقوم كوكوبا بدور تمثيلي صغير أمام التلاميذ، عندما يأخذ جمجمة محلوقة متورّمة لإحدى الجثث، ثم يتحدّث معها قائلًا: «كن لطيفًا فلدينا هنا بعض الزائرين، وليس هناك ما يدعو إلى الخوف منهم، هم يريدون فقط معرفة ماذا نفعل هنا، ثم سيرحلون في سلام».

بعد ذلك يوجّه حديثه إلى التلاميذ بصوت منخفض حتى لا تسمعه الجثّة قائلًا: «إن تورّم جمجمته والجروح التي كانت فيها كان بسبب العراك مع أفراد من قبيلة خطيبته، لذلك عندما وصل إلى هنا شعرت بالشفقة عليه، وحاولت قدر استطاعتي إخفاء آثار الجروح».

يسكت قليلًا قبل أن يضيف: «هو يقول إنه يشعر بالبرد، لذلك يطلب مني أحيانًا رفع درجة حرارة المشرحة، وهو لا يعرف أن هذه الحرارة قد تؤدّي إلى التلف السريع للجثث».

ثم يقول: «أنا أحاول مواساته بإقناعه أنهم سيحسنون استقباله هناك في الأعالي لحظة وصوله إليها، لكن هذا لا يواسيه فهو غاضب دائمًا، يتقلّب في مكانه ويوجّه إليَّ والى زملائه ضربات بالقدمين».

ثم يضيف: «هو يقول إن هذا لم يكن هو الموعد المتفق عليه لرحيله، إذ لا تزال هناك الكثير من المسائل المعلّقة التي تنتظر تدخّله فيها، فهو مثلًا لم يسدّد بعد كلّ ديونه إلى المصارف، وهو لا يزال يدين لبعض الأشخاص ببعض الأموال. إن الموتى عادة يستعملون هذه الحيلة في محاولة لكسب الوقت، وفي إطالة فترة بقائهم في الدنيا. فإذا كنا سنصدّقهم لما مات أحد على الأرض. وأنا في مثل هذه الحالة ماذا سأفعل؟ لو لم يعد هناك موتى ماذا ستكون جدوى وجودي في الحياة؟ ثم إنه يطالبني بأن أسعى لإحضار خطيبته من باريس، وقد أجريت اتصالاتي، فعرفت أنها ستبقى هناك ستّة أشهر، لحضور دورة دراسية، وأنها أثناء وجودها في باريس قد تزوّجت هناك من أحد موظّفي سفارة الكونغو في باريس، وعلى ما يبدو فإن أحدهم قد أبلغه بالنبأ الحزين، وأن هذا هو السبب في الشجار بينه وبين أهل خطيبته السابقة، وقد ضربه أحدهم بمطرقة على رأسه، ففقد وعيه ثم مات بعد ساعة، وهي التي تسبّبت في هذا الورم في الجمجمة. هو يريدها أن تأتي من باريس لتحضر مراسم دفنه، لكني لا أعتقد أنها ستفعل ذلك، ولو حاولت مواجهته بالحقيقة سيزداد غضبه منها، وبالتالي سيستمر في أذيّة زملائه بضربات القدم، وهكذا ترون إلى أي مستنقع يقودني عملي هنا في هذه المشرحة. فأنا لا أعدّ فقط الجثث للدفن، بل أعدّ الموتى نفسيًّا

لتقبّل فكرة الموت، ولاستقبال الحياة في العالم الآخر. أنا مثلًا عندما أجد جثّة زوج خانته زوجته، أقول له إنه سيجد زوجة أفضل منها في السماوات، فيسألني إن كانت مؤخّرة زوجته السماوية ستكون في جمال مؤخّرة زوجته الأرضية؟ عند هذا الحدّ أعترف له بأنني لم أصعد إلى السماوات، لذلك لست متأكّدًا من مدى جمال مؤخّرات نساء العالم الآخر. عندما قلت له هذا، تمرّد عليَّ ورفض مغادرة الأرض إلا إذا رحلت معه زوجته الأرضية إلى العالم الآخر. أقول لكم إن مهنتي هذه ليست سهلة».

كان كوكوبا أثناء ذلك المونولوج الطويل، ينسى أن التلاميذ ليسوا في المشرحة للإنصات إلى مثل هذه الترهات، التي يعتقد أنها مسلّية، بل هم هنا لدراسة الجسم البشري على الطبيعة، مما قد يفيدهم في دراسة علم الأحياء.

الحقيقة هي أنه أثناء رواية هذه القصص، على لسان أحد الحرّاس من زملاء كوكوبا في دار الأيتام، أدهشني جدًّا أن هذا الزميل استطاع تقليد صوت وحركات كوكوبا إلى حدّ الإعجاز، حتى أن مَن لا يرى المشهد أمامه بل يسمعه فقط، قد يعتقد أن المتحدّث الحقيقي هو كوكوبا نفسه، وقد أخذ هذا الزميل كامل حرّيته في تقليد العجوز، ولم يضايقه التفاف العشرات من التلاميذ حوله، كأنه فنّان حكّاء بالفطرة، أو كأنه ممثل كبير يقوم بأداء دوره في إحدى المسرحيات أمام جمهوره المعتاد، ثم عندما تحدّث عن المدافن، تحوّل صوته إلى طبقة غليظة كأنه قادم من تحت الأرض.

كان من المحتمل للعجوز كوكوبا أن يظلّ في عمله في المشرحة، لكنه تسبّب في رفته من هناك، بسبب الطريقة التي تعامل بها مع جثّة أجمل فتاة في بوانت نوار، إذ إنها تقريبًا الفتاة الوحيدة التي نعرف أنها قد فقدت عذريتها بعد موتها، والسبب في هذا هو كوكوبا. إنها التلميذة ماندولا إلياس، التي كانت تستعد لدخول امتحان نهاية الدراسة في المدارس الثانوية في قسم العلوم البيولوجية، وكانت تلميذة متفوّقة والكلّ يتوقّع نجاحها بمجموع كبير يسمح بدخولها كلية الطب. كانت لديها درّاجة هوائية تستعملها في الذهاب إلى المدرسة والإياب من المدرسة، وذات يوم في ميدان باتريس لومومبا صدمتها سيّارة نقل تابعة لإحدى الشركات البحرية صدمة عنيفة، ففقدت حياتها على الفور. بعد نقلها إلى المشرحة، ذهب كوكوبا إلى محلات برينتانيا لشراء فستان أبيض، وزوج من الأحذية النسائية البيضاء، وبعض مستحضرات التجميل النسائية.

بمجرّد أن وضع يده على جسد ماندولا البارد، بدأ في التحدّث إليها كأنها تسمعه، قال لها: «ستكونين هذه الليلة أكثر جمالًا مما كنتِ عليه أثناء حياتكِ، وستحصلين على بشرة بيضاء اللون فقط من أجلي، وستشعر الفتيات الأخريات الموجودات معنا هنا في نفس المشرحة بالغيرة منكِ، لدرجة أنهنّ قد يحاولن إيذاءكِ، بخربشة وجهكِ أو جسدكِ هذا الجميل بأظافرهنّ، لذلك لن أتركِ إلا بعد أن أعثر لكِ على تابوت خشبي متين، وأغلقه عليكِ». وخلال تلك الفترة القصيرة التي أمضتها الفتاة في المشرحة، نسي كوكوبا كل مَن عداها من جثث

الآخرين والأخريات، ولم يعد ينشغل إلا بها. لقد تمادى كوكوبا تمامًا مع هذه الفتاة، حتى إنه أتي معها ببعض الأفعال والحركات غير المحترمة، التي لا تتفق أبدًا مع اللياقة والاحتشام، مما يجعلني مضطرًّا إلى اللجوء للصمت.

عندما حضرت أسرة الفتاة بعد يومين لاستلام الجثّة، كان كوكوبا ينوي أن يعطيهم جثّة فتاة أخرى؛ ليحتفظ بماندولا لفترة أطول، ويستمر في ممارسة أفعاله غير المحترمة معها، غير أن أحد أعمام الفتاة احتجّ قائلًا إن الجثّة ليست لابنة أخيه، في حين انحنى عمّ آخر على الجثّة الحقيقية للفتاة، وأخرج من جيبه منديلًا، أزاح به طبقة الطلاء الأبيض التي تغطّي الجثّة، ولاحظ وجود ندبة بين الحاجبين، كانت تميّز وجه ماندولا، فهي العلامة التي تضعها القبيلة على وجوه فتياتها، لسهولة تمييزهنّ في مثل تلك الحالات. صرخ العمّ صرخة عالية، جذبت انتباه جميع أفراد الأسرة المتواجدين في المشرحة، ففهم كوكوبا على الفور ما حدث، رغم انشغاله بالإعداد لتسليم جثّة الفتاة الأخرى، فجرى نحو حجرة جانبية أغلق بابها عليه؛ لأنه كان يمكن أن يفقد حياته، لو وضع الأعمام أيديهم عليه. صباح اليوم التالي شغل هذا الخبر جزءًا من الصفحة الأمامية لكلّ الجرائد المحلّية، بعناوين مثل (مغتصب الجثث يُقبض عليه متلبّسًا)، و(مغتصب الجثث يُحوِّل ضحاياه من اللون الأسود إلى اللون الأبيض)، و(مغتصب الجثث الذي يفضّل النساء الباردات المتجمّدات).

وحتى يهرب من الانتقام الشعبي، تنكّر كوكوبا في زيّ شحّاذ

متشرّد، وخرج من المدينة ماشيًا على قدميه، واستمر في المشي حوالي نصف نهار، حتى وصل إلى (لوانجو)، واتجه إلى دار الأيتام وطرق بابها، وكانت تلك الدار لا تزال في ذلك الوقت تحت إدارة الجمعية الدينية الأوروبية، وادّعى أنه عابر سبيل لا يملك من حطام الدنيا أي شيء، ولا حتى يملك أوراق إثبات شخصية، ويطلب منهم المأوى ولو لفترة قصيرة، وكان يبكي كطفل صغير، ففتحوا له بطيبة قلبهم الباب، وأدخلوه وأسكنوه الدار ووجدوا له عملًا بها. بدأ أولًا بستانيًّا، ثم بعد ذلك حارسًا على المخازن، ثم عندما حلّت الإدارة المحلية محلّ الإدارة الأجنبية حصل على وظيفة حارس بوّابات.

❊ ❊ ❊

(١٦)

همست في أذن بونافنتورا بأن يلحق بي في فناء الألعاب، حيث انتهت للتوّ مباراة كرة القدم بين فريقين من نزلاء الدار، وكان اللاعبون في سبيلهم إلى الانصراف، والشمس قد غابت.

هو: لماذا نختبئ في هذا الركن المظلم من الفناء، كأننا سنعدّ الخطّة التي سننفذ بها مؤامرة الهروب من الدار؟

فوجئت بسرعة بديهته التي أذهلتني.

أنا: أنت إذَنْ على علم بما سيحدث؟

هو: لا أعرف عمَّ تتحدّث؟ على علم بماذا بالضبط؟

أنا: عملية الهروب التي يعدّ لها التوأم هذا المساء، التي تحدّثت أنت عنها للتوّ.

هو: هذا خطير، بل إنه خطير جدًّا.

جحوظ عينيه دلّ على أنه لم يكن على علم بالخطّة، وأنه لا يسخر منّي، رغم أنه استطاع أن يخمّن احتمال حدوثها. كان التوأم قد أبلغاني

قبل ساعة، بخطّتهما للهروب من الدار إلى بوانت نوار هذا المساء، وطلبا مني الاشتراك معهما. رفضت في البداية قائلًا إنني لا أستطيع أن أقدم على هذه الفعلة، فإن هذه الدار هي بيتي الذي لا أعرف لي بيتًا غيره، حتى لو لم يعد لي فيها الأب والأم اللذان كانا لي، وأقصد الأب موبلو والأم سابين.

هما: إذَنْ فعمرك كلّه ستقضيه هنا؟ وإذا كنت تعتقد فعلًا أنك طفل استثنائي، فلماذا إذَنْ طوال كلّ تلك السنوات لم ينتهز الفرصة زوجان لا ينجبان، وجاءا لتبنّيك؟ من ناحية أخرى كم هو عدد الأطفال الذين حصلوا على مستقبل أفضل بتبنّي عائلات حقيقية لهم، بعد خروجهم من هذه الدار؟ عندما جئنا إلى هنا، كنتَ موجودًا قبلنا بسنوات عديدة، وخلال المزيد من السنوات أنت لم تتحرّك من هنا للذهاب إلى أي مكان، ونحن الآن نحاول أن نعطيك فرصة حقيقية للتغيير، وأنت مُصِرٌّ على الادّعاء بانتمائك إلى هذا المكان، ومُصِرٌّ على القول بأنك تحبّ أسيادك المشرفين على هذا المكان. في الحقيقة أنت تظنّ أننا نعدّ لك فخًّا. أليس كذلك؟

أنا: وإذا فشلت خطّتكما وتدخّل المدير؟

قاطعني أحدهما: إذا فشلت خطّتنا فسيكون ذلك بسببك أنت، فأنت الوحيد من بين كلّ النزلاء، الذي اقترحنا عليه أن يهرب معنا؛ لأننا نثق في ذكائك. فإذا كنا لا نزال هنا صباح الغد، أُقْسِم لك أننا سنقتلك على مرحلتين، سأقتلك أنا أولًا، ثم يقتلك أخي بعد ذلك.

كان الاثنان يقفان أمامي ويثبّتان أعينهما عليَّ، في انتظار ردّ فوري، وأنا لكسب المزيد من الوقت قلت: هل يستطيع بونافنتورا أن يأتي معنا هو الآخر؟

قال أحدهما: إن هذا السخيف لا يزال يتصرّف كما لو كان طفلًا، لذلك لا مجال لمجيئه معنا، فهو من النوع الذي يمكن أن يُفْشِل أي خطّة يشارك فيها.

هذا الرفض القاطع لمشاركة أعزّ أصدقائي، فتح أمامي بابًا لرفض الخطّة، قد أستطيع أن أخرج منه.

أنا: إذا لم يشاركنا بونافنتورا في خطّة الهروب، فلن أشارككما أنا فيها. إنه بالنسبة لي مثل أخّ توأم، إنه بالنسبة لي هو بالضبط ما يمثّله أحدكما للآخر. فالواحد منكما لا يستطيع أن يستغني عن الآخر.

هذه الحجّة كانت كافية لجعلهما يصمتان ويفكّران، نظر أحدهما إلى الآخر، وكأن كلًّا منهما يستطلع رأي الآخر، لمعرفة ماذا سيقولان.

قال أحدهما: يمكنه أن يأتي معنا، لكنه لو أفشى سرّنا فسنقتله، هو أولًا ثم أنت بعده. موعدنا عند منتصف الليل، خلف قاعة (الحركة القومية لقادة الثورة)، فإذا لم تكونا هناك في ذلك التوقيت سنرحل دونكما.

أنا: ومَن سيفتح لنا البوّابة المغلقة؟

أحدهما: إمّا أن تثق فينا وإمَّا أن لا تحضر عند منتصف الليل.

هنا أعود إلى لقائي مع بونافنتورا.

هو: إذا كان التوأم هما مَن سيهربان، فإننا بذلك سنتخلّص منهما، ونعود أنا وأنت إلى استنشاق هواء الحرية من جديد.

أنا: على ما يبدو أنك لم تفهمني تمامًا، فأنا أقول لك إننا سننتهز هذه الفرصة ونهرب معهما.

هو: لا تعتمد عليَّ فأنا غير مقتنع بتلك الفكرة المريبة الخاصة بالهرب، ولن أترك مكاني هنا.

أنا (وقد أعدت تقريبًا دون وعي استعمال نفس كلمات التوأم لي): إذَنْ أنت مستعد لقضاء بقية عمرك هنا في هذه الدار. فإذا كنت طفلًا استثنائيًّا لماذا لم يحدث طوال تلك السنوات أن جاء زوجان لا ينجبان وتبنّياك؟ هما يعطياننا فرصة أن نبدأ حياة جديدة في بوانت نوار، وأنت تفضّل أن تلعب دور العبد الذي يحبّ بيت أسياده. أو من المحتمل أنك تظنّ أن التوأم ينصبان لنا فخًّا. أليس كذلك؟

هو: على أي الأحوال لم تكن تلك هي خطّتي لمغادرة المكان.

أنا: وماذا إذَنْ كانت خطّتك؟

هو: أنت تعرف جيّدا أنني أنتظر هبوط طائرة قادمة للبحث عني أنا وحدي، ستهبط هنا أمام بوّابة الدار، واصطحابي فيها إلى مكان آخر أفضل بكثير من كل تلك الأماكن التي تتحدّث أنت عنها.

أنا: لا يوجد أي مهبط للطائرات في لوانجو، في حين أن مطار بوانت نوار به العديد من مهابط الطائرات، وسيكون لديك هناك كلّ أنواع الطائرات، التي يمكنك أن تختار من بينها الطائرة التي تروق لك، وتذهب بها إلى أي مكان تريده في العالم أجمع.

هو: هذا هو نوع الكلام الخلّاب المخادع، لا تحاول تشويش تفكيري فأنا لن أذهب معكم. أما أنت فيمكنك الذهاب معهما لو أردت، وأنا أعدك أنني سأغلق فمي تمامًا، ولن أذكر أي شيء لأي شخص.

أنا: بصراحة يبدو أنهما على حقّ، عندما قالا إنك لا تزال تتصرّف بسذاجة مثل الأطفال.

هو: لن أنفعل عليك بأي شكل، بل ولن أفرد جسمي على الأرض حتى تضربني كما اعتدت أن أفعل، لقد انتهت صداقتنا، وأتمنى لكم حظًّا سعيدًا.

بقيت هناك في الركن المظلم من فناء الألعاب، أفكّر في احتمال ولو ١٪، أن تكون خطّة التوأم فعلًا خدعة أو مكيدة من الخدع والمكائد التي اعتادا على ترتيبها، ويقصدان بها الإساءة إلى سمعتي عند الناظر، الذي كان في تلك المرحلة الحرجة من حياته، مستعدًّا في مقابل استعادة ثقة المسؤولين فيه، أن يضحّي بي قائلًا للمسؤولين في الحزب، إنني رغم صغر سنّي، أصبحت من بين العملاء المحليّين المتواطئين مع الاستعمار الحديث والإمبريالية العالمية، هذا قد يخفّف عليه ضغط المفتشين الأربعة، ذوي أربطة العنق الحمراء، الذين يصفهم بالدخلاء. وهكذا يمكنهم إرسالي مباشرة إلى سجن (بولوكو)، الذي قيل لنا إنه مخصّص للمراهقين المعاندين العصاة، الذين يحرّضون زملاءهم على العصيان.

لم يعد متبقيًا أمامي إلا بضع ساعات، يجب خلالها أن أتخذ القرار، إما بالبقاء إلى جوار أعزّ أصدقائي، وإمَّا بمشاركة التوأم في خطّة الهروب. قبل ربع ساعة من منتصف الليل، تغلّبت على ثقل

الندم على فراق صديقي بونافنتورا، وخرجت من فراشي، وألقيت نظرة أخيرة على صديقي في الفراش المجاور، الذي كان يغطّ في نومه ويصدر شخيرًا عاليًا. خرجت إلى الممر، ومنه إلى فناء الألعاب حيث موعدي مع التوأم. مشينا أحدنا خلف الآخر، في الظلام الحالك السواد، ومعنا في المقدّمة الحارس، الذي لا أعرف كيف أقنعاه بأن يستعمل مفتاحه في فتح البوّابة لنا. هل كان السبب هو بداية ملامح الانهيار التام في الدار؟ ونحن إذَنْ في هذه الحالة مثل الجرذان التي تهرب من سفينة مصيرها الغرق. أو مثل حيوانات تهرب من غابة تحترق. هل هو يثق في التوأم إلى هذه الدرجة ويعتقد أنهما لاحقًا قد يستطيعان مساعدته؟

منعني التوأم بحزم شديد من فتح فمي، إذ ليس من الممكن أن يصدر عنا أي صوت، مهما كان ضعيفًا. لهذا السبب خلعنا أحذيتنا، ومشينا حفاة على أطراف أصابعنا، حتى لا نوقظ أحد. لا الناظر ولا المراقبون، الذي كانوا جميعًا يشعرون ببوادر انهيار مملكتهم، ولذلك كانوا مستعدّين لارتكاب الجرائم في سبيل الحفاظ على المملكة. عندما وصلنا إلى باب الخروج فتحه لنا الحارس، وعبرت مع التوأم منه إلى خارج الدار، لأول مرة في حياتي! في اللحظة التي بدأنا فيها نتنفّس هواء الحرية، لمحت ثلاثة من حرّاس الدار، وقد وقفوا في منتصف الشارع، وفي يد كلٍّ منهم هراوة غليظة، فسقط قلبي في قدمي.

على الفور قال لي أحد التوأم: لا تخف إنهم معنا، فهم أيضًا يهربون هذه الليلة من الدار، بعد أن فاض بهم الكيل من عطية الله، الذي يقدّم كلّ المزايا لأولاد إخوته، وهم لا يحصلون منه على أي شيء.

استدرت لألقي نظرة أخيرة على هذا المبنى، الذي قضيت فيها ثلاثة عشر عامًا، أي عمري كله حتى تلك اللحظة. بدت لي مصابيح إضاءة ممرات عنابر النوم شاحبة، وهي التي تترك مضاءة طوال الليل. في إحدى نوافذ عنبرنا، لمحت خيالًا آدميًّا تأكّدت أنه بونافنتورا. سار التوأم بخطوات عسكرية واسعة، حتى أنني وجدت صعوبة في ملاحقتهما، كانا صامتين تمامًا، فحاولت كسر هذا الصمت.

أنا: لم أفهم بعد لماذا فتح لنا هذا الحارس البوّابة؟

أحد التوأم: قد لا تصدّق ما سأحكيه لك الآن، فالقصّة لها علاقة بالعجوز كوكوبا، ومعاناته من صعوبة التبوّل ومن التهاب قنواته البولية. وقد حدث أول أمس أن تشجّعنا أنا وأخي، وذهبنا إلى ذلك الحارس المدعو فيمبا، الذي فتح لنا البوّابة، وهو أكثر الحرّاس تعاطفًا مع العجوز كوكوبا، وقلنا له إن لدينا العلاج اللازم للعجوز، الذي سيضع حدًّا لمعاناته. فسألنا كيف سنفعل هذا في الوقت الذي فشل فيه الأطباء، فأخبرناه بأن لدينا قدرات سحرية، فلو وضعنا أنا وأخي أيادينا الأربع في نفس الوقت على جهازه البولي، سيُشفى على الفور، وسيتبخّر مرضه ويختفي في الهواء كالدخّان، كأنه لم يكن. في البداية لم يوافق العجوز لأنه لم يكن يصدّقنا، إلا أن فيمبا أقنعه أنه لن يخسر شيئًا بالمحاولة. كان الاعتقاد السائد في البلاد، أن التوائم لديهم قدرات سحرية، تتفوّق على قدرات غيرهم من البشر؛ لأنهما يمثّلان معًا قوى الإنسان العادي مضاعفة مرتين.

قال العجوز: إذا كان هذان الساحران الصغيران يخدعانني، فإنني

سأنتقم منهما حال لقائنا في الجحيم، وسأجعلهما يتعذّبان في لهيب نار ليس لها مثيل.

عندما ذهبنا إلى الجزء المخصّص لسكن الحرّاس، بدا لنا كوكوبا كأنه قد مات فعلًا، إذ لم تكن هناك أي حركة في أي جزء من جسمه كله، فتدخّل فيمبا وأنزل سروال العجوز، الذي بسبب هذه الحركة استيقظ على الفور، وأمرنا بلهجة حادة أن نغلق أعيننا أثناء تطبيق العلاج. وضعنا أيدينا أنا وأخي على عضوه الجنسي، الذي بدأ في الانتصاب حتى وقف في وضع رأسي، كأن صاحبه لا يزال في سنّ العشرين، لا في سنّ الثانية والسبعين. طلب منا أن نتراجع بسبب أن لديه رغبة ملحّة في التبوّل، وكان لديه جردل إلى جوار الفراش تبوّل فيه. في البداية صرخ من الألم، ثم بعد ذلك استمرّ في إخراج كمّية كبيرة من البول الغزير، ثم استدار نحونا بفرح قائلًا إنه استعاد قدرته على التبوّل بشكل طبيعي. جاء نحونا يريد أن يضمّنا إلى صدره، لكنه لاحظ أن سرواله قد سقط منه، وأنه لا يصح أن يحضن شابين صغيرين وهو على هذا الوضع، وعضوه لا يزال منتفخًا، فمَن يرى هذا المنظر قد يظنّ بنا الظنون. ولهذا اتفقنا مع فيمبا على أن علاج العجوز سيكون في مقابل أن يفتح لنا البوّابة. هذا هو كلّ ما في الموضوع.

قلت في نفسي، إنهما بنجاحهما في علاج العجوز، قد كفّرا ولو جزئيًّا عن ذنبهما السابق في فقء عين أحد الصبية.

الفصل الثاني

بوانت نوار

(١)

كنا قد بدأنا بالنوم في السوق الكبير لبوانت نوار، مع مراهقين آخرين وجدناهم في المكان، وكان كلٌّ منا ينام فوق إحدى مناضد عرض البضائع، ويتعامل مع منضدته كأنها ملكية خاصة له، مع ملاحظة أنه كان علينا إخلاء تلك المناضد قبل الساعة الخامسة صباحًا، وهي الساعة التي كان التجّار أصحاب تلك المناضد يصلون فيها إلى السوق، مع بضائعهم المحمّلة فوق عربات شحن متفاوتة الأحجام، كانت كلها تعاني من عيوب في مواسير صرف عوادمها، وبالتالي كانت تحدث ضوضاء عظيمة، مثل فرقعة صواريخ الألعاب النارية في سماء المدينة، في ليالي الاحتفالات القومية والأعياد الدينية، وتساهم في سرعة إيقاظنا. لم يكن التجّار يقولون شيئًا طالما أننا أخلينا المناضد في الساعة المحدّدة.

أما أولئك الذين كنا نخشاهم أكثر من غيرهم، فهم التجّار من بائعي الأسماك والخضراوات، الذين كانوا يأتون إلى السوق في عطلات نهاية الأسبوع في الساعة الثانية صباحًا. كانوا يأتون في هذه الساعة المبكّرة ويتوقّعون منا أن نخلي مناضدهم. كان الواحد منهم يقف على بعد بضعة أمتار من منضدته، ولا يقول أي شيء، بل ينظر إلى الصبيّ النائم عليها. عندما شاهدت هذا المنظر لأول مرة، أحسست برجفة خوف في جسدي؛ لأن الشائعات كانت تقول إنهم ليسوا في الحقيقة باعة أسماك وخضراوات، بل إن تجارتهم هذه ما هي إلا غطاء لعملهم الحقيقي كسحرة موسميين. إذ كان السوق الكبير في عطلة نهاية الأسبوع -خاصة في شهور الشتاء- يستقبل عددًا كبيرًا من الباحثين عن السحرة لعلاج أمراضهم المزمنة. وهكذا أصبح السوق الكبير مشهورًا كمكان تلتقي فيه كلّ الأرواح الشرّيرة التي تسكن بوانت نوار.

كان هؤلاء السحرة، أو فلنقل هؤلاء الوسطاء الروحيون، يقايضون الأرواح الشرّيرة على الخروج من أجساد مَن تلبّسوهم، مقابل حصول الروح على خدمة ما، مثل أن يقبل الوسيط أن يجعلها تذهب للسكن في جسد آخر. كانوا يستعملون لفظ (تأكل) جسدًا آخر، بدلًا من لفظ (تسكن) في جسد آخر. وكانت قمّة هذه الممارسات الاحتفالية، تتوافق مع أعياد رأس السنة والاحتفال بالعام الجديد، أي خلال الأسبوع الأخير من ديسمبر والأسبوع الأول من يناير. وكانت الممارسات التي شاهدتها بنفسي في تلك المناسبات، قد جعلتني أظنّ أن قدرة الوسيط الحقيقية، هي في خداع الروح الشريرة بجعلها تأكل الأسماك والخضراوات بدلًا من أن تأكل جسد إنسان.

رغم النوايا الحسنة، فإن هؤلاء الوسطاء كانوا قادرين فعلًا -ببعض الممارسات السحرية عن بُعْد- على التأثير في أجساد الملبوسين (المأكولين)، الذين كان أهلهم يبدأون في ملاحظة التغييرات الجسدية التي تحدث لهم، مما يؤدّي غالبًا إلى التدهور السريع في الصحّة، خلال أيام قصيرة، بل غالبًا يموتون، دون أن يفهم المحيطون بهم السبب، رغم محاولات إسعافهم باللجوء إلى أفضل الأطبّاء الغربيين في المدينة، ثم باللجوء إلى المعالجين الشعبيين، الذين يفشلون جميعًا ويقفون عاجزين أمام هذه الظاهرة. هل تصبح الأرواح الشرّيرة في لحظة ما خارج نطاق سيطرة الجميع؟ هل السبب أن تلك الأرواح لديها قوّة تفوق قوّة أي كائن بشري؟ هنا اكتشفت وجود نوع من السحرة لم أكن أعلم من قبل بوجوده، يسمّونهم سحرة الأصنام، الذين يستخدمون نماذج من تماثيل صغيرة لآلهة قديمة أو تمائم، هم وحدهم القادرون على فهم حقيقة ما يحدث، ورؤية الروح الشرّيرة بالعين الثالثة التي لهم في منتصف جباههم، فيبدأون في التفاوض مع الروح لمعرفة طلباتها.

إذَنْ كان باعة الأسماك والخضراوات المزيّفون هؤلاء -الذين هم في حقيقتهم وسطاء روحيون- يتضايقون جدًّا عند وصولهم في الساعة الثانية صباحًا، واكتشافهم أننا لا نزال ننام فوق أسطح مناضدهم. الحقيقة هي أننا غالبًا كنا ننام نومًا عميقًا، رغم كل تلك الملابسات الصعبة، وكنا نشعر في نهاية النهار بالإرهاق الشديد، بسبب دورانا المستمر طوال النهار من أجل الحصول على لقمة خبز بأي وسيلة ممكنة. هكذا كنا إذَنْ في تلك الليالي، نبدأ تسكّعنا اليومي مبكّرًا جدًّا. كيف كنا نحصل على

لقمة خبز؟ كنا في الغالب نخطف طعامنا من على الأرصفة، ونجري بأسرع ما فينا من قوّة حتى لا نقع في يد مَن نخطف منه بضاعته. لذلك كنا نختار أن نخطف شرائح اللحم التي تشويها بعض السيّدات العجائز على أرصفة الشوارع الكبرى، حيث يكون الزحام شديدًا، وحيث يخشى الناس أن نصطدم بهم فيوسّعون لنا الطريق.

وكنا أحيانًا نخطف بعض الأجهزة المنزلية الخفيفة، المعروضة على الأرصفة أمام أبواب المحلّات التي تبيعها، التي يديرها غالبًا المغاربة أو اللبنانيون، وتقع في شارع الاستقلال، ثم نختفي بها بعض الوقت حتى يهبط الليل، فنذهب بها إلى الحانات، في محاولة بيعها بأفضل سعر ممكن، فزبائن الحانات يعرفون أنها بضائع مسروقة. وقد يحدث أحيانًا أن نتعارك بالأيدي والأرجل مع صبية آخرين يتنافسون معنا، ويحاولون بيع نفس البضائع في نفس الحانات وفي نفس الوقت. كانوا يكرهوننا جدًّا ويلقّبوننا بالدخلاء، بل ويطالبوننا بترك مدينتهم بوانت نوار والعودة إلى مدينتنا لوانجو. وقد انقلبت هذه المشاجرات اليدوية في بعض الأحيان إلى معارك بدنية عنيفة أُسيلت فيها الدماء. لكن كان هناك شبه اتفاق مبدئي على عدم استعمال الأسلحة البيضاء. ثمّ تغيّر هذا الوضع.

فإذا كان التوأم قد استطاعا فرض وجودهما ووجودي معهما على الآخرين الموجودين هناك في السوق الكبير قبلنا بسنوات عديدة؛ فذلك لأن أغلب هؤلاء الآخرين، كانوا من بين زملائهما القدامى في ملجأ بوانت نوار، قبل انتقالهما إلى ملجأ لوانجو. وقد شاعت بين

الجميع حكاية أن التوأم قد انتقما ذات يوم من أحد الزملاء بفقء عينه، وهم كانوا يخافون على أعينهم، فتجد الواحد منهم عندما يتحدّث إلى أحد التوأم، تكون إحدى ذراعيه في وضع الاستعداد، لحماية عينيه من أي اعتداء محتمل من طرف التوأم. إلا أن الحكاية التي كان لها أكبر الأثر، في المكانة التي وصل إليها التوأم كقائدَيْن للمتشرّدين في السوق الكبير، فهي حكاية تصدّيهما الشجاع لمَن كان يُرهب الجميع، ويلقّب نفسه باسم (روبين المرعب).

كان هذا الرجل الشاب في منتصف عشرينياته، يتحكّم في كلّ شيء في السوق الكبير، قبل وصول التوأم إليه، ويترأّس العصابة الأكثر تنظيمًا في بوانت نوار كلها، التي كان يخشاها الجميع. لم تكن المواجهة المتوقّعة بين القوّة الجديدة والقوّة القديمة قد طال انتظارها، بل إنها حدثت بعد وقت قصير من وصولنا، عندما علم روبين المرعب بنبأ ظهور التوأم في السوق، وكان قد سمع بإنجازاتهما، وعرف أنهما يحاولان فرض سيطرتهما على الجميع، وأن يشغلا المكانة التي يشغلها هو، وأن يعلنا عن أنفسهما كسيّدين جديدين، للمنطقة التي كانت حتى تلك اللحظة تابعة له هو وحده، مما سيقلّل حتمًا من هيبته في السوق. لذلك حدث أن اندفع روبين، ومعه عشرة من أتباعه الأشدّاء، نحو السوق حتى وقفوا أمام باب مطعم (جاسبار)، أحد أفخر المطاعم في المنطقة، حيث يتجمّع المتشرّدون في توقيت وجبة الغذاء، على أمل الحصول على بعض قطع العُمْلة المعدنية من زبائن المطعم من أثرياء المدينة عند خروجهم، أو الحصول على بقايا الطعام، التي تركها

الأثرياء في أطباقهم، وقد اعتاد المطعم على تقديمها للمتشرّدين حتى يتقّي أصحاب المطعم شرّهم.

كانت عصابتنا هي الأخرى تتكوّن من عشرة متشرّدين، إلا أنهم كانوا بشكل عام أضعف جسمانيًّا بكثير من أتباع روبين، بل كانوا في الأغلب جبناء، لا يجرؤون على خوض غمار مثل تلك المواجهات الشرسة. بمجرّد مشاهدتي لوصول أفراد عصابة روبين أمام المطعم، بدأت ركبتاي وساقاي في الارتعاش، لكني حاولت أمام التوأم، أن أجبر نفسي على التظاهر، بأنني قادر على التماسك وعلى التحكّم في أعصابي وعضلاتي. لكنني في الحقيقة كنت أنظر هلعًا، إلى ذلك العملاق مفتول العضلات شديد السواد، الذي يحمل لقب المرعب عن جدارة، ماذا سيفعل التوأم معه؟ وكيف سيتصرّفان في هذه الورطة؟ من مشاهدة عضلاته يمكن تخمين أنه كان يعمل في صيد السمك، مع بحّارة جمهورية (بنين)، الدولة الجارة لدولتنا، الذين كانوا مضطرّين إلى التعامل مع شباك صيد السمك، التي تزن أحيانًا مئات الكيلوجرامات، بالجذب والحمل فوق الأكتاف، مما يجعلهم يحصلون على مثل تلك العضلات المفتولة بعد بضعة مواسم صيد. كان صبية السوق يتحاكون فيما بينهم عن القوّة الأسطورية لعضلاته، ويضربون الأمثلة التي شاهدوها بأعينهم على ذلك.

غالبًا سيكون هو مَن أطلق على نفسه لقب (روبين المرعب)، وسيكون اسمه الحقيقي بعيدًا كلّ البعد عن اسم (روبين)، وغالبًا سيكون الإلهام الذي جاءه بهذا الاسم، بعد أن قرأ أو سمع عن أسطورة

(روبين هود) البريطاني، البطل الشعبي الأسطوري في تاريخ الفولكلور البريطاني من القرون الوسطى، المشهور بأنه كان يسرق من الأغنياء ويعطي للفقراء. إلا أن روبين الكونغولي (أو البينيني) لم يكن يعطي أي شيء للفقراء، بل إنهم كانوا أحيانًا من بين ضحاياه. قيل في هذا الصدد، إن روبين المرعب أثناء تلمذته في المرحلة الابتدائية، في ليسيه (سان جان بوسكو)، كان قد دخل مكتبة المدرسة ذات مرّة، فوقع في يده الكتاب الملوّن عن أسطورة (روبين هود)، الذي جعله يتساءل لماذا حصل (جان) صديق روبين هود، على لقب (جان الصغير)، رغم أنه أكبر أعضاء عصابة روبين هود حجمًا؟ ثم عندما استأنف القراءة عرف أن جان هذا كان هو الرئيس الأصلي للعصابة قبل أن يحلّ محلّه روبين هود بموافقته ورضاه التام، رغم أن المعتاد في مثل هذه الحالات أن يقع صراع على السلطة، كما يحدث عندما يحلّ ديك غريب في حظيرة دواجن، فيدور بينه وبين الديك القديم صراع على السلطة حول من منهما سيصيح فجر اليوم التالي.

تقول الأسطورة: إن روبين وجان كانا قد اكتفيا بمعركة رمزية باستعمال العصيّ، عندما أدركا أنه يمكنهما أن يتعاونا معًا لتحقيق نفس الأغراض، على أن تكون القرارات صادرة عنهما معًا. وهكذا أصبحا صديقين حميمين. كان هذا هو أول درس تعلّمه الصغير، سيكون مفيدًا له في مستقبله الإجرامي، وهو درس يتعلّق بضرورة عقد اتفاقيات دفاع مشترك، في بعض الأحيان، مع بعض الخصوم من زعماء العصابات الأخرى، فمسألة الزعامة لا تتوقّف فقط على الصوت المرتفع

والعضلات البارزة، بل هي في الأساس تتوقّف على الحكمة في اتخاذ القرارات. وهكذا حدث في بداية مراهقة الصبي المرعب، أن قرّر ترك المدرسة، وترك منزل العائلة الذي كان يعيش فيه مع والديه وإخوته، وينزل إلى شوارع بوانت نوار، ليبدأ في صنع أسطورته الشخصية كروبين هود كونغولي.

بدأ أولًا بالذهاب للإقامة في غابة صغيرة، تقع في امتداد حيّ (كومابون)، تتكوّن من بضع عشرات من أشجار أحراش المناطق الاستوائية الحارة، مثل أشجار الكافور (يوكاليبتوس)، وكذلك أشجار المانجو، التي زرعها شخص مجهول، لكن ثمارها كانت لجميع الجائعين. في تلك البداية المتواضعة، لم يكن قادرًا على إقناع الصبية الآخرين بالانضمام إلى عصابته، من مقرّه ذلك في الغابة. لهذا قرّر ترك تلك الغابة العُشْبية، للذهاب إلى غابة أخرى بشرية غير أخلاقية، حيث يأكل الكبار لحوم الصغار، ويستمرئون طعمها في شوارع بوانت نوار. عندما نزل لأول مرّة إلى تلك الشوارع، كان قد وجد لنفسه فعلًا زيًّا فريدًا لم يضعه أحد على جسده من قبل، يبدو قريب الشبه من أزياء القرون الوسطى في أوروبا، وكان قد سرق تلك الثياب الأوروبية، المعطف الطويل والسروال الواسع، من سوق الملابس المستعملة المستوردة من أوروبا، في حاويات تصل إلى بوانت نوار عن طريق المحيط الأطلنطي. هذا بالإضافة إلى قوس خشبي أمسك به في يده، أو علّقه على ظهره، دون أن يحمل معه سهمًا واحدًا يمكن أن يُطلقه باستعمال القوس.

هذا بالإضافة إلى غطاء رأس فريد في نوعه، خاطه له أحد خيّاطي

السوق القادمين من جمهورية (مالي)، وهو غطاء رأس يغطيّ جميع الرأس من قمّتها إلى ظهر العنق، وينسدل على جانبي الرأس ليغطّي الأذنين، وهو بهذا يصبح قريب الشبه جدًّا من غطاء الرأس الذي كان روبين هود يستعمله في إنجلترا؛ لتدفئة رأسه في أجواء بلاده الباردة، لكن هذا الغطاء لم يكن يناسب الأجواء الاستوائية الحارة. إلا أن فرادة غطاء الرأس هذا، كانت السبب في شعور جميع الآخرين نحوه بالغيرة، فكانوا يسألونه من أين أتى به؟ فلا يخبرهم بشأن دكّان الترزي المالي الموجود في السوق. بعد ذلك عثر على شخص متخصّص في صناعة الأسهم الخشبية ذات الرؤوس المعدنية الدقيقة المدبّبة. وهكذا استكمل عدّته، وأصبح فعلًا قريب الشبه قدر الاستطاعة من روبين هود الأصلي، واستحق لقبه روبين الكونغولي، الذي لم يكن الناس قد أدركوا بعد كونه مرعبًا.

ورغم أن هذا السلاح هو أكثر الأسلحة بدائية، إذ يُعتقد أنه أول سلاح استعمله الإنسان في صيد الحيوانات، إلا أن روبين الكونغولي تعامل مع هذا السلاح بمنتهى الجدّية، وكان يذهب به وحده إلى الغابات، ليتمرّن هناك على دقّة التصويب وإصابة الهدف، وحسن تقدير المسافات، وقوّة جذب وتر القوس في كل حالة. في البداية سخر الجميع منه ومن زيّه التنكّري ومن سلاحه البدائي، وكانوا عندما يرونه ينحنون أمامه بطريقة مبلغ فيها، كما لو كانوا يمثّلون أدوارًا في مسرحية تاريخية. إلا أن مغامراته الغرائبية صنعت له شهرة عريضة، حتى أن أخباره كانت تأتي في الصحف والمجلّات واسعة الانتشار. خلال فترة

ما من بداية عشرينياته، اختفى من السوق الكبير، وقيل إنه مارس مهنة صيد السمك مع مواطنيه في جمهورية بنين، ثم فجأةً عاد إلى الظهور من جديد، ولم يكن الناس قد نسوه، وعاد أفراد عصابته إلى الانضمام إليه. ثم جاء التوأم لينافساه في شعبيّته الكبيرة، فكان عليه مواجهتهما.

لم يكن روبين غبيًّا، لكنه كان يصدّق المعتقدات السائدة في المجتمعات الأفريقية، من أن التوائم يتمتّعون بقدرات سحرية استثنائية. لذلك عندما حضر إليهما بصحبة عشرة من أتباعه، لم يكن غرضه القتال كما ظننت، ولكنه كان يعرض عليهما الانضمام إلى عصابته.

ردّ عليه أحدهما: إن السلطة لا تُقْتَسم بل تُغتصب، ونحن ندعوك أنت إلى أن تصبح عضوًا في عصابتنا. فإذا لم تقبل، وجب عليك أن تقاتلنا، حتى يعرف أفراد عصابتك أنك أنت الأقوى.

هو: من السهل على اثنين مجتمِعَيْن أن يتغلّبا على واحد منفرد.

سونجي: يمكنك أن تحتفظ بقوسك وأسهمك، فأنا لن أتصارع معك إلا بيديّ العاريتين من أي سلاح.

بدأنا -نحن أفراد عصابة التوأم- نخشى على سونجي سونجي من نتيجة هذه المعركة، إذ بدا واضحًا تفوّق روبين الجسماني عليه. وعلى الفور ارتدّ روبين بضع خطوات، وأمسك قوسه بين يديه، وأخرج أحد الأسهم من جعبتها، واتخذ وضع الاستعداد لإطلاق السهم، ثم صوّب سهمه نحو جسد سونجي، لكن قبل أن ينطلق السهم في طريقه، قفز سونجي عليه قفزة تتعدّى مسافة بضعة أمتار، مثل فهد شرس متوحّش، واختطف القوس من بين يديه، كأن عضلات روبين ليست ذات فائدة

في هذا القتال الذي استعمل فيه الخصم عقله لا يديه. حدثت هذه التحرّكات كلّها في أجزاء من الثانية، ومن الدهشة أغمضنا أعيننا وأعدنا فتحها، لنتأكّد من أن ما يحدث أمامنا هو الحقيقة وليس الخيال. الأكثر إهانة لروبين هو أن سونجي اختطف السهم من يده وفقأ بها عينه، بينما كان أعضاء عصابته يستعدّون للفرار، إلا أن خمسة منهم لم يغادروا أماكنهم؛ لأن سيقانهم أصابها شبه شلل مؤقّت، من خشية تعرّضهم للأذى والانتقام، على يد التوأم الساحرين الشرسين. وحتى يأمنوا شرّ التوأم، أعلن هؤلاء الخمسة انضمامهم إلى عصابة التوأم.

بعد دقائق وصلت سيّارة الشرطة إلى السوق الكبير. من المؤكّد أن أحد كبار التجّار خشي على بضاعته من أن تقوم إلى جوار متجره معركة عنيفة، فاتصل بالشرطة. بمجرّد سماعنا صوت نفير سيّارة الشرطة يقترب من المكان، هربنا من المكان، واختفينا جميعًا ولكن في اتجاهات مختلفة، حتى تتشتّت جهود رجال الشرطة. هرب روبين هو الآخر، خلف أفراد عصابته الذي غادروا المكان قبله ببضع ثوانٍ. لقد فرّ من المكان، رغم أنه هو المجني عليه؛ لأنه لم يكن متأكّدًا من موقف الشرطة منهم، فمن الجائز أنه لو وقع في أيديهم، حتى لو كان مجنيًّا عليه في الموقف الحالي، وحتى لو أنهم شاهدوا عينه المفقوءة، فإنهم لن يرأفوا به، بل سيحاسبونه حسابًا عسيرًا على كلّ جرائمه السابقة، التي ارتكبها هو وأفراد عصابته، منذ وصل أوّل مرّة إلى بوانت نوار قبل بضع سنوات، فهو لم يسقط أبدًا من قبل في يد رجال شرطة المدينة، وهناك ملفّ كامل لجرائمه لديهم.

في زمن لاحق عاد روبين إلى لقاء التوأم، ودار بينهم هذا الحوار، الذي طلب فيه روبين منهما بإلحاح أن يقبلا انضمامه إلى عصابتهما، وكنت أنا نفسي أحد شهوده.

روبين: لا أريد بعد الآن أن أحمل لقب روبين المرعب، ويمكنكما دعوتي باسمي القديم (جان الصغير).

تلا تلا ساخرًا: لقد انتهت قصّتك إلى الأبد، فلن تكون بعد الآن أي شيء، لا روبين المرعب، ولا حتى جان الصغير، فنحن لدينا صغيرنا الذي نطلق عليه لقب (فلفل الصغير).

بمرور بعض الوقت قَبِلَ التوأم انضمام روبين إلى عصابتنا، وكان قد اعتاد على إخفاء عينه التالفة برباط من القماش الأسود، مع احتفاظه بنفس غطاء رأسه القديم، مما جعل منظره في هذه الحالة أقرب إلى منظر قراصنة البحار. المؤلم في الموضوع ليس هو فقد العين، بل فقد الاحترام الذي كان الجميع يعاملونه به؛ لأن أولئك الذين كانوا يرتجفّون لمجرّد رؤيته، أصبحوا من الساخرين منه بشكل علني وبأصوات مرتفعة. ذات يوم بحثنا عنه ولم نجده، لقد اختفى روبين فجأة. ظلّ مختفيًا لمدّة أسابيع طويلة، حتى جاء إلينا ذات يوم أحد أفراد عصابته السابقة، وأعلن علينا نبأ العثور على جثّته في مياه نهر تشينوكا، وقد تلقّى طعنات عديدة في أنحاء متفرّقة من جسده. ثم عرفنا أن مَن قتله هو أحد قطّاع الطرق، كان روبين قد سرق من أمه البائعة العجوز في السوق حافظة نقودها.

(٢)

بقيت عامًا ونصف عام عضوًا في عصابة التوأم، وتحت حمايتهما، ومارست معهما كل أشكال الأنشطة الإجرامية التي كنت أعتبر نفسي شريكًا أصيلًا فيها، مثل سرقة الدرّاجات البخارية، وسرقة إطارات السيّارات، ونشل حوافظ نقود السيّاح الأجانب من زوّار وسط المدينة، والقيام بحملات أسفل كوبري الشهداء خارج المدينة، أثناء الليالي المظلمة، لضبط العشّاق أثناء ممارستهم العشق وفرض إتاوات عليهم. لقد أصبحت أفتخر باللقب الذي أطلقه التوأم عليَّ، وهو لقب (فلفل الصغير)، فأنا في الحقيقة كنت أصغر أعضاء العصابة سنًّا.

وكان السبب في اكتساب لقب فلفل، هو أن هذه الشطّة الحمراء كانت ذات رائحة نفّاذة جدًّا، وكنت أنا كثير الاهتمام بمثل تلك الروائح النفّاذة، وفي كلّ مرة كنت أستطيع شمّ رائحة الفلفل قبل أن تصل هذه الرائحة إلى أنف أي شخص آخر. حتى أنني قد حصلت أيضًا على لقب الخنزير الصغير، فهذا الحيوان مشهور بأن أنفه حسّاس للروائح، وبأنه يدس ذلك الأنف في كل شيء. بل لقد حصلت لبعض الوقت على لقب (بعوضة المستنقعات)، وقد فسّر التوأم هذا اللقب الذي كانا قد لقّباني به، بأنني كثير الاهتياج وسريع التنقّل بين الأماكن، مثل بعوضة

المستنقعات التي لا تستقر في مكان. في الحقيقة لم تكن هناك أي تفاصيل تفوتني ملاحظتها، بل كنت دائمًا خلف التوأم بخطوة واحدة؛ لأنصت إلى كل ما يقولانه وأشاركهما بالرأي في كلّ شيء. كنت أتطوّع بتحفيزهما على فعل أشياء محدّدة، أو تحذيرهما من فعل أشياء أخرى، وفي كلّ المرّات كانا ينصتان إلى ما أقول ولا يسخّفانه أبدًا.

إلا أن ما كان يحزنني هو أنهما في لحظة اقتسام الغنائم، كانا يعاملانني كما لو كنت كلبًا صغيرًا، سيرضى حتمًا أو سيكتفي مرغمًا من أسياده بالعَظْمة التي يلقيانها إليه، بدلًا من أن أكون شريكًا كاملًا في الغنيمة، أو حتى أن أكون نصف شريك. كنت أعمل مستشارًا للتوأم، لثقتهما في ذكائي، وكنت بفضل حركتي الدائبة في أنحاء السوق، أعرف من هم أعضاء العصابة الخبثاء، الذين ينشلون الناس في الأسواق، دون أن يعلنوا على التوأم عن مكاسبهم. وكنت أعرف أعضاء العصابة الخبثاء، المتخصّصين في سرقة إطارات السيّارات الفرنسية ميشلان، الأغلى سعرًا في الأسواق، الذين يعملون لحسابهم، لذلك كانت قيمتي في نظر التوأم في ازدياد، فهما يومًا بعد يوم يدركان حجم المكاسب التي أحقّقها لهما.

ثم حدث خلال عامي الأول في الحرية، وفي الهواء الطلق والفضاء المفتوح، بعيدًا عن جدران دار الأيتام، أن زاد طولي بشكل ملحوظ، حتى قاربت أن أصبح في طول التوأم. ولم يحدث هذا التغيير الهائل فقط على المستوى الجسدي، بل كذلك على المستوى النفسي، إذ لاحظت كيف تغيّر أسلوبي في التفكير، وكذلك المفردات التي

أستعملها في الحوارات المختلفة، التي تأثّرت تمامًا بالوسط الذي أصبحت أخالطه. وهكذا تخلّصت بالتدريج من اللهجة المهذّبة، ومن المفردات المعتنى بها، التي تعلّمتها في دار الأيتام، وعلى يد الأب موبلو والأم سابين.

لكل ذلك حاولت تغيير لقبي لدى التوأم، من فلفل الصغير، لأنني لم أعد صغيرًا، إلى فلفل روبين هود؛ لأني أحق من روبين المرعب، بلقب روبين، فأنا أعطف على الفقراء والمحتاجين، بدليل أنني عندما أجد بالصدفة في طريقي أحد الأطفال الصغار من لصوص ثمار المانجو والبابايا في الأسواق، وهو يجري هربًا من أحد حرّاس الأسواق، كنت أعترض طريق الحارس بجسمي هذا الذي أصبح طويلًا، أو أعترض طريقه بإحدى ساقيَّ، فيقع أمامي على الأرض فأجثم فوقه، ريثما يختفي الصغير عن الأنظار. كان هذا التصرّف يرضيني جدًّا، فقد بدأت أسلك الطريق الذي سيقودني حتمًا إلى أن أصبح يومًا ما (فلفل روبين هود) أو (روبين هود) فقط لا غير دون أي توابل. كانت هذه هي طريقتي في إعادة توزيع الثروات على الفقراء البؤساء والمعوزين، الذين كان دافعهم إلى السرقة هو الجوع؛ لأن أسعار المواد الغذائية، بسبب جشع التجّار الأثرياء الرأسماليين كانت قد زادت بشكل لا يستطيع الفقراء تحمّله.

لكن طريقتي هذه لم تعجب التوأم، فقد أكّدا لي مرارًا وتكرارًا أن زمن روبين هود قد انقضى، وأن كلّ تصرّفاتنا يجب أن تحكمها مصلحتنا الشخصية، وإلا فإن أعضاء عصابات الإجرام، سيضطرون

يومًا ما إلى اعتزال الإجرام كأسلوب حياة. ثم أصرّا على ضرورة أن أحتفظ بلقب (فلفل الصغير)، وبوضعي كمساعد لهما، أرضخ لإرادتهما، وأنفّذ أوامرهما، وأن أنسى رغبتي في الاستقلال عنهما. ثم هدّداني بشكل صريح، أنني لو استأنفت سياسة توزيع الغنائم على فقراء السوق، المتجمّعين حول المسجد الكبير، أو في ميدان باتريس لومومبا، ومساعدة الصغار على الهرب من حرّاس السوق، فإنني قد أخسر إحدى عينيَّ وأعرّضها للفقء.

كانت عصابتنا تضمّ أشكالًا مختلفة من البشر، ولكني كنت أتعاطف غالبًا مع ذوي العاهات، مثل مشلولي الأطراف السفلية الذين كانوا يدّعون صدقًا أو كذبًا أن مسألة عدم القدرة على المشي ليست ذات أهمية بالنسبة إليهم، ومثل فاقدي البصر الذين كانوا أكثرنا قدرة على البحث عن إبرة في كوم قشّ. كنت أسأل الأعمى، لماذا لا يتعاون مع مشلول الأطراف، فالأعمى يحتاج إلى عيني المشلول، والمشلول يحتاج إلى ساقي الأعمى، فيحقّقان معًا الاكتفاء الذاتي. الغريب في الأمر هو أن الأعمى والمشلول كانا يتبادلان كراهية عميقة الجذور، لم أفهم على الإطلاق السبب فيها. قد يكون السبب لدى الأعمى أن المشلول قادر على رؤية طبق اللحم فيحصل منه وحده على أكبر قطع اللحم، في حين يحرم منها الأعمى. وكان المشلول يسأل الأعمى: كيف يعرف أن المشلول يحصل على قطع لحم أكبر حجمًا من تلك التي يحصل عليها الأعمى، فيردّ الأعمى بالقول إن المشلول يستغرق وقتًا أطول في مضغ قطع اللحم عن الوقت الذي يستغرقه الأعمى، وقد

عوّضني الله بحاسة سمع قوية بعد أن حرمني من الإبصار.

أيضًا تقاطع طريقي خلال سنوات التشرّد تلك، مع طرق بعض أغرب الشخصيات التي قابلتها في حياتي، مثل ذلك الرسّام الهاوي، الذي لم يكن يرسم على الجدران الخارجية لبنايات المدينة إلا أثداء النساء، بأشكال وأحجام وألوان مختلفة، قائلًا إن رسوماته تلك تمتّع الرجال في كل مكان وزمان، وتجعلهم ينسون مؤقّتًا نساء الجنّة، الذين سيكونون مضطرّين إلى الوقوف في طوابير طويلة أمام أبواب الجنّة لمشاهدة أثداء نسائها. هذا الرسّام بالفطرة كان يتمتّع بقدر من الحكمة، تفوق ما يتمتّع به أي شخص آخر في السوق، حتى أنني كنت قد بدأت في اللجوء إليه كثيرًا عند احتياجي إلى مشورة في مسائل شخصية، طبعًا كان أهمّها على الإطلاق في ذلك التوقيت، مسألة حسّاسة جدًّا، هي محاولة معرفة ما الأسلوب الأمثل للتعامل مع التوأم، اللذين كنت أشعر أنني سأبدأ في التمرّد عليهما في القريب العاجل.

وهناك كذلك تلك الشراذم من الناس، من خراف الكنائس الساخطين على قسس الكنائس، أولئك القسس الذين يعدونهم بمكاسب لا حصر لها من ثمار الإيمان، ثم لا يمكن الحصول منهم إلا على أقلّ القليل. مثلًا قالوا لهم: إنه بالإيمان يمكنهم أن يمشوا فوق مياه البحر المحيط مثلما سبق أن فعل يسوع المسيح. وهكذا في التوّ واللحظة، ذهبت بعض هذه الخراف الضالة إلى الشاطئ المهجور للمحيط الأطلنطي، لتجربة مدى صدق ما قاله لهم القسس، أو بالأحرى ما وضعه لهم القسس من أفكار في أدمغتهم. ذهبوا إلى هناك في الساعة

الرابعة صباحًا، لضمان عدم وجود مَن يراقبهم، فغرق بعضهم في المياه، وتم استدعاء عربات الإسعاف لنقل بعضهم إلى المستشفيات. قيل فيما بعد في وسائل الإعلام، إن هذه العملية كانت انتحارًا جماعيًّا، على غرار ما يحدث لبعض الطوائف الدينية في أوروبا وأمريكا، وهكذا أصبحنا لا نقلّ عنهم في أي شيء. لكن قال آخرون: إنهم إذا كانوا ينوون الانتحار فعلًا، فلماذا إذَنْ استدعى بعضهم سيّارات الإسعاف؟

* * *

(٣)

اضطررنا في وقت لاحق إلى الانسحاب من السوق الكبير، حيث كنا لا نزال ننام أثناء الليالي فوق مناضد البيع، واخترنا الذهاب للإقامة على الشاطئ المهجور للخليج الأطلنطي. وقد فعلت مثلنا بعض العصابات الأخرى، وكان هناك الكثير من الأمكنة المتّسعة التي تكفي الجميع، إذ كان طول هذا الشاطئ المهجور يبلغ بضع عشرات من الكيلومترات. هذا الاضطرار والاستعجال كانا بسبب قيام بلدية مدينة بوانت نوار بإزالة بعض الأجزاء العشوائية من السوق الكبير، ثم شنّت علينا بلدية المدينة حملة شعواء، تناقلت أخبارها وكالات الأنباء وقنوات محطّات الإذاعة والتلفزيون المحلّية، وجعلوا لها هذا الاسم المضحك (حملة التخلّص من بعوض السوق). إذَنْ فهم يعتبروننا بشكل واضح من بين الحشرات المزعجة. هل هذه هي فعلًا صورتنا الحقيقية في نظر مواطني المدينة؟

كان المدعو فرنسوا ما كولي في سبيله إلى خوض غمار الانتخابات المحلّية للمرّة الرابعة، كمرشّح في مجلس النوّاب، عن سكّان هذه المدينة، وكانت الصورة الفوتوغرافية لوجهه القبيح المكبّرة مئات المرّات تملأ واجهات كل البنايات المطلّة على كل تقاطعات طرق

المدينة، بشكل يبدو فيه الإلحاح إلى حدّ الضجر والسَّأَم. هذا الوجه القبيح الذي لم يعرف مساعدوه كيفية تجميله، تظهر على ملامحه نفس نظراته الماكرة المنافقة، التي تتشابه مع نظرات الناس الذين هم على شاكلته، التي ذكّرتني بنظرة مدير دار الأيتام غير المأسوف عليه عطيّة الله. كان كلّ ما يهم فرنسوا ماكولي هذا أن يُعاد انتخابه للمرّة الرابعة، لذلك كان يحاول لفت الانتباه إلى مجهوداته في تحسين أوضاع الحياة داخل المدينة، باستعمال عبارات جذّابة مثل تلك التي تتعلّق بالتخلّص من عصابات السوق الكبير، فهو الذي أطلق علينا لقب (بعوض السوق الكبير). هكذا يكون قد نجح فعلًا في العثور على الصياغة المناسبة؛ ليحصل على تعاطف جمهور المدينة معه، إذ كان أغلب هذا الجمهور يمقت بشدّة عصابات السوق الكبير، ويودّ بشدّة في أن يخلّصه أحدٌ منهم.

كان أفراد حملة هذا المرشّح الانتخابية ينشرون المعلومات المضلّلة في الأسواق، مما يحفّز السلطات الأمنية على مطاردتنا. تلك السلطات أرسلت أولًا حملة خراطيم المياه، التي فشلت في إخراجنا من السوق، ثم أرسلت ثانيًا الكتائب المسلّحة بالبنادق المسيلة للدموع، الذين كانت المعركة معهم فوق مستوى استعداداتنا القتالية، فكنّا نقاتلهم ونحن نتراجع عن مواقعنا. وهكذا نجح ماكولي في الاحتفاظ بمقعده في مجلس نوّاب الشعب، بعد أن نجح وفقًا لمفرداته (في التخلّص من الأوباش والسفلة الذين كانوا يسكنون في السوق). إذَنْ أضف إلى مفردات صفاتنا في تلك الفترة: بعوض/ أوباش/ سفلة.

استرحنا قليلًا من كل تلك الصراعات. لكن خلال الأيام الأولى لسكنى الساحل المهجور، ظهرت المشكلة الأولى، وهي كيفية حصولنا على خبزنا وكفافنا اليومي، بعيدًا عن تجّار المأكولات في الأسواق؟ هنا بدأنا لأول مرّة في البحث عن القطط والكلاب. كان التوأم من قبيلة بيمبيه، التي اعتاد أفرادها على تناول مثل هذا النوع من اللحوم الحيوانية. في المرّات الأولى، لم يقل لي أي أحد إنني في سبيلي إلى أكل لحوم قطط وكلاب، لو كانوا قد قالوا لي، لكنت تردّدت في أكلها، أو حتى رفضت أكلها، إلا أن الحيلة كانت أن آكل منها أولًا، وأعترف علنًا بأنها لحوم جيّدة الطعم، هنا يكشفون لي عن الحقيقة، فلا يعد هناك أمامي أيّ مبرّر لعدم الأكل. لكني أدركت أن حاسة تذوّق الطعام عندي لا تسمح لي بالتمييز بين الأطعمة الجيّدة والأطعمة الرديئة. أما من ناحية المبدأ، فالمعدة الخاوية مستعدّة لقبول أي أطعمة تدخلها، مهما كانت رديئة، المهم أن تكون قابلة للمضغ وللهضم. إلا أنني تجنّبت قدر المستطاع، مشاهدة عمليات اصطياد وقتل وذبح وسلخ وشيّ لحوم مثل هذه الحيوانات البريئة.

الحقيقة هي أنني ظللت لأسابيع طويلة آكل مع التوأم من لحوم القطط والكلاب، دون أن أعرف أنها لحوم قطط وكلاب، ودن أن أفقد شهيّتي للطعام، بل إنني حتى كنت قد عبّرت لهما في مرّات عديدة عن إعجابي بطعم اللحم المشوي الذي نأكله. حدث أن أدركت الحقيقة بنوع من المصادفة البحتة. عندما استمعت إلى حوار بين بعض أعضاء عصابتنا، من أفراد سابقين لقبائل البيمبيه، عن كيفية الإيقاع بقطّ سمين

ظهر على الشاطئ، حيث جاء ليتبرّز على راحته خلف أكمات الرمال. ثم بقيت بخلطة غريبة من مشاعر القرف والاشمئزاز، مع قدر لا بأس به من حبّ الاستطلاع، أشاهد عمليات إعداد هذا القطّ السمين للأكل.

أولًا: قالوا لي إنه من المستحيل الإمساك بقط في مكان به كلّ هذا الفضاء الشاسع، فهو سريع الحركة جدًّا، وقادر على المراوغة، خاصةً إذا شعر بالخطر، لذلك تنبغي الاستعانة بالحيلة، وهكذا صنعوا فخًّا معدنيًّا لا أعرف كيف أصفه، يتكون في الأساس من إناء من الألومنيوم، كنا قد سرقناه ذات يوم من السوق، له غطاء يُفتح ويُغلق وحده بسهولة، لم أعرف كيفية عمل هذه الآلية.

ثانيًا: وضعوا داخل الإناء قدرًا من عجينة فول السوداني، قائلين: إن القطط لا تستطيع مقاومة إغراء رائحتها. هذه هي الحيلة التي كان أجدادهم يلجؤون إليها.

ثالثًا: وضعوا الإناء بما في داخله في الطريق الذي توقّعوا أن يمرّ به القطّ البائس. وهذا هو ما حدث فعلًا.

رابعًا: وصل القطّ إلى الإناء، ورفع عنه الغطاء، ووضع رأسه داخل الإناء، فانغلق عليه الغطاء وحده على الفور، فانحشرت رأس البائس داخل الإناء.

تساءلت طويلًا عن أيٍّ من هذين الطريقتين في الحياة أصلح للقطط، الحياة داخل المدن، أم الحياة داخل الغابات؟ طبعًا بالنسبة للقطط التي استأنسها الإنسان، لم يعد يمكنها الحياة في الغابات مع القطط التي لا تزال على وحشيتها. وكأن استئناس الإنسان للقطط المنزلية، قد حرمها

من وحشيّتها السابقة، وبالتالي حرمها من حرّيتها. تذكّرت كذلك تلك القصّة الخيالية، عن اللقاء الذي وقع بين فأر المدن وفأر الحقول، وهي قصّة قرأتها أثناء الطفولة في مكتبة دار الأيتام. أدركت منها أن الحياة الحرّة لفئران الحقول، في الشمس والهواء والغيطان، أفضل وأصحّ ألف مرّة، من الحياة المقيّدة لفئران المدن، الذين يطاردهم الناس حيثما ذهبوا، فلا يجدون إلا المجارير للاختباء فيها. إذَنْ فإن أفراد العصابة الذين من أصول قبائلية، جعلوا قطط الشاطئ المهجور، تدفع ثمنًا غاليًا لحياتها إلى جوار البشر.

كان هذا القط السمين قد اقترب من شاطئ البحر، بحثًا عن أكمة يختبئ خلفها، ليتخلّص من إفرازاته؛ وذلك لأن تراث القطط منذ فجر التاريخ، يشير إلى شعورها بالخجل إذا شاهدها أحد البشر وهي تتخلّص من تلك الإفرازات، وهو الشعور الذي لا يتوفّر للكلاب مثلًا، التي تفعل كلّ ما يحلو لها على قارعة الطريق. ثم إذا بهذا القطّ يشمّ رائحة عجينة الفول السوداني التي لا يستطيع مقاومة إغرائها، فاقترب من الإناء، وهو يرفع أذنيه وذيله، وهي علامات دالة على الإثارة والانتباه لدى القطط، تحايل على الغطاء حتى رفعه، وبلّل شفتيه متلمّظًا. كنا نراقبه ونحن نجلس على بعد بضع عشرات من الأمتار، متحلّقين حول النار، فاعتقد المسكين أننا لا نلاحظه ونتحيّن الفرصة للانقضاض عليه، ولم يدرك أن محتويات هذا الإناء موضوعة له هو وحده بغرض اصطياده، بل اعتقد أنه حتمًا سعيد الحظّ جدًّا، حتى يكون القطّ الوحيد هنا الآن، بين كل قطط المنطقة، فيأكل كمّية عجين فول السوداني كلّها وحده.

كانت كل القطط والكلاب الضالة الهزيلة الجائعة، الدائمة التجوال في الشوارع، في شكل قطعان من بضع أفراد، تبدأ بحثها عن غذائها اليومي حول منتصف النهار، في قمامة السوق الكبير، ثم تذهب بعد الظهر إلى قمامة الأحياء الراقية تبحث فيها، وهي تقترب من الشاطئ الذي عادةً ما يكون محطّتها الأخيرة، في رحلة البحث تلك، التي تصل إليه عند حلول المساء. قفز قطّنا قفزة واحدة جعلت رأسه داخل الإناء، الذي انغلق وحده على الرأس في التوّ واللحظة. كنت أجلس بين أفراد حلقة النار، وهم يقولون لي إنها لعبة يلعبونها مع القطط كل مساء، وأنا أصدقّهم، حتى لحظة انغلاق الإناء على الرأس، وقيام التوأم من وضع الجلوس إلى وضع الوقوف، وقد بدآ في التصفيق، فقام الآخرون كذلك وهم يصفّقون، هنا أدركت أنها ليست لعبة، فانفصلت عن المجموعة، واندفعت جريًا نحو الإناء، في محاولة مني أن أصل إليه قبل الباقين، وأتمكن من تخليص رأس القطّ المسكين من الإناء، وتخليص جسده من براثنهم.

لكن التوأم لحقا بي وأمسك أحدهما بذراعيَّ خلف ظهري، ووجّه لي الآخر لكمة قوية إلى بطني، فأغمضت عينيَّ من شدّة الألم، ثم لكمة ثانية على أنفي، سقطت بعدها على الأرض، فواصل أحد أفراد العصابة ركلي بساقه الخشبية، التي يستعملها في المشي بدلًا من ساقه المبتورة. بدأ الدم يسيل من أنفي، ودخلت بعض قطرات منه إلى فمي، في حين كان فاقد الساق يصرخ في وجهي بعبارات قاسية. كان القطّ لا يزال يحاول يائسًا تخليص رأسه، وهو لا يعرف بعد ما هو مصيره المحتوم الذي ينتظره.

قال أحد التوأم موجّهًا كلامه لي: منذ ثلاثة أيّام ونحن نعود خاليي الوفاض من جولاتنا في الأسواق، فمنذ الحملة الانتخابية لم يعد أحد يرحّب بنا كما كانوا يفعلون قديمًا، لذلك ينبغي اقتناص أي طعام متاح، حتى لو كان مجرّد لحم القطط.

قال فاقد الساق: وستقوم أنت نفسك بإعداد هذا القطّ ليصير وجبتنا هذا المساء، بذبحه وسلخ جلده ووضعه في إناء الماء المغلي، ثم تقطيع أجزائه وتوزيعها علينا. يجب أن تتعلّم.

خلف التوأم وقف الفرسان الثلاثة، وهم ثلاثة من الشباب الصعاليك، الذين انضمّوا مؤخّرًا إلى العصابة، وأطلقنا عليهم هذا اللقب تذكيرًا برواية ألكسندر ديماس الشهيرة؛ لأنهم كانوا قد عثروا على بضعة أمتار من قماش، يستعمل غالبًا في صنع الستائر، وصنعوا منه لأنفسهم أردية متشابهة، بدت لنا كما لو كانت زيًّا موحّدًا. في الحقيقة هم أصبحوا بعد ذلك فرسانًا أربعة، بعد أن انضم إليهم فاقد الساق، رغم أنه لم يكن يرتدي نفس الزيّ الموحّد. من الأشياء الغريبة هو كيف أن وحيد الساق هذا قد اندمج تمامًا في هذا الرباعي، رغم أنه كان أصغر منهم كثيرًا في السنّ، إذ لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة.

منذ واقعة ذبح القطّ تلك، لم أعد أستطيع النوم، إذ كان رأسه المذبوح يظهر أمام عينيَّ دون توقّف، وتطنّ في أذنيَّ أصوات مواءاته الأخيرة قبل الذبح، التي بدت في أذنيَّ مثل استغاثات يائسة، لم ينصت إليها أبدًا ذابحوه. لجأت إلى رسّام الأثداء لتفريغ شحنة المشاعر الموجودة داخلي، لكنه كان مشغولًا برسم موضوع جديد هو أقدام

النساء، على رمال الشاطئ المهجور، وحذّرني من الاقتراب حتى لا أطأ اللوحة الفنية، فرضخت لطلبه. إلا أنني بقيت بالقرب منه ورفعت صوتي حتى يسمع ما أقوله له.

هو: أعرف أن شبح القطّ المذبوح يطاردك، أليس كذلك؟ لكني أريد أن أنبّهك إلى أنك دون أن تدري، قد سبق لك أكل لحوم القطط مرات عديدة خلال الأسابيع الأخيرة، أنت كنت تأكلها وتتلذَّذُ بها دون أن يخطروك بأنها لحوم قطط.

أنا: لم أكن أعرف، بل حتى لم تكن لديَّ أدنى فكرة.

هو: لدينا مثل في قبيلتنا يقول: (عندما تذبح نعجة لا تنظر في عينيها، فإن هذه النظرة ستلاحقك في خيالاتك، كما لو كانت نظرة من عينين بشريّتين). لذلك كنت متأكّدًا من أن النظرة البائسة في عيني القط المذبوح ستطاردك.

أنا: أتساءل لماذا أنا فقط المهموم بهذه المسألة، بينما يبدو جميع الآخرين لا مبالين؟ ولماذا أنا الوحيد الذي كانت لديه رغبة في إنقاذ هذا القطّ من هذا المصير؟

هو: لماذا إذَنْ أكلت من لحمه؟ رغم أن أحدًا لم يضطرّك إلى ذلك؟

لم أجد ما أجيب به عليه، فأدار لي ظهره.

هو: اتركني الآن أكمل الرسم، ولا تزعجني بتلك الخيالات. على أي حال هذه القطط تلوّث البيئة، وتزيد المكان قذارة بإفرازاتها في كل مكان حولنا.

لم أعد أجد نفسي وسط أفراد هذه العصابة، ولم أعد أرى مستقبلي معهم، ومع الوقت كنت أتأكّد أن استمرار وجودي معهم هو خطأ كبير. فبدأت أصبح شبه دائم الاشتباك مع الجميع، خاصة مع أولئك الذين يعتقدون أنه يمكنهم أن ينوبوا عن التوأم في اتخاذ القرارات، أو يدّعون أن أفعالهم هي بأوامر مباشرة من التوأم. وكان التوأم قد بدآ في سياسة جديدة، فلا يؤكّدان ولا ينفيان أي شيء، بل حتى إنهما لا يعلّقان على أي شيء، بل كانا يتركان الجميع يتخبّطون هكذا بين نعم أو لا. هكذا بدأت أفقد الإحساس بأني شريك أصيل لهما، منذ بداية مغامرتنا نحن الثلاثة، في لحظة مغادرة دار الأيتام. شعرت بأن التوأم يبتعدان عني، حتى أنه قد يمرّ أسبوع كامل دون أن أراهما، إذ كانا دائمًا شبه مختفيين عن الأنظار. لا أعرف أين هما. وكانا قد أوْكَلا إلى عدد من أفراد العصابة القيام بمهمّات خاصة، ولم يعودا يوكلان إليَّ أي مهام، فبدأت أشعر بغربة حقيقية، بل بالحنين إلى أيام دار الأيتام، وبالندم على فقدان أصدقائي فيها.

كانت التعاسة تحلّ عليَّ كلما تذكّرت بونا فنتور، وتساءلت عن مصيره الآن هناك وحده، بعد مرور كل تلك الشهور الطويلة، التي تكاد تبلغ ثلاثة أعوام. أدركت حقيقة الحكمة التي أبداها، نحو مغامرة الهروب من الدار تلك غير المحسوبة العواقب. هل كان أبعد مني نظرًا؟ رغم أنني تعلّمت الكثير عن أسرار الحياة، وأعدت اكتشاف المدينة، مع عصابة التوأم، إلا أنني افتقدت أسئلته التي كانت تبدو لي أحيانًا على قدر من السذاجة، واكتشفت الآن أنها لم تكن ساذجة، بل كانت أحيانًا

عميقة جدًّا. أنا الآن أقترب من سنّ السادسة عشرة. وقد اتخذت قرارًا بانتظار بلوغي سنّ الرشد في الثامنة عشرة، للعودة إلى دار الأيتام، والاحتفال مع بونافنتورا بوصولنا معًا إلى هذه السنّ.

كنت أحاول أن أبعد عن ذهني كل الأفكار السلبية السوداوية؛ لأنني بدأت أشعر بأنانيّتي، عندما غادرت الدار وحدي تاركًا صديق عمري وحده فيها. بدت لي فكرة البقاء في الدار حتى بلوغ سنّ الرشد فكرة منطقية تمامًا، على الأقل لتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف المتاحة، التي يحصل هو عليها الآن، بينما أنا حرمت نفسي منها. هل الناظر عطية الله لا يزال هناك يشغل نفس المنصب؟ هل تمّ إلقاء القبض عليه والحكم عليه بالسجن، بعد زيارات رجال التفتيش ذوي ربطات العنق الحمراء من مبعوثي وزير الأسرة والطفولة؟ هل لا يزال العجوز كوكوبا يتمتّع بالقدرة على التبوّل بشكل طبيعي دون معاناة، منذ أن عالجه التوأم بوسيلتهما البدائية؟ أحيانًا أقول لنفسي إنه لا داعِيَ للنظر إلى الخلف.

بل يجب عليَّ مواجهة الحياة التي أحياها الآن، ككلب شوارع لا يعرف أين سيقضي ليلته التالية، في مدينة تسحق ساكنيها. يجب أن يكون كل تفكيري منحصرًا في مسألة كيفية البقاء على قيد الحياة. هكذا يظلّ أمامي عامان، أستأنف خلالهما اكتشاف أسرار الحياة، وأسرار هذه المدينة المتاهة اللغز (بوانت نوار)، التي لم أكن أعرف منها إلا بعض أحيائها الشعبية الفقيرة، مثل حيّ بلوك ٥٥، وحيّ نويوندزي. وأثناء شهور التسكّع الأخيرة، بدأت في استكشاف حيّ الثلاثمائة،

الذي وجدت نفسي فيه ذات مرّة أمام امرأة قادتني إليها الصدفة البحتة، هي التي ستغيّر طريق حياتي تمامًا، لا أعرف إن كان هذا التغيير هو للأحسن، أو أنه كان للأسوأ. في الحقيقة حتى الآن لا أعرف، فهذا يتوقّف على طريقة نظرتنا للأشياء.

❊ ❊ ❊

(٤)

حدث هذا ذات يوم أحد في فترة ما بعد الظهيرة. كنت أتسكّع في حيّ الثلاثمائة ليس بعيدًا عن دار سينما رِكس، حين تقاطع طريقي مع طريق هذه المرأة. كانت صغيرة الحجم وترتدي فستانًا أحمر، وتضع حول عنقها وشاحًا أبيض. لم تكن شابة ولكنها أيضًا لم تكن عجوزًا. كانت تتمتّع بجسد يمكن أن نُطلق عليه وصف (جذّاب). عندما وقعت عيناي عليها للمرّة الأولى، كانت تحاول عبور شارع الاستقلال، وفي يديها حقائب ورقية كبيرة، تحوي بالتأكيد مشترياتها من المتاجر، التي تظهر أسماؤها على حقائبها الورقية.

كان هناك بعض الرجال يجلسون فوق الرصيف أمام المتجر السوري يلعبون الورق. عندما رأوها تركوا الورق واتجهت أنظارهم إليها، وأخرج بعضهم من فمه أصواتًا أشبه بصفير الإعجاب. غالبًا كانت النظرات موجّهة إلى المؤخّرة التي تهتز بإغواء مع كلّ خطوة، إلى اليمين ثم إلى اليسار، وأحيانًا إلى أعلى ثم إلى أسفل. هذه الحركات كانت تثير إعجاب الرجال غير المهذّبين، الذين لم يتورّعوا عن الصياح بألفاظ فاحشة خادشة للحياء بأصوات مرتفعة.

اندفعت نحوها، وعرضتُ عليها أن أحمل عنها بعض حقائبها، فبدت عليها ملامح المفاجأة والحيرة؛ لأن مراهقي هذا الحيّ على ما يبدو غير معتادين على هذا النوع من ردود الأفعال. كانت لديها بعض الشكوك -كما صرّحت لي لاحقًا- أنني لو أخذت كيسين من الأكياس الورقية التي تحملها، سأجري حتمًا وأختفي بهما لسرقة محتوياتهما. أدارت ظهرها لي واستأنفت مشيها، لكنها بعد لحظة أدارت رأسها تعيد النظر في عرضي بالمساعدة. لمحت في نظرتها تعاطفًا شجّعني على الاقتراب منها والمشي إلى جوارها. كان مَن سينظر إلينا الآن سيعتقد أننا يعرف كلٌّ منا الآخر منذ فترة طويلة.

تركتني أسير إلى جوارها بعد أن أعطتني حقيبتين من حقائبها الورقية، دون تبادل أيّ كلمات، حتى وصلنا أمام قطعة أرض كبيرة مسوّرة بسور منخفض، وداخل مساحة هذا الفناء، يوجد منزل كبير الحجم، بالمقارنة بمتوسّط أحجام منازل الحيّ. بمجرّد ظهورنا على عتبة الفناء، خرجت من باب المنزل عشر فتيات شابات، كلّ واحدة منهنّ أجمل من الأخرى، وقد أخذن من يديها ومن يديَّ الحقائب الورقية إلى داخل المنزل، وبدأن في فتحها ورؤية ما فيها.

قالت: لا تشوين السمك والموز حتى الاحتراق كما فعلتنّ في المرّة السابقة.

ثم أشارت نحوي وقالت: هذا الرجل الصغير الذي ترونه واقفًا هناك أمامكنّ، ساعدني في حمل الحقائب دون حتى أن أطلب منه ذلك، وهو شيء نادر جدًّا كما تعرفن، خاصة في حيّ الثلاثمائة.

نظرن جميعًا إليَّ يتفحّصنني من الرأس إلى القدم.

وبينما كنت أتساءل، هل أظل واقفًا أم أقعد، وقد بدأت تظهر على وجهي ملامح الغباء، أم أغادر المكان رغم ما بدا لي فيه من صحبة طيبة، سألتني السيّدة عن اسمي فقلت (فلفل الصغير).

هي: ليس هذا اسمًا، أنت ينبغي أن يكون لك اسم مثل أسماء كل البشر.

عندما لم أردّ عليها، تنهّدت وقالت: على أي الأحوال هذا ليس بالشيء عظيم الشأن، فأنا نفسي نسيت اسمي، وأصبحت أحمل اللقب الذي يناديني به كلّ الناس وهو (ماما فيات ٥٠٠). وأنت إذَنْ سندعوك (فلفل الصغير).

أخرجت من حقيبة يدها ورقة مالية فئة عشرة آلاف فرانك كونغولي، ومدّت يدها بها إليَّ.

هي: خذ هذا المبلغ لك لشراء قميص وسروال جديدين؛ فالملابس التي ترتديها توحي بأنك تعيش في مغارة تحت الأرض.

انفجرت الفتيات في الضحك على مسألة العيش في مغارة تحت الأرض، فنظرت إليهنّ ماما فيات بتجهّم.

هي: لا أريد مثل هذه الضحكات الساخرة هنا خاصة لهذا الشخص الذي لا يستحقّ منكنّ هذه السخرية، بل يستحق كلّ الاحترام، فأنا منذ أن جئت للإقامة في هذا الحيّ، في هذه المدينة، هذه هي المرّة الأولى التي أجد فيها صبيًّا يتعامل معي بكلّ هذا اللطف.

أنا بصوت خجول: أنا لست من سكّان حيّ الثلاثمائة، وإنما أنا كنت فقط أمرّ هنا بالصدفة.

هي: هذا إذَنْ هو ما يفسّر كلّ شيء. فلو أنك كنت من هذا الحيّ، لكان تصرّفك هذا مدهشًا جدًّا، فصبية هذا الحيّ الأُصَلاء، ليس لديهم الحدّ الأدنى من الذوق والكياسة، وهم قد اعتادوا على مناداتي بلقب (أم العاهرات).

ثم وضعت يدها بحنان على رأسي، وقالت: عد إلينا هنا وقتما شئت، فستكون كأنك في بيتك، وستكون مرحَّبًا بك في جميع الأحوال، أليس كذلك يا فتيات؟

فأجابت كل الفتيات معًا في نفس الوقت: عد متى شئت فستكون هنا كأنك في بيتك.

طريقة ردّهنّ معًا بلحن موسيقي، جعلتني أستعيد ذكرى أناشيد الأب موبلو. طردت هذه الصورة من خيالي، وغادرت المنزل دون أن أدير رأسي، وأنا أعلم أن أعين الفتيات العشر معلّقة على ظهري. كانت هذه هي المرّة الأولى في حياتي التي أجد فيها نفسي وحدي مع كلّ هذا العدد من الفتيات. في المساء على الشاطئ المهجور، جالسًا حول النار أستدفئ مع الآخرين، أنتظر وجبة العشاء من لحوم مشكوك في مصدرها، أحاول أن أقول لنفسي إنني هذه المرّة لن آكل منها معهم. ثم حكيت للتوأم عن جولتي في حيّ الثلاثمائة، وعن مغامرة لقائي مع (ماما فيات ٥٠٠).

اندهش سونجي قائلًا: إذَنْ فأنت تدّعي أن عاهرة قد أعطتك ورقة مالية من فئة العشرة آلاف فرانك كونغولي، لا لشيء إلا لأنك حملت عنها كيسين من الورق لمسافة مائة متر؟

ثم أضاف: عادة الرجال هم الذين يدفعون لهذا النوع من النساء، ونادرًا جدًّا ما يحدث العكس. أين هي تلك الورقة؟ أرني إيّاها.

أخرجتها من جيب سروالي، فخطفها مني سونجي سونجي بشكل عنيف جدًّا بحيث آذاني في أصابع يدي، مثل حيوان مفترس يختطف قطعة من اللحم.

قال: إنها لنا فأنت منذ أسبوعين لم تدّخر معنا أي مبلغ كما يدّخر معنا كل الآخرين، لماذا تظنّ نفسك مختلفًا؟

وجدت أن في هذا التصرّف مبالغة كبيرة، خاصة وأنهما خلال هذين الأسبوعين الأخيرين، كانا مختفيين تمامًا عن الأنظار، ولم يظهرا مرّة واحدة معنا على الشاطئ المهجور، ولم نعرف أين كانا ولا ماذا كانا يفعلان، وليس من حقّنا أن نطرح عليهما مثل هذه الأسئلة. بالإضافة إلى أنهما منذ عادا وهما لا يتوقّفان عن فرض الإتاوات على كل أعضاء العصابة. هكذا فقدتُ الورقة المالية دون حتى أن أبدي الحدّ الأدنى من المقاومة.

بدأت خلال فترات ما بعد الظهيرة، الاعتياد على الذهاب إلى زيارة منزل (ماما فيات ٥٠٠)، وفتياتها اللائي كانت تدعوهنّ بناتها، وكانت تكنّ لهنّ الكثير من عواطف الأمومة الصادقة، وكنت في أغلب الأحيان أبقى هناك لمدّة ساعات طوال بين الأم وبناتها، وكنت أشعر بسعادة كبيرة عند تكليفي بمهام خاصة، مثل أن يُطْلب مني الذهاب لشراء

مشروبات كحولية للضيوف من الرجال، أو عوازل طبية من الصنف الإنجليزي، أو أقراص منع الحمل للفتيات، أو مسكّنات لتخفيف آلام الدورة الشهرية.

ذات يوم أثناء تناول وجبة طعام مع ماما فيات في شقّتها الخاصة، التي لم يكن يسمح بالدخول إليها فيها لأي شخص، أفصحت لها عن الكثير من أسراري، دون حتى أن تطلب هي مني ذلك. أخبرتها بهروبي من ملجأ الأيتام، وبأن اسمي الحقيقي هو (موسى)، إلا أنها عندما أنصتت إلى اسمي كاملًا، الذي يتكون في الحقيقة من أربعة عشر مقطعًا، سخرت منه قائلة إنها كادت أن تختنق بسبب وقوف أحد تلك المقاطع في حلقها. سألتني مَن هو الأحمق الذي فكّر في إعطائك مثل هذا الاسم؟ فحدّثتها عن الأب موبلو، وعن أناشيده الدينية ورقصاته القبائلية، التي كان يعلّمها لنا في حصص الدين، وحدّثتها عن رقصة أقزام البيجمي من زائير.

ودون أن أشعر بدأ جسدي يهتزّ على إيقاعات تلك الرقصات وأنا أحدّثها عنها، فإذا بها هي الأخرى تهزّ جسدها كلّه على نفس الإيقاعات، ثم أخذتني بين يديها كشريك لها في الرقصة، وعلّمتني ما لم يكن الأب موبلو قد علّمني إيّاه، وهو كيف تنتقل رعشة الجسد من الأكتاف إلى البطن ثم إلى الأرداف، بطريقة سلسة لا يشعر مَن يشاهدها بها وهي تحدث. ثم بدأت في مصاحبة الرقص بإصدار أصوات قويّة من الفمّ ومن الحلق، ثم فجأةً توقّفت تمامًا عن الحركة وجمدت في مكانها كتمثال، وقد ركّزت عينيها عليَّ.

لم يدهشني منها كلّ هذا الاندماج فأنا أعرف أن أصولها زائيرية، وأن هذا هو السبب في كل هذا الإتقان للرقصة وللإيقاعات، حتى أنها بدت لي أكثر إتقانًا لهذا النوع من الرقص من الأب موبلو نفسه. كانت حركاتها أكثر رقّة وأكثر دقّة، وأكثر إيحاءً وأكثر إلهامًا. انتهزت فرصة إغماضها لعينيها حتى أنظر بإمعان إلى جسدها من هذا القرب، وسمح لي وجودي بين يديها، في تأمّل ثدييها أسفل ردائها الخفيف، اللذين كانا يشبهان ثمرتَي كمّثرى ناضجتين، يحلم أيّ رجل بهما وهو يعضّهما برقّة تحت أسنانه.

حدّثتها أيضًا عن اختفاء الأب موبلو، عندما تحوّلت سلطات البلاد إلى السياسة الاشتراكية اللينينية، وكيف وصلت أصداؤها إلى أبواب دار أيتام لوانجو. أمّا عند حديثي عن سابين، التي أولتني رعايتها كاملة، وكانت لي بمثابة أم حنون، ثم حدث أن اختفت هي الأخرى في ظروف غامضة، تحوّلت ملامح وجه ماما فيات إلى حزن شفيف. ثم بانت في صوتي نبرة الاحتقار، عندما وصلت بالحديث إلى الناظر عطية الله، وعن أولاد إخوته الذين عيّنهم كلهم مراقبي ممرّات في عنابر النوم، رغم اعتداءاتهم الجنسية على أطفال الدار. سقطت بعض قطرات الدمع من عينيَّ فوق خدَّيَّ، أثناء تلك الحكايات، فمسحَتْها لي بطرف كمّ قميصها، قبل أن تبدأ هي الأخرى في البكاء، وفي سرد حكايات تاريخ حياتها، بنبرات صوت تختلف وفقًا للمَشاهد والملابسات، كأنها ممثلة محترفة.

قالت: يا صغيري فلفل، كل الرجال الذين استضافوني في فراش كلٍّ منهم عندما كنت شابة صغيرة، عرض عليَّ كلٌّ منهم أن أعيش معه بعد أن يهجر من أجلي زوجته وأطفاله، ووعدوني كلّهم بسكن القصور وقيادة السيّارات الفاخرة، وبأشياء أخرى لم يكن لي علم بها، لكني كنت أعرف أن الرجل يعد بأشياء كثيرة وقتيًّا مقابل حصوله على اللذّة، لكنه يتراجع عنها بمرور الوقت. إن الرجال في هذا الشيء لن يتغيّروا أبدًا، فهم قادرون على الإتيان بأيِّ حماقة، طالما أنهم كانوا في حضرة المرأة الفاتنة. أستطيع أن أؤكّد لك أن جسدي هذا قد لمسه مئات الرجال، من كل لون أبيض وأسود وأحمر وأصفر، ومن كل طبقة اجتماعية، فكل الرجال كانوا به مهووسين، من رؤساء الجمهوريات في زائير، وهنا في بلدي الجديد كينشاسا، حتى أحطّ المهن من الرجال الذين يجرّون مركبات الريكشا بسيقانهم وأذرعهم.

التجارة بجسدي كانت ولا تزال، العمل الوحيد الذي أتقنته، في بلدي الأصلي وفي بلدي الحالي، وعندما سأصبح عجوزًا غير قادرة على القيام بواجبات مهنتي تلك، سأحزم حقائبي وأعود إلى بلدي الأصلي لأموت هناك. لم يعد لي أهل هناك، في قريتي مسقط رأسي، فإخوتي الذكور كلهم قد هاجروا إلى أوروبا، ثلاثة منهم يعيشون في بروكسل، وقد تزوّجوا من بلجيكيات، واثنان يعيشان في باريس ويحاولان كسب عيشهما بعزف الموسيقى التقاليدية الأفريقية، واثنان يعيشان في أنجولا ويعملان هناك في تجارة المواد الغذائية. يقولون لي كلّهم إنني قد جلبت الخزي على العائلة، لذلك فهم يريدون قطع كل العلاقات معي،

حتى لا أعاود الاتصال بهم، رغم أنني لم أفعل إلا ممارسة المهنة التي سبق لوالدتنا أن مارستها.

هنا استدارت نحوي لمعرفة إن كانت هناك علامات على وجهي تدلّ على أنني قد صُدمت بما قالته، فتتوقّف عن الكلام، إلا أنها لم تجد هذه العلامات على وجهي، فاستأنفت الكلام.

قالت: «هل أنا اخترت هذا الطريق فقط بتأثير من أمي؟ هل بحثنا في تاريخ كلّ امرأة سلكت هذا الطريق، لنعرف الأسباب التي أدّت بها إلى ذلك؟ هل يعتقد الناس فعلًا أن المرأة التي تسلك هذا الطريق تختاره بإرادتها؟ هل هذه المهنة هي مثل أن يختار رجل مهنة حلاقة الشَّعر أو يختار رجل آخر مهنة النجارة؟ أقول لك إن المرأة لا تُولد عاهرة، ولكنها تستيقظ ذات يوم لتجد نفسها قد أصبحت عاهرة. ثم تمرّ الأيام وتنظر هي إلى الأفق فتجده مسدودًا. ليس أمامها إلا أن تخرج إلى الطريق، وتقول لأول رجل يقابلها إنها تعطيه جسدها مقابل قدر من المال، وقد تعطيه ابتسامة إن كان لطيفًا معها.

«ولأن تجارتها هذه تحتّم عليها أن تكون قادرة على الإغواء، فهي رغم أنها قد تشعر نحو جسدها بالاحتقار، تجد نفسها صباح اليوم التالي تحمّمه، وتنظّفه وتضع عليه الروائح العطرية، لتعيد إليه رونقه. ثم قد تصل العاهرة إلى اليوم الذي تعتقد فيه أن جسدها قد أصبح قذرًا جدًّا، إلى درجة أنه أصبح غير قابل للتنظيف، فتتوقّف عن تنظيفه. أؤكّد لك أن كلّ ما فعلته، هو أنني قد سرت في الطريق الذي وضعتني عليه الأقدار، فأنا لم أخترْ أي شيء. أنا ببساطة لم أجد طرقًا أخرى أمشي

عليها. أنا العشب الضار الذي يجب أن يُجتثّ من التربة الزراعية، رغم أنني أسعدت مئات الرجال، بل ربّما آلاف الرجال.

«هجرنا والدي منذ كنت طفلة صغيرة في العاشرة من العمر، وترك أمي ولديها طفلة أنثى، وسبعة أطفال ذكور أصغر من الطفلة الأنثى في السنّ. فما كان من أمي إلا أن مارست المهنة الوحيدة المتاحة لها، منذ هجرنا أبي وإلى آخر يوم في حياتها. ثم في الوقت الذي كانت فيه قريناتي من طفلات القرية يذهبن إلى المدرسة صباحًا ويلعبن بعرائسهنّ القماشية في المساء، كانت أمي قد قررت أن أنضم إليها في مهنتها، وبدأت مبكّرا جدًّا في تعليمي أسرار العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. بالإضافة طبعًا إلى أسرار المطبخ؛ لأنه وفقًا لأمي، لا يمكن الإيقاع بالرجل إلا عن طريق الجنس، ولا يمكن الاحتفاظ بالرجل إلا عن طريق معدته. فالجنس أكثر أهمية من الحبّ، حتى جمال المرأة لا يهمّ طالما وجد الرجل أنها تتقن لعبة الجنس. فامرأة جميلة تتثاءب أثناء ممارسة الجنس لن يظل معها الرجل، وامرأة جميلة لا تتقن طبخ الطعام لن يظل معها الرجل».

* * *

(٥)

كانت (ماما فيات ٥٠٠) قد حصلت على هذا اللقب؛ لأنها كانت لها سيّارة فيات من هذا الموديل المسمّى ٥٠٠. أما اسمها الحقيقي فكان مايا لوكيتو. كانت فخورة بسيّارتها التي أنتجتها شركة فيات الإيطالية، طوال سنوات الخمسينيات، ثم توقّفت عن إنتاجها، إلا أن هذه السيّارة ظلّت منتشرة في الكثير من البلاد الأفريقية حتى منتصف السبعينيات. كانت هذه السيّارة هديّة من أحد أفضل زبائنها، وهو موليكي نزيلا أكبر معارض سياسي لنظام رئيس جمهورية زائير في ذلك الوقت من منتصف السبعينيات. كان المعارض يعيش في بلجيكا، لكنه كان كثيرًا ما يعود متخفيًا إلى وطنه الأم زائير، لهدف واحد هو قضاء بعض الليالي مع معشوقته (ماما فيات). وكان قد اعتاد على المجيء من كينشاسا (الكونغو الشمالي)، إلى زائير (الكونغو الجنوبي)، عبر نهر الكونغو، الذي يفصل بين البلدين. إلا أنه في كلٍّ من البلدين، كان عليه أن يبقى متخفّيًا، بسبب قيام صداقة بين الرئيسين، وتوقيع اتفاقيات بتسليم المعارضين بين الدولتين.

وقد حدث ذات مرّة أن كان الاثنان موجودين معًا في نفس التوقيت في منزل (ماما فيات ٥٠٠)، إذ كان موليكي نزيلا داخل المنزل، وقد أنهى المهمّة التي جاء من أجلها، في حين كان رئيس الجمهورية ينتظر دوره، جالسًا في سيارته، مع رجال حرسه الأربعة. عندما لمح معارضه خارجًا من المنزل لم يصدّق عينيه، وقال لرجاله المحصورين معه في هذه المساحة الضيّقة، داخل سيّارة صغيرة غير رئاسية لزوم التمويه.

قال: سحقًا لكم. هل رأيتم ما أراه؟ هل رأيتم هذا الرجل الذي خرج من هذا الباب خلسة منذ لحظات؟ أليس هذا الرجل هو معارضي موليكي نزيلي؟

فأجاب رجال الشرطة الأربعة كما لو كانوا رجلًا واحدًا: لا يا سيّدي الرئيس؛ لأن موليكي هذا يعيش الآن في بروكسل، ومحظور عليه الحضور إلى بلادنا، منذ سبعة عشر عامًا، ونحن لدينا هنا في العلبة التي نحتفظ فيها بقفّازاتنا، بالمرسوم الملكي، نقصد الرئاسي، الذي أصدرته معاليكم بهذا الخصوص.

نظر الرئيس في المرسوم، فتعرّف على توقيعه الشخصي وقال: هذا حقًّا هو توقيعي، ولكن مع ذلك هل أنتم متأكّدون من أن ذلك الشخص الذي رأيناه للتوّ ليس هو معارضي اللدود؟

– نحن متأكّدون وواثقون تمام الثقة مما نقول؛ لأن موليكي ابن العاهرة يعاني من مرض قاتل عِضال في بروكسل، وليس لديه ما يدفع به مصاريف المستشفى هناك، وعلمنا أنه قدّم التماسًا في سفارتنا ببلجيكا،

يريد به أن يلتمس منكم، متشجّعًا بما هو معروف عنكم من طيبة قلب أن تدفعوا عنه مصاريف تلك المستشفى التي تتراكم عليه بمرور الوقت.

الرئيس: نعم لقد سمعت بهذه القصّة من قبل، لكن ماذا أفعل في الأفكار الغريبة التي تخطر على بالي، هذا الأحمق لن يحصل على سنتيم واحد مني، وليس عليه إلا أن يموت في أوروبا، وأنا مستعدّ لدفع مصاريف جنازته، فهي على أي الأحوال ستكلّف الدولة مبلغًا أقل من مبلغ مصاريف المستشفى.

هنا انفجر رجال الشرطة الأربعة في الضحك، وقرّظوا الرئيس على حسّه الفكاهي كما ادّعوا، الذي يقدّم لهم دائمًا الدليل كما قالوا على تمتّعه به. بعد لحظات توقّف ملك الحمقى عن الهذر، ثم أعاد الكرّة من جديد، كما لو كانت بعوضة مستنقعات قد قرصته فجأة في نفس موضع القرصة السابقة.

– انظروا ... انظروا ... انظروا... لا... لا... لا... إن هناك شيئًا ما غير منسجم في هذه القصّة، أنتم تريدون أن تقولوا لي إن هذا الشخص الذي أراه هناك ليس هو موليكي؟ لماذا إذن أسرع في الجري في الاتجاه الآخر عندما رآنا، قولوا لي إذَنْ مَن يكون هذا الشخص الذي يهرب؟ أليس من أجل مثل هذه المعلومات أنا أدفع لكم مرتّباتكم التي جعلتكم أثرياء؟

أحد الرجال الأربعة وهو أقصرهم قامة، كانت لديه دائمًا الردود الجاهزة على كلّ الأسئلة، حاول تهدئة ملك الحمقى قائلًا:

الشرطي رقم ١ : سيّدي الرئيس اسمح لي فقط أن أشير إلى أن هناك عشرات الفتيات في مقرّ إقامة (ماما فيات ٥٠٠).

الرئيس: وماذا تريد أن تقول بذلك؟ إنها تاجرة مجتهدة، وهذه هي البضاعة التي تقدّمها لزبائنها.

الشرطي: كما أن هناك الكثير من الفتيات، فإن هناك الكثير من الرجال المتردّدين على هذا المكان من أجل الفتيات. يأتون ويرحلون، يدخلون ويخرجون، من أبواب مختلفة حرصًا على السريّة، فالمكان له العديد من الأبواب. وهذه المسألة تتكرّر طوال النهار والليل، سبعة أيام في الأسبوع.

الرئيس: نعم ولكن ليس هناك إلا (ماما فيات ٥٠٠) واحدة. ثم إنك تضايقني بذكائك الحاد الذي تدّعيه، وباستعدادك الدائم بالردود الجاهزة على كل الأسئلة. هذه هي النتيجة المتوقّعة لقصر قامتك.

الشرطي: أقدّم لك اعتذاراتي سيّدي الرئيس.

الرئيس: هل تعتقد أن حصولك على شهادة في العلوم السياسية، من إحدى الجامعات الأوروبية، هي التي ستجعلني منبهرًا بك؟

الشرطي: لا أبدًا يا سيّدي الرئيس.

الرئيس: هل تعرف أنني ذهبت إلى الهند الصينية؟

الشرطي: نعم يا سيّدي الرئيس، فكل مناهج التاريخ والجغرافيا في المدارس الابتدائية والثانوية في عموم البلاد تذكر ذلك.

الرئيس: هل تعرف أن هناك متخصّصين جادين في التاريخ الأوروبي، ذكروا في مؤلّفاتهم أن كلًّا من ديجول وخليفته بومبيدو كانا يخشيان مواجهتي؟ هل تعرف أنه عندما أعطس تُصاب فرنسا كلها بأعراض دور برد؟

الشرطي: صحيح سيّدي الرئيس.

الرئيس: ثم إنني مللت من الرجال قصار القامة مدّعي الذكاء من أمثالك، أنت مرفوت. وعليك أن تُعيد إلى الرئاسة سيّارتك المرسيدس السوداء، وقصرك على ضفاف النهر.

متوجّهًا بحديثه إلى الثلاثة الآخرين: اعثروا لي فورًا على رجل من طوال القامة أيها السفهاء، ومن الأفضل ألَّا يكون حاصلًا على أي شهادة عليا في العلوم السياسيّة. أنا لا أطلب منكم القيام بأعمال سحرية، فكل ما أطلبه منكم هو معرفة، مَن هذا الرجل الذي خرج للتوّ من هذا الباب المؤدّي إلى مقرّ (ماما فيات ٥٠٠)؟ فمن المفروض أنها تكون لي وحدي، وألا يشاركني فيها أي رجل آخر، فرغم كل شيء أنا الرئيس. هل هذا واضح؟

وحيث إن الشرطي قصير القامة قد أصبح مرفوتًا، لذلك فإنه صمت تمامًا وظهرت الدموع في عينيه، لهذا قرّر أكبر الثلاثة الآخرين حجمًا وأكثرهم طولًا، أن يجرّب حظّه.

الشرطي رقم ٢: سيّدي الرئيس، أنا ليست لديَّ شهادة في العلوم السياسيّة، بالإضافة إلى أن طولي هو ١٩٣ سنتيمتر، فأنا إذَنْ طويل القامة، وأنا ببساطة أريد أن أؤكّد لك أن (ماما فيات ٥٠٠) هي لك أنت وحدك، وهي لا تفعل هذا الشيء إلا معك أنت وحدك، ولا شخص آخر يجرؤ على أن يلمسها، ولكنها في نفس الوقت رئيسة فتيات هذا البيت، وعليها أن تأكل كل يوم ثلاث وجبات، وأن تقدّم لكل فتاة من فتيات هذا البيت كل يوم ثلاث وجبات، وهذا طبقًا لنصّ دستور البلاد الذي

صغته معاليك بنفسك، بكل الحكمة والفطنة والرويّة، والمادة رقم ١٥ فيه تنصّ على (أن المواطنات والمواطنين، يجب أن يتصرّفوا بمعرفتهم للبقاء على قيد الحياة، دون انتظار أي مساعدة، من طرف الرئيس الأب المؤسّس للدولة).

قفز ملك الحمقي في مكانه قائلًا: إن صياغة هذه المادة رقم ١٥ بهذا الشكل سيّئة جدًّا، هل أنت متأكّد أنها في دستوري أنا؟ هل أنت متأكّد مِن أنني مَن صاغها؟

الشرطي رقم ٢: نعم سيّدي الرئيس إنها موجودة في دستورك، هذا بالإضافة إلى المادة رقم ١٧ المعدّلة لها ...

الرئيس: اعفني من رأيك أنت يا مَن ليست لك شهادة في العلوم السياسيّة، لقد تذكّرت الآن أنك ذهبت إلى فرنسا للحصول على هذه الشهادة، ولم تتمكن من الحصول على أي شهادة من هناك، ومع ذلك أنت تجرؤ الآن على فتح فمك وانتقادي، وتتكلّم عن تعديلات في قانوني الأسمى. هل أنا سألتك عن رأيك؟

الشرطي رقم ٢: لا يا سيّدي الرئيس.

الرئيس: إذَنْ أنت مرفوت حتى تتعلّم ألَّا تفتح فمك، إلَّا عندما تكون متأكّدًا من أن ما ستقوله هو أفضل من الصمت. أنا أعرف دستوري، وأعرف قانون بلادي؛ لأنني أنا نفسي الدستور والقانون.

موجّهًا حديثه إلى الرجلين الشرطيين المتبقّيَيْن: لنعد إذن الآن إلى الأشياء الجادة، مَن هذا الرجل الذي لمحته يخرج قبل قليل من عند

(ماما فيات ٥٠٠)؟ إذا لم يكن موليكي معارضي السفيه، المتآمر عليَّ مع الخونة من البيض، الذين يحسدوننا على ألماظ بلادنا، وينتقدونني على القنوات الأوربية الموجّهة؟

هنا تدخّل أحد الحارسين المتبقّيين بخجل قائلًا: سيّدي الرئيس إذا سمحت لي.

الرئيس: ما مقاس طولك أولًا؟

الشرطي رقم ٣: ١٦٣ سنتيمترًا، لكن يمكنني أن أصل إلى ١٦٧ سنتيمترًا لو ارتديت أحذية سالاماندر ذات الكعب المزدوج التي تُباع عند التجّار اللبنانيين في وسط المدينة.

– ماذا لديك لتقوله بخصوص موضوع هذا الرجل الذي اختفى من أمامنا عندما شاهدنا؟

– في الحقيقة إن (ماما فيات ٥٠٠) لديها هنا مشروع صغير مع الفتيات.

– ما علاقة كلامك هذا بموضوعنا؟

– ما أريد أن أقوله هو أن هناك زبائن كثيرين، لا يأتون إلى هنا من أجل (ماما فيات ٥٠٠) بل من أجل الفتيات.

– لا أرى حتى الآن علاقة بين كلامك هذا وبين موضوعنا.

– هؤلاء الزبائن مضطرّون إلى المرور كلّهم بالحجرة التي تجلس فيها (ماما فيات ٥٠٠) قبل خروجهم من البيت؛ ليدفع كل واحد منهم

الثمن مقابل الخدمة التي حصل عليها، فهم لا يدفعون مباشرةً إلى الفتيات، ولكنهم يدفعون إلى رئيسة الفتيات.

– انتظر ... انتظر ... إذَنْ أنت لست غبيًّا مثل الآخرين، بل في الحقيقة أنت أذكى واحد فيهم.

– شكرًا سيّدي الرئيس.

– إذَنْ أنت تريد أن تقول: إن هذا الرجل الذي خرج للتوّ هو زبون جاء إلى هنا من أجل فتاة أخرى، وليس من أجل (ماما فيات ٥٠٠) التي تخصّني أنا وحدي؟

– تمامًا سيّدي الرئيس.

– بهذا يتغيّر الوضع تمامًا.

– سيّدي الرئيس دعني أقول لك: إننا يجب أن نكون حريصين جدًّا على السرّية في مثل هذا الموضوع، وعلى ألَّا نتأخّر كثيرًا هنا، حتى لو أننا نجلس في سيّارة عادية، ولا نجلس في إحدى سيّارات الرئاسة، فعلينا الآن إما أن نرحل من هنا على الفور، وإمَّا أن تذهب سيادتك للقاء (ماما فيات ٥٠٠).

– هذا صحيح تمامًا. كيف أنني لم ألحظ من قبل حجم ذكائك الذي تتميّز به عن الآخرين؟ كيف لم ألحظ أنك موهوب إلى هذا الحدّ؟

– كان هذا على ما أظنّ بسبب قِصَر قامتي، وبسبب أن كل زملائي أكبر مني حجمًا، لهذا تصعب رؤيتي خاصة وأنني أمشي دائمًا خلفهم.

– لماذا أخفيت عني ذكاءك؟ لماذا تركت هؤلاء السفهاء يتكلّمون أمامي بأفواههم العَفِنة؟

– إنهم رؤسائي سيّدي الرئيس.

– إذَنْ فمن هذه الدقيقة أصبحت أنت رئيسهم.

– شكرًا يا سيّدي الرئيس.

– يجب عليَّ الآن أن أذهب.

– تفضّل سيّدي الرئيس، وسنوفّر لك نحن كالمعتاد التغطية المطلوبة.

بعد تلك الليلة بعدّة ليالٍ، عاد ملك الحمقى إلى نفس المكان، مع نفس رجال الشرطة الأربعة، حيث عاش نفس الموقف من جديد. هذه المرّة تأكّدوا من أن الرجل هو موليكي نزيلي، الذي نجح في العودة إلى البلاد مرورًا عبر الحدود مع الدولة المجاورة. كان ردّ فعل ملك الحمقى قاسيًا، إذ بدأ بعزل الأربعة من مناصبهم، ثم قرّر في لحظة غضب أن يتخلّص منهم بالقتل دون تقديمهم إلى المحاكمة، وبالتالي دون أن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم بعد اتهامهم بالتساهل في مسألة تتعلّق بأمن الدولة.

عندما عاد ملك الحمقى من جديد إلى نفس المكان مع أربعة رجال شرطة جدد غير أولئك الذين تمّ إعدامهم، كان الأربعة مكلّفين كذلك بمهمّة نصب الفخاخ اللازمة لإلقاء القبض على موليكي، في لحظة خروجه من حجرة (ماما فيات ٥٠٠). وهذا هو ما حدث فعلًا.

هنا يجب أن أضيف معلومة، وهي عن كيفية التخلّص منه على الفور، بتكتيفه ثمّ جعله يبتلع كمية من سمّ الشّوْكران دون سجن هو الآخر، ودون تقديم إلى المحاكمة.

علّق رجل الشرطة الذي قدّم إليه السمّ قائلًا: «لقد جعلناه على الأقل يموت ميتة الفلاسفة». وكانت المعلومات التي تمّ تسريبها إلى ناس البلاد، هي أن المناضل البطل موليكي نزيلي مات في مستشفى بروكسل بعد صراع طويل مع المرض العضال. ثم أضاف البلاغ الرسمي: أن الرئيس بطيبته المعهودة تجاه أبناء البلاد قد دفع من حرّ ماله مصاريف الجنازة الرسمية، ورفع بذلك هذا الابن البار إلى مصاف الأبطال الثوريين.

* * *

(٦)

بعد تبادل مثل هذه الاعترافات السرّية بيني وبين ماما فيات ٥٠٠، قدّمت لي طبقًا من أوراق المانيوك المقلية مع الموز، وهو من الأطباق المشهورة في المطبخ الزائيري، الذي جعل الكثير من رجال الدول المختلفة المجاورة لزائير، يقعون أسرى المطبخ الزائيري، فيتركون زوجاتهم من جنسيّات مختلفة، ويتزوّجون من زائيريات. قالت لي هذه المعلومات بلهجتها الساخرة المعتادة وبابتسامتها الكبيرة. في ذلك اليوم لم أغادر منزلها في المساء كما اعتدت أن أفعل، بل طلبت مني للمرّة الأولى أن أنام في حجرة الاستقبال الملحقة بحجرة نومها. في صباح اليوم التالي عندما عدت إلى الشاطئ المهجور، لاحظت تجهّمًا غير معتاد على وجهي التوأم، ثم بدآ في توبيخي على قضائي الليلة في المدينة، دون أن أخطرهما بذلك مسبّقًا، ثم فجأة بعد دقائق من التوبيخ، إذا بهما ينتهجان سياسة جديدة، وإذا بتلا تلا يقول:

هو: يمكننا أن نستفيد من اقترابك هكذا من ماما فيات ٥٠٠ في معرفة معلومات عن كلّ هؤلاء الرجال الأثرياء الصلع البدناء الذين يذهبون بانتظام إليها، وبالتالي يمكننا أن نسرق بيوتهم أثناء غيابهم

عنها، بشرط أن أتمكن من الحصول على مفاتيح بيوتهم من جيوب سراويلهم أثناء انشغالهم بالفعل الجنسي معها، ويمكنني أن أحصل على معلومات بخصوص ثرواتهم، لو أنني وقفت خلف الأبواب المغلقة، أنصت إلى ما يقولون.

في الحقيقة هذا ما فعلته فعلًا، في ليلتي الأولى في منزل ماما فيات، إذ وقفت خلف الأبواب المغلقة، أنصتُّ إلى الحوارات الدائرة داخل الغرفة، إذ يبدأ الرجال في إزاحة الستار عن أسرار ثرواتهم، بمجرّد أن يبدأوا في تناول كؤوس النبيذ الأحمر، ثم يفتخر الواحد منهم بأنه كان في لندن وباريس وموسكو، وبأنه يمتلك بيوتًا فاخرة في هذه المدن، وأنه في الصيف القادم سيشتري مركبًا شراعيًّا، سيذهب به إلى عرض البحر المتوسّط، ويتنقّل به بين الجزر السياحية اليونانية، وأن منزله في بوانت نوار هو أفخر منزل في المدينة، وأن من بين جيرانه هناك الكثير من الوزراء، ومن العائلات الأجنبية، بالإضافة إلى بعض أقارب رئيس الجمهورية.

إذَنْ تحت الضغط المتواصل للتوأم، بدأت في خيانة الأمانة. كنت أتسلّل بخفّة من حجرة الاستقبال الملحقة بحجرة نومها، إلى حجرة نومها، وآخذ مفاتيح الزبائن من جيوب سراويلهم المتروكة فوق المقاعد، وأصنع منها نسخًا لدى محلّ مفاتيح لا يبعد إلا خطوتين عن المنزل، أثناء انشغال جميع الفتيات بزبائنهنّ. كان صانع المفاتيح ينظر إليَّ غالبًا بريبة، وأحيانًا باحتقار، ويبدو عليه بعض التردّد، قبل أن يضع المفتاح في الآلة التي ستصنع نسخة منه. لكنه لم يسألني ولو مرّة واحدة

ماذا سأفعل بنسخ كل تلك المفاتيح. لكني تطوّعت ذات مرة وقلت له إن ماما فيات نفسها هي التي ترسلني للحصول على هذه النسخ. كنت أدفع لصانع المفاتيح أثمان هذه النسخ من نقود الإكراميات التي اعتدت أن أحصل عليها من نفس الزبائن المسروقين، بعد أن أبدي بعض التمنّع في البداية.

ثم أعود إلى الشاطئ المهجور، بالمفتاح وباسم وعنوان صاحبه إلى التوأم، فيبدآن على الفور في إعداد خطّة السرقة، بدراسة موقع المنزل، وأفضل أسلوب ممكن لاقتحامه ليلًا، حبّذا أثناء غياب صاحبه. تبدأ التحرّيات على يد أحد أفراد العصابة المبعوث بواسطة التوأم إلى موقع المنزل، لمعرفة عدد أفراد الأسرة الذين يسكنون معًا في هذا المنزل، ومعرفة عاداتهم اليومية أو الأسبوعية. قد تستغرق هذه التحرّيات وقتًا طويلًا يصل أحيانًا إلى بضعة أسابيع، قبل أن يتأكّد التوأم من دقّة خطّتهما، ولا أعرف حتى الآن، كيف كان التوأم يتمكنان من الصعود إلى أسطح المنازل التي يخطّطان لسرقتها، بهدف رسم مساقط رأسية لها، تسهّل عليهما عمليات الدخول إليها والخروج منها. كانت عمليات السرقة تلك تشبه لعبة القطّ والفأر.

ثم سرق التوأم آلات تصوير فوري من نوع البولارويد، من أحد محلّات البضائع الإلكترونية، كانا يصورّان بها واجهات المنازل المسروقة، لدراسة كل التفاصيل الممكنة على مهل. في واحدة من المرّات التي قام فيها التوأم بتمرين أحد أفراد العصابة على استعمال البولارويد، قام أحد التوأم بتصويري فابتسمت، فقال: «ليس هناك أيّ

داع للابتسام»، فعبست ملامح وجهي على الفور، وما زلت أحتفظ بصورة هذا الوجه العابس لي، المناسب لكوني فردًا خطيرًا في عصابة إجرامية.

في هذه المرحلة من حياتي، أحسست بالفرق الواضح بيني وبين بقيّة أفراد العصابة، فأنا من الآن فصاعدًا يمكنني أن أتفاخر أمامهم بأن لديَّ المنزل الذي أستطيع أن أقضي فيه الليالي، بدلًا من النوم في العراء على رمال الشاطئ، بل أصبح في إمكاني التفاخر بأمّي بالتبنّي وبأخواتي البنات من فتياتها. هذا هو ما كان يبعدني بالتدريج عن حياة الصعلكة. لكني لم أنقطع تمامًا عن الذهاب إلى الشاطئ واللقاء بالعصابة، كأنها كانت لعنة أصابتني، ولا أستطيع الفكاك منها، أو كأنني كنت أريد أن أحتفظ برقعة من حياتي الماضية. كنت أغادر المنزل في كلّ مرّة كانت ماما فيات تستقبل رأسًا من الرؤوس الكبيرة، وهو ما كان يحدث ولو مرّة واحدة كل يومين أو ثلاثة أيام، فأعود إلى الشاطئ أقضي فيه بضع ساعات، وأقدّم جزءًا من الإكراميات التي أحصل عليها في المنزل إلى التوأم لأنال رضاهما، تحسّبًا لأيّ تغيير في الظروف مستقبلًا.

فوفقًا للعرف المتّبع في مثل هذه العصابات، ينبغي على كل فرد من أفراد العصابة أن يقوم بدفع جزء من المبالغ التي يتمكن من الحصول عليها بمجهود فردي، للمساهمة في ما يطلقون عليه اسم صندوق الميزانية المشتركة للعصابة، الذي يحتفظ به التوأم لديهما. كنت قد أصبحت صاحب أكبر المساهمات المالية في هذا الصندوق، رغم أنني أقلّ أفراد العصابة استفادة منه، وهو ما جعلني أشعر بقدر من

عدم الانسجام في هذا الوضع الجديد. ماذا يفعل التوأم بأموال هذا الصندوق؟ كانا يقولان لنا إن أموال هذا الصندوق ستصبح مفيدة عند الاحتياج لها مثلًا في حالات الطوارئ الصحّية، مثل حالات حوادث الطرق، أو عند الاحتياج إلى دفع مصاريف العلاج من مرض ألمّ بأحد أفراد العصابة. إلا أن هذا على حدّ علمي لم يحدث أبدًا. كنت أشكّ في نوايا التوأم، كلما تحدّثا أمامي عن مثل هذه التصرّفات الإنسانية، البعيدة تمامًا عن حقيقتهما.

كنت محقًّا في ظنوني، إذ توقّف التوأم عن التخطيط لسرقات جديدة؛ لأنهما كانا بالفعل يحصلان من الصندوق المزعوم على المال الكافي لاحتياجاتهما، دون أن يكونا مضطرّين إلى تعريض أنفسهما للخطر عند تنفيذ عمليات سرقة المنازل. ثم حدث أن اختفى التوأم ومعهما أموال الصندوق، وفي التوّ واللحظة تفكّكت مفاصل العصابة، وأصبح أفرادها قادرين على التصرّف في حيواتهم بالشكل الذي يروق لكلّ منهم، فإمّا أن يستمر في الإجرام مع عصابة جديدة، وإمّا أن يتوقّف عن الإجرام، ويبحث لنفسه عن حلٍّ آخر يسمح له بممارسة حياة عادية بين غيره من البشر العاديين.

لم أسامح التوأم على فِعلتهما تلك، إذ اعتبرت تصرّفهما هذا نوعًا من النصب، وبحثت عنهما في الشوارع طمعًا في استرداد النقود التي ساهمت بها في الصندوق، ومعي سكّين حادة في جيب سروالي الخلفي. خلال شهر كامل قمت بعمليات تمشيط مستمرّة لشوارع كلّ الأحياء الواقعة بين السوق الكبير والشاطئ المهجور، ولكلّ الأماكن

التي تردّدنا عليها معًا، خلال علاقة زمالة في الإجرام دامت لأكثر من ثلاث سنوات، حتى أنني كنت أقوم باستجواب أفراد عصابات أخرى قابلتهم أثناء عمليات التمشيط. لكن كانت النتيجة هي أن أحدًا لم يرهما على الإطلاق، في أيٍّ من هذه الأنحاء. لا أعرف لماذا كان لديَّ إحساس دفين بأن طرقنا ستتقاطع حتمًا يومًا ما، وأنني سأتمكّن في نهاية المطاف من حصارهما في مكان مغلق وأطالبهما مهدّدا إيّاهما بالسكّين بسداد الدين الذي يدينان لي به. كنت ألعن نفسي على موافقتهما في التخطيط لسرقة منازل زبائن ماما فيات، التي فتحت لي أبواب منزلها دون قيد أو شرط، فهما لم يكونا يستحقّان أن أساعدهما بهذه الطريقة. لكن السؤال الذي يدور في ذهني الآن بعد كل تلك السنين: هل كنت قادرًا فعلًا على مواجهتهما وعلى استرداد نقودي منهما؟

* * *

(٧)

أنا الآن في السادسة عشرة من عمري، أعيش بصفة دائمة في منزل ماما فيات، وأتمنى أن تصبح لي معشوقة من بين فتيات الدار، تكون على غرار ميسالين الملتهبة دائمًا، التي جعلت قلب يوليوس قيصر يدقّ لها، وقيل إنها كانت تمارس الحبّ على قارعة الطريق في شوارع روما مع كل مَن يحلو لها من رجال روما على مرأى ومسمع من جميع عابري السبيل، ثم فيما بعد حوّلت ركنًا من القصر الملكي إلى صالة عرض جنسي مستمر، إذ لم تكن تشبع أبدًا وتستطيع أن تستقبل رجلًا جديدًا كلّ ساعة. يمكنني تشبيه منزل ماما فيات بقصر روما الملكي، فقد حدث مرارًا بطلب من بعض الزبائن أن مارست الفتيات هذا الفعل في أركان مكشوفة من المنزل. لكن لم تكن لي خليلة من بين فتيات المنزل، لم يُرِد الربّ لي ذلك، رغم أن جميع الفتيات كنَّ يجدن فيَّ الأذن الصاغية لآلامهنّ والصدر الحنون لآهاتهنّ.

تعود صورهنّ الآن في مخيّلتي بعد كلّ تلك السنين، ومع كلّ واحدة منهنّ اللقب الذي أطلقته ماما فيات عليها، فهناك فيفي ماسيكا صاحبة لقب (المؤخّرة المضمونة)، ولوسي ليجيه صاحبة لقب (نار

البركان)، وكيمبا لوكوا صاحبة لقب (المداعبة السحرية)، وجورجيت لوبوندا صاحبة لقب (سُكّر الخامسة صباحًا)، وجان لولوبو صاحبة لقب (البسكوتة الرقيقة)، وليونارا ديكامونا صاحبة لقب (افتح غطاء الزجاجة فورًا)، وكوليت واوا صاحبة لقب (فينوس ملكة الجمال)، وكاتي موبيزي صاحبة لقب (إعصار المساء)، وبياريت سونجا صاحبة لقب (الوصيّة الحادية عشرة)، ومادو بواتي صاحبة لقب (المكرونة سباجيتي).

كانت أولى تجاربي الجنسية مع هذه الأخيرة المدعوّة (مكرونة سباجيتي)، وهي تجربة لن أحكي لكم عنها هنا؛ لأنها كانت كارثة بكل المقاييس، نظرًا لما حدث مني، إذ كنت في بداية اللقاء في منتهى القلق والتوتّر، بسبب أنه لقائي الأول بالمرأة، فبمجرّد أن وضعت يدها على الشيء المعلّق أسفل بطني، خرج من هذا الشيء شيء آخر، ثم أحسست بأن العالم كلّه ينهار حولي، وأن جسمي كله يذوب ويتلاشى. الأدهى والأمرّ هو أنها ذهبت لتسخر مني أمام الفتيات، وتستهزئ بي أمامهنّ، قائلة إنها بمجرّد وضع يدها على العضو، تمّ قذف السائل المنوي.

جميع فتيات الدار كنّ ذوات بشرات داكنة اللون، وكنّ يضعن فوق رؤوسهنّ شعورًا مستعارة بكل الألوان، الصفراء والحمراء والخضراء والبنفسجية، ومع ذلك كان كلّ زبائن الدار راضين تمامًا، ولم يشتكِ أيٌّ منهم أبدًا من أي شيء. قالت ماما فيات: إن زبائن الدار الذين يسافرون كثير إلى لندن وباريس، يقولون لها إن فتياتها لسن أقلّ في الجمال والإثارة من فتيات الكريزي هورس (الحصان المجنون) في

لندن، ولا أقلّ من فتيات الطاحونة الحمراء (المولان روج) في باريس. كان الرجال عادة ما يتباكون عند أقدام الفتيات على ما يسمّونه حيواتهم الضائعة.

وأنا كنت أنصت بكلّ انتباه إلى كلّ ما يُقال هنا في هذا المجال، إذ كنت أرغب في ألا يكون مصيري مثل مصائرهم، وألا أقول عندما أبلغ سنّهم وأحلّ محلّهم: إن حياتي أنا الآخر كانت ضائعة. كانت الفتيات يُحْبِبنَ أن يُشْرِكْنَني في تفاصيل حيوات زبائنهنّ. كنت أشاهد كلّ تلك المواقف من على بعد خطوات، وأُفْتَن بكل تلك القبلات التي تمطر بها الفتيات زبائنهن. كنت أتساءل كيف كانت لديهنّ هذه القدرة اللا متناهية على الحب، هذه القدرة التي لا تنضب، فحتى لو استقبلت الواحدة منهنّ عشرين زبونًا في اليوم الواحد، كانت الفتاة قادرة على أن تمطر زبونها رقم عشرين بالقبلات.

كانت السيّارات والدرّاجات البخارية، تتكدّس حول المنزل في كل الشوارع الملتوية الضيّقة المحيطة به، التي تصل في النهاية إلى ضفاف نهر تشينوكا، وهو نهر صغير يخترق أغلب أحياء بوانت نوار. ثمّ حدث أن أصبحت النساء معتادات على المجيء إلى هذه الشوارع، والبحث عن سيّارة أو درّاجة زوجها البخارية الياماها أو السوزوكي، وثقب إطاراتها كنوع من الانتقام، أو وضع مسحوق السكّر في فتحات خزّانات البنزين وهو ما يعطب المحرّكات. كنت أقف في ركن ظليل أراقب أفعال النساء وأنا أكتم ضحكاتي بصعوبة.

تعود إلى ذهني الآن صور فتيات المنزل واحدة بعد الأخرى،

بفساتينهنّ القصيرة متعدّدة الألوان، وأساليب تلوين البشرة والخدود والجفون والشفاه، بمساحيق التجميل المختلفة، المنقولة عن مجلّات تتخصّص في أحدث طرز الملابس والتجميل الواردة من أوروبا، وقد بدأ رجال أوروبا المتخصّصون في الأزياء، في استخدام عارضات أزياء سمراوات أو سوداوات، مما يدلّ على أن هذه الألوان الداكنة للبشرة النسائية أصبح لها مَن يهواها من رجال أوروبا.

كان زبائن فتياتنا يعشقون أن تطبع لهم الفتيات قبلات شفاه حمراء على خدودهم، ويهوون أن تغرز الفتيات الأظافر المستعارة لأصابع أيديهنّ في جلود الرجال. وقد وصلت أساليب تزييف الحقيقة إلى لون إنسان العين، فأصبح من الممكن للفتاة باستعمال العدسات اللاصقة الحصول على الأعين الزرقاء أو الخضراء، التي كانت في الماضي القريب حكرًا على الأوروبيّات. أما حقائب أيدي هؤلاء الفتيات، فلم يكن فيها غالبًا إلا الأشياء الضرورية لمهنتهنّ، مثل الواقيات الذكرية بمقاييس مختلفة، والسراويل الداخلية القصيرة النظيفة، في حالة تلوّث السروال الذي كانت ترتديه، بالإضافة إلى زجاجات صغيرة من العطور النسائية، أو أمشاط صغيرة لتسريح الشَّعر.

شاهدت مرّات عديدة صراع الرجال على نفس الفتاة، عند وصولهم في نفس الوقت، ورغبتهم في أسبقية الدخول إلى حجرتها. كانت الحجج التي يسوقها بعضهم كدلالة على أفضلية الواحد منهم، وأحقّيته في أسبقية الدخول، تدلّ دلالة قاطعة على تفاهتهم، إذ كانوا يتفاخرون باستعراض ثيابهم المستوردة من فرنسا أو إيطاليا، أو استعراض طرز

سيّاراتهم الحديثة التي تنتظر الواحد منهم في الشارع. ثم قد يتحوّل هذا الصراع المعنوي فجأةً، إلى معركة يدويّة شرسة، أو حتى إلى مذبحة تستدعي تدخّل الشرطة. في المواقف الحرجة كانت ماما فيات تتدخّل، في محاولة لإرضاء كلّ الأطراف، وحتى تتجنّب نشوب صراع يدوي قد يؤدّي إلى إتلاف محتويات المنزل. ثم تحاول أن تعرض على المتقاتلين أسماء البدائل المتاحة لفتيات خاليات في تلك اللحظة بعينها، إلا أن الصلف كان يمنع هؤلاء الرجال من التراضي.

أستعيد كذلك قصّة ذلك الرجل الذي نام مع عدد من الفتيات، وكان يتهرّب في كلّ مرّة من الدفع بحجج مختلفة، منها أنه ينتظر تحويل مبلغ مالي كبير من أخ له يعمل في فرنسا، ولم أعرف لماذا وثقت فيه الفتيات، وسكتن عنه وتغاضين عن الدفع. إلا أن ماما فيات بحاستها السادسة أدركت أنه سيختفي دون دفع سنتيم واحد. وهذا هو ما حدث فعلًا، إذ اختفى ذات يوم ولم يعد إلى الظهور أبدًا، ثم لمحته في الشارع وأدركت أنه حاول أن يتهرّب مني. إلى أن جاء اليوم الذي حرمته فيه زوجته من ممارسة حقوقه الشرعية، بسبب مشاجرة على مبلغ تافه يلزمها لإعداد الطعام، فحاول الرجل أن يعود إلى الفتيات مدفوعًا بحاجته اليومية إلى الجنس، فخرجت كلّ الفتيات معًا إلى الشارع، لاستقباله بالأسنان والأظافر، بل بالأحرى بالأنياب والمخالب، ثم ألقين عليه الماء المشبّع بالشطّة الحمراء، التي ألهبت عينيه والأنف والفمّ والأذنين، وجرى من أمامهنّ بعينين مكسورتين، وهو يضع ذيله بين عقبيه ككلب شوارع أجرب.

كان المنظر المتكرّر أمام باب المنزل، هو أن يصل الرجل المتزوّج وهو يتلفّت خلفه، خوفًا من أن تكون زوجته قد تبعته لتنتقم منه، لذلك كان هناك باب لمثل هؤلاء الرجال، يتشابه مع الأجزاء المعمارية حوله، وعليه نقوش بنفس زخارف الحائط إلى يمينه ويساره، فيبدو كما لو كان بابًا سحريًّا، لا يمكن تمييزه عن الحائط حوله، ولا يعرف سرّه إلا الزبائن المنتظمون. عندما أقمت في هذا المنزل، كنت أحيانًا أقف في الشارع، فيأتي مثل هؤلاء الرجال المتشكّكين، ويمرّون أمام الباب دون توقّف، كأنهم لم يكونوا ينوون الدخول، فهم لا يعرفون مَن أنا، ثم يسألني الواحد منهم عن عنوان أحد مقاهي المنطقة، كأن هذا هو سبب تجواله في المكان.

أمام باب المنزل يوجد مقهى مشهور، اسمه طويل ومضحك هو (مقهى الملائكة السود الذين لديهم أعضاء ذكورية جنسية صغيرة)، كانت أضواؤه تملأ المكان، ولا يجوز أبدًا أن تخطئه العين، فكانت ماما فيات في مثل تلك الحالات، عندما تكون خالية من الزبائن، تجلس في شرفتها وتنادي بالاسم على هؤلاء الزبائن، وتدعوهم إلى الدخول دون خوف، فأنا كما تقول لهم ابنها، ثم تنزل وترحّب بالزبون حتى يطمئن قلبه، وتستقبله في ركن من الفناء تحت المظلّة، وتقدّم له زجاجة جعة، ثم تحضر إليه الفتيات الخاليات للاختيار من بينهنّ.

لكن كان هناك كذلك نوع من الرجال الذين يأتون إلى المنزل لأول مرّة، فيبدو عليهم التردّد، وعندما كنت أتحدّث إليهم لأقول لهم إن هذا هو المنزل الذي يبحثون عنه، كانوا يبدأون بإنكار أنهم يبحثون عن

أي شيء، بل يؤكّدون أنهم فقط يتسكّعون بلا هدف محدّد، وأن هذا المنزل هو الوحيد المضاء بكلّ هذه الأضواء الكهربائية، بين كلّ منازل الشارع، لذلك هو يلفت انتباههم. هنا تتدخّل ماما فيات من شرفتها في الطابق الأول، وتقول للرجل منهم إنه ليس هناك أيّ ضرر في أن يبحث الواحد منهم عن لحظات من السعادة.

كنت أحبّ الوقوف في الشارع مع الحارس يانجومبي، الذي كان في السابق ملاكمًا محترفًا في زائير، ويقف طول الوقت أمام الباب وفي يده مطرقة خشبية لم يستعملها أبدًا، لكنهما يكفيان هو والمطرقة لصدّ الزبائن غير المرغوب فيهم، من بين أولئك المتسكّعين الذين يقفون أمام المنزل للتلصّص على ما قد يظهر من أجساد الفتيات عبر النوافذ الخشبية، وكان أثناء وقوفنا معًا قد اعتاد على أن يستعيد معي ذكريات ماضيه التليد كملاكم محترف، حاكيًا لي في كلّ مرة المزيد من تفاصيل مباريات ملاكماته الرسمية.

هو: أنت لا تستطيع أن تعرف حجم القلق الذي كان يسيطر عليَّ قبل كلّ مباراة. فكل تفكيري كان مركّزًا على حركات الخصم، وعلى كيفية إتقان أن أوجّه إليه مجموعة اللكمات المتفق عليها مع المدرّب. لكمات باليمين ثم باليسار، ثم مرة أخرى باليمين ثم باليسار، على أن تتناسق حركات الذراعين مع حركات الساقين، لتتمكن من الاحتفاظ بتوازن جسدك، فعندما توجّه إلى الخصم لكمة باليد اليمنى، يجب أن تكون مرتكزًا بجسمك على الساق اليسرى، والعكس صحيح. في الحقيقة إن كسب مباراة ملاكمة لا يتوقّف على حركة الذراعين والقبضتين، بل

بالأحرى على حركة الساقين، إذ يجب أن تكون ساقاك خفيفتين في حركتهما، حتى تبدو للخصم كأنك قادر على الطيران في الهواء. في حجرة تغيير الملابس يكرّر المدرّب على مسامعي، كلّ هذه التعليمات مرّة بعد مرّة، ثم نخرج من الحجرة إلى الحلبة مباشرة، حيث لا يكون هناك أي مجال لنسيان مجموعة اللكمات المتفق عليها مع المدرّب. أخرج وأنا أرتدي فوق سروال الملاكمة قميصًا خفيفًا مطرّزًا عليه اسمي بحروف كبيرة، يستطيع مشاهدو المباراة قراءته عن بعد. طوال الطريق حتى الحلبة أظلّ أتقافز، وهذه الحركات تُسمَّى تسخينًا أو إحماء. أستمع بنشوة إلى صوت تصفيق جمهوري، في اللحظة التي أضع فيها قدمي على الحلبة، وهو الجمهور المحتشد في مقاعد المتفرّجين، ولا أستطيع رؤيتهم بسبب أنهم يجلسون في الظلام، وكذلك بسبب توجيه كشّافات الإضاءة الضخمة إلى الحلبة. هذا الجمهور المستثار هو الذي يتعامل مع الملاكم، إمّا بتدليل كبير عند الانتصار، وإمَّا بشراسة مهينة عند الهزيمة.

في الصباح تقف كلّ فتاة أمام باب حجرتها التي خصّصتها لها ماما فيات، فأتنقّل بينهنّ وأنا أوزّع عليهنّ وجبات الإفطار، ثم أجلس بينهنّ لأتناول أنا الآخر وجبة إفطاري. لم يكن هذا يضايقني، بل على العكس كنت أجد أن شهيّتي للطعام تزيد عندما أتناوله بينهنّ. كنت أتمتّع في ذلك الوقت بنهم وشراهة للطعام، وقد أتناول منه وحدي ما يكفي لعدد من الفتيات، اللائي كنّ يُحِطْنَني بكل مظاهر الودّ والتعاطف. كنت أسعد كثيرًا بخروجي معهنَّ إلى الأسواق عند ذهابهنّ لشراء

مستلزماتهنّ المختلفة. كما أنه كانت هناك زيارات إجبارية للمستشفى مرّة كلّ شهر للكشف على حالتهنّ الصحّية، حتى لا تتسبّب إحداهنّ -لو مرضت بأحد الأمراض الجنسية المعدية القابلة للانتشار- في نقل العدوى إلى زبائنها. لاحظت كذلك أن طباعهنّ تكون لطيفة جدًّا طوال النهار، إلا أن هذه الطباعّ تتغير مع اقتراب وقت العمل في المساء، وهو وقت انتظار وصول الزبائن، فيصبحن متوتّرات جدًّا، بل وذوات ردود أفعال عدوانية.

* * *

(٨)

في عشيّة يوم احتفالي بعيد ميلادي التاسع عشر، عثرت لي ماما فيات على وظيفة عامل في مخزن بضائع بالميناء، بفضل واسطة من أحد زبائنها الدائمين، الذي يعمل رئيسًا للمستخدمين في شركة ملاحة بحرية. رغم وظيفته المهمّة كان يحضر إلى المنزل وهو يركب درّاجة بخارية، يركنها في فناء المنزل، ويعطيني ورقة مالية فئة الألف فرانك كونغولي حتى أحرسها له لحين انتهائه من المهمّة التي جاء من أجلها. في تلك العشيّة طلب مني أن أذهب إليه صباح اليوم التالي في مكتبه بمقرّ عمله؛ لأنه ستكون لي هناك وظيفة، أقبض منها مرتّبًا شهريًّا. كانت ماما فيات قلقة بخصوص مستقبلي، ومتألّمة من رؤيتي أتسكّع في الجوار كلّ يوم طوال ثلاث سنوات دون عمل واضح. لم أكن أفعل أي شيء أكثر من الاهتمام بخدمة الفتيات، أو الذهاب إلى الحانات والمتاجر لشراء المزيد من صناديق علب البيرة. قالت لي ماما فيات: إن سنّي لم يعد يسمح بالاكتفاء بهذا في الحياة، وإنه ينبغي عليَّ الحصول على وظيفة يمكنني مع مرور الوقت أن أتقدّم فيها. وهكذا أصبحت أبتعد يومًا بعد يوم عن هذا المنزل، وبالتدريج أصبحت لي حياتي المستقلّة.

بعد مرور شهري الأول في الوظيفة، أعطتني ماما فيات مفتاحًا في يدي، وقالت إنها مفتاح باب سكن صغير يقع بالقرب من نهر تشينوكا. لم يكن هذا السكن إلا أحد الأكواخ الخشبية التي تنتشر على ضفاف النهر، وتحيط به قطعة أرض مسوّرة تقع ضمن حدود ملكية صاحب الكوخ، هي بمثابة فناء للمنزل، أو حديقة له لو تمكّنت من زراعتها كما يفعل الآخرون. عرفت من ماما فيات أنها قد اشترت تلك القطعة من الأرض قبل سنوات، وأنها كانت ترغب في أن تبني عليها منزلًا كبيرًا، وأن الكوخ الموجود فيها كان لسكن الحارس، بسبب انتشار عادة الاستيلاء على قطع الأرض المتروكة دون حراسة بوضع اليد عليها ثم تسجيلها باسم مَن يستولون عليها بالاتفاق مع موظّفي البلدية المرتشين الفاسدين. وهكذا بوجودي في الكوخ أصبحت الحارس الجديد على قطعة الأرض. الآن أصبحت لي الحرّية المطلقة في التصرّف في أوقاتي. إلا أن هذا لم يمنعني من الذهاب بشكل منتظم إلى منزل ماما فيات، للاطمئنان على أمّي وأخواتي الفتيات، وللتأكّد من أن أحوالهنّ جميعًا على ما يرام.

كنت عاملًا مثاليًّا، أو على الأقل كان هذا هو ما قاله لي رؤسائي وزملائي في العمل، ولذلك فالشركة البحرية احتفظت بي في وظيفتي كعامل مخازن، لمدّة عشر سنوات، دون أن أتسبّب في حدوث أي مشاكل. ثم جاءت اللحظة التي أفسدت فيها صحّتي المتدهورة كلّ حياتي وعلاقاتي. دون هذا التدهور الصحّي كان يمكنني بسهولة أن أصبح ذات يوم رئيسًا للعمّال، أو حتى الوصول إلى وظيفة أكثر أهمّية،

كأن أكون أحد المديرين المسؤولين بشكل عام، عن تسيير العمل في كل أجهزة الميناء. كنت أستيقظ كل يوم في الصباح الباكر قبل شروق الشمس، وأذهب إلى شارع الاستقلال لأقف عند محطّة سيّارات النقل العام، أمام محلّ فيكي للتصوير الضوئي (الفوتوغرافي). كانت تلك المحطّات موجودة في شارع الاستقلال، عند تقاطعاته مع كل الشوارع الأخرى، وبالتالي كانت تلك المحطّات، هي نقاط تجمّع العمّال الذاهبين إلى الميناء، حيث ينتهي خطّ السيّارة. كانت السيّارة في المحطّات الأخيرة تمتلئ تمامًا بالركّاب، الذين يظلّون صامتين لا يرغب أيّ منهم في تبادل أطراف الحديث مع آخر.

عند الوصول إلى محطّة الميناء، كنا نندلق كيفما اتفق من السيّارة، كما لو كانت تلك السيّارة هي علبة سردين بشري. ثم نسير معًا إلى باب الميناء في كتلة بشرية واحدة ذات مصير مشترك. عند بوّابة العمّال كنا نتعرّض لتفتيش دقيق، يقوم به رجال أمن يرتدون زيًّا خاصًّا. يبدأون بالاطّلاع على أوراق إثبات الشخصية، ثم يصادرون الحقائب الخفيفة التي يستعملها العمّال في حمل وجباتهم الغذائية لحين استردادها عندما يحين وقت وجبة الغذاء. يبدأ يوم العمل الشاق بتفريغ الحاويات، التي تتركها سفن شحن البضائع على أرصفة الميناء، تحت إشراف رؤساء عمّال، وذلك لأن عمّال شحن وتفريغ البضائع كانوا دائمًا موضع شكّ وريبة، بسبب قيام البعض منهم باختلاس البضائع الخفيفة القادمة من خارج البلاد التي تبدو لهم غالية الثمن، أو كما يقول المثل: كلّ ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، والقيام بإخفائها تحت ثيابهم، على أمل الخروج من

الميناء دون تفتيش لسبب أو لآخر، ثم الذهاب بها إلى الأسواق لبيعها.

أنا شخصيًّا قمت مرّات عديدة بسرقة كرّاسات وأقلام كتابة، كانت من أفضل الأنواع التي شاهدتها في حياتي. وكان زملائي يتعجّبون من سرقة هذه الأشياء، ويتساءلون عن جدوى سرقتها، فهي في نظرهم تافهة، ولا تستحقّ المخاطرة بسرقتها، حتى أدركوا أنها تعني أنني لديَّ رغبة باطنية في العودة إلى فصول الدراسة. رغم ذلك كانوا يقولون لي: إذا كان الحرّاس سيفتّشونني ويتهمونني بالسرقة، فعلى الأقل يجب أن تكون المسروقات ذات قيمة تستحق هذه المخاطرة. كان العامل الذي يتمّ ضبطه وفي حوزته مسروقات، يُقاد إلى المكتب الرئيس للجمارك، وهي حجرة خشبية تفوح فيها رائحة بول القطط، ويمكن أن ترى في أركانها فئران سمينة بحجم ثمار البطاطس، كان من المحرّم قتلها؛ لأنه وفقًا لبعض المعتقدات القبائلية، فإن أرواح الموتي من الأجداد، التي تقود الموتى الجُدُد عبر مسالك العالم الآخر، يمكنها أن تسكن في أجساد هذه الفئران، ولو قُتِلَت هذه الفئران، لما وجد الموتى الجُدُد من يقودهم عبر مسالك العالم الآخر. أدركت هذه الفئران تلك الحقيقة، وهذا يدلّ على أنها تتمتّع بقدر لا بأس به من الذكاء، ولذلك فهي حرّة الحركة تمامًا ومطلقة السراح، دون خشية أي أذى بشري، لذلك تكاسلت هذه الفئران وتباطأت في حركاتها.

كان السارق يُجرَّد أولًا من ثيابه، ثم يتعرّض بعد ذلك لأنواع مختلفة من العقاب القاسي، الذي يتراوح بين التعرّض للكمات بقبضة اليد، أو لركلات بالقدم، وبين التعرّض للجلد بالسياط التي تتكوّن من حبال من

الأسلاك الشائكة، تترك جروحًا غائرة في الجسم، ثم يجعلونه بعد ذلك يوقّع أوراقًا تقول: إن رصيده لدى شركة النقل البحري هو صفر، وإن عليه سداد ثمن مسروقاته المقدّرة بشكل جُزافي من مرتّباته الشهرية مدى الحياة حتى لو ترك عمله في هذه الشركة. كان قد تمّ مؤخّرًا تعيين بطل كمال أجسام -هو عبارة عن كتل من العضلات- في وظيفة الضارب بالسياط، يظلّ يضرب حتى تسيل الدماء من الجسم كلّه، دون أدنى إحساس بالمعاناة البشرية، بل تزيد حماسته للضرب كلما ارتفع صوت صراخ المضروب.

أنت متّهم طالما ضُبطت متلبّسًا، ولن تكون هناك محاكمة لك، لا عادلة ولا ظالمة، ولن تكون هناك تحقيقات جنائية أو تحرّيات أو مباحث، ولن يسمح لك حتى بالدفاع عن نفسك. كم مرّة شاهدت رجالًا يُضْرَبون، كانوا يركعون على ركبهم ويصرخون، إنهم يعولون عائلات كبيرة العدد، والمرتّبات لا تكفي ولا حتى احتياجاتهم الأولية من غذاء وكساء، ولذلك يطلبون النظر برأفة إلى أحوالهم. ولكن لا من مجيب. لم يكن هناك إلا الظلم والقهر. ولم يكن هناك لعناء الصراخ أي جدوى. كنا نحصل على فترة راحة لمدة ساعة، بين الواحدة والثانية بعد الظهر، يمكننا فيها تناول وجبات طعامنا، ولكن حتى في أثناء تلك الساعة، كان هناك رؤساء عمّال مستمرّين في مراقبتنا، يسترقون السمع إلى ما يقوله بعضنا إلى بعض، فهم يتوقّعون دائمًا أن تكون هناك مؤامرة، أو أن يقوم العمّال بالثورة على الإدارة. لذلك كانوا يمنعوننا من تبادل أطراف الحديث فيما بيننا. في نهاية النهار غالبًا بعد غروب الشمس،

كنا نعود من جديد إلى نفس مكاتب التفتيش الصباحية، التي كنا نسمّيها مصفاة الترشيح.

لكني في الحقيقة كنت أتمتّع بوضع خاص متميّز، جعلني بعيدًا عن مجال الشكّ في تصرّفاتي؛ وذلك لأني عقدت اتفاقًا مع أحد مفتّشي الجمارك، على سرقة الكرّاسات والأقلام التي تروق لي، ولا تتوفّر في أسواقنا المحلّية، مقابل أن أدفع له ثمنها، وكانت حجّته في ذلك أنه يُطْعِم ثلاثة نساء من الزوجات الشرعيّات، لديه منهنّ تسعة أطفال، بالإضافة إلى ثلاث محظيّات، ناهيك عن عدد لا يعرف حصره من أبناء وبنات الإخوة والأخوات.

كان الأب موبلو يقول: إن طُرُق الربّ لا يمكن اعتراضها. وهكذا ففي حين كنت أعمل في الميناء، وأعود في المساء لأنام في كوخي المتواضع، قامت في المدينة حملة شعارها (بوانت نوار مدينة دون عاهرات زائيريّات)، وخصّصوا لها حملة دعائية بقيادة عمدة المدينة فرنسوا ماكولي، وهو نفس الشخص الذي كان مسؤولًا قبل سنوات عن حملة تطهير المدينة من المتشرّدين صعاليك الشوارع تحت اسم حملة تطهير المدينة من (بعوض السوق الكبير)، وهو ما كان في وقتها قد تسبّب في هجرتنا من المدينة، وذهابنا للإقامة على الشاطئ المهجور. هذه الحملة الجديدة، كان المقصود بها هو عمل الدعاية اللازمة للعمدة المحافظ، تمهيدًا للحملة الانتخابية الجديدة، التي قد تمكنه من البقاء في منصب محافظ المدينة لخامس مرة، أو حتى الحصول على منصب أكبر، قد يكون هو منصب محافظ المقاطعة كلّها، بكلّ ما فيها من مدن.

كانت أساليبه هي نفسها لا تتغيّر، فهو يظهر في الصور المعروضة في الجرائد أو في قنوات التلفزة، وهو يشرف على عدد كبير من رجال الشرطة، أثناء تنفيذ حملات الإزالة. هذه هي الصور اللازمة لإبهار الجمهور. كان النجاح مضمونًا لحملته الجديدة؛ لأنه استغلّ فيها عنصر الكراهية الشعبية لكل ما هو من زائير، على سبيل العداوة المستفحلة بين الشعبين، شعب الكونغو الشمالي (كينشاسا)، وشعب الكونغو الجنوبي (زائير). هذان هما الشعبان اللذان كانا شعبًا واحدًا، حتى جاء الاستعمار الفرنسي إلى الشمال، والاستعمار البلجيكي إلى الجنوب، ونجحا في خلق هذه العداوة بينهما. خاصة وأن الحملة الدعائية توافق على بقاء بيوت الدعارة التي يديرها شماليون، وهكذا ضمن الرجال بقاء هذه التجارة، وفي نفس الوقت أرضوا مشاعرهم الوطنية الملتهبة منذ عقود. وضعت هذه الحملة نهاية لحركة الهجرة المستمرّة، غير الرسمية وغير الشرعية، لفتيات دعارة زائير، القادمات إلى كينشاسا عبر نهر الكونغو، الذي يفصل بين البلدين، أو يذهبن إلى الجارة أنجولا ومنها يعبرن الحدود إلى كينشاسا، ثم يقوم الوسطاء بتزويدهنّ بأوراق إثبات الشخصية المناسبة اللازمة.

هكذا تحوّلت كلّ الحوارات بين البشر في كينشاسا إلى هذا الموضوع الأثير، وهو طرد العاهرات الزائيريّات الساحرات الشرّيرات النجسات من بلادنا، ورغم هذا الترحيب الوطني الشعبي بهذه الحملة، إلا أن بعض وسائل الإعلام أشارت إلى الأساليب غير الإنسانية، التي لجأ إليها منظّمو هذه الحملة، أثناء عمليات طرد الفتيات الزائيريّات،

إذ جاءت الحملة بالكاسحات (البولدوزر)، التابعة للشركات الوطنية للهدم والبناء، واستعملتها لهدم البيوت التي عملت فيها الفتيات الزائيريات، دون السماح لهنّ بجمع أشيائهنّ المبعثرة داخلها، في حين قام جنود الجيش بضرب الفتيات بالأذرع والأرجل على أجسامهنّ، ثم قاموا بحشرهنّ في سيّارات الجيش، حيث نُقِلْنَ إلى أقسام الشرطة لفحص أوراق إقامتهنّ، وهو إجراء شكلي لم يكن له أي معنى؛ وذلك لأنه تمّت بعد ذلك إهانة جميع الفتيات، بصرف النظر عن حملهنّ أو عدم حملهنّ لأوراق إقامة سليمة. وقد صرّحت بعض الفتيات عند عودتهنّ إلى زائير بأن عددًا كبيرًا من الفتيات تمّ اغتصابهنّ في أقسام الشرطة، على يد جنود الجيش والشرطة، ولم يعترض رؤساؤهم.

عندما وصلتني هذه الأنباء المحزنة، جريت إلى منزل ماما فيات، حيث وجدته لمفاجأتي الشديدة، قد تحوّل إلى أكوام من الطوب والخشب والحديد، وهي حالة من الدمار التام، كأنها نتجت من سقوط قنابل عليه، في حرب يخوضُها ضدّنا الجيش الأمريكي بكلّ معدّاته الثقيلة. بقيت مذهولًا لساعات طويلة، حتى هبط ظلام الليل على المكان، بل حتى ساعات متقدّمة من الليل، كأن هذا الليل لا آخر له، واعتقدت لبعض الوقت أنني أهلوس، وأن ما أراه أمامي ما هو إلا خيالات وأوهام، أو أنني نمت ورأيت هذه الكوابيس أثناء النوم... ثم حدث أن هبط الظلام الشامل على كلّ ملكاتي الذهنية، بل كأن الصدمة العصبية قد تحكّمت بالكامل في كلّ قدراتي الجسمانية، حتى شعرت كأنني قد أصابني الشلل التام، وأنني لن أستطيع أن أستردّ قدرتي على

المشي. قرب الفجر ذهبت إلى مركز شرطة وسط المدينة الواقع في ميدان لومومبا، على أمل أن أعثر هناك على ماما فيات، إلا أنني لم أعثر لها على أي أثر، لا هناك ولا في أي مكان آخر، ولم أعد إلى رؤيتها أبدًا مرّة أخرى طوال ما بقي لي من عمر.

أخذت أول سيّارة نقل عام تحرّكت في الفجر، وعدت بها إلى كوخي، الشيء الوحيد الذي سيتبقّى لي من ذكرى أمّي التي رحلت الآن إلى زائير. كدت أن أصل إلى فقد إحساسي بالزمن، وظللت لمدّة طويلة أدور حول نفسي، في دوائر دوائر دوائر لا نهاية لها، حتى اقتربت شمس منتصف النهار من السقوط رأسيًّا على الأرض، فأنا أرى أنه لم يعد هناك لي ظلّ على الأرض. لم أعد أعرف ماذا سأفعل بنفسي وبحياتي. أنا لا أزال أدور في ذلك الفناء المحيط بكوخي، الذي لا أعرف إن كانوا سيصادروه مني أو أنني سأحتفظ به. أشعر كما لو أن هناك ثقوبًا في رأسي. كما لو أن هناك إنسًا يمشون في رأسي. إنهم يسرعون الخطو داخل رأسي. كنت أسمع أصداء أصوات تتردّد في رأسي. من بينها استطعت تمييز صوت بونافنتورا صديق طفولتي، لكني لم أتمكّن من معرفة ماذا كان يريد أن يقول لي. ثم جاء صوت الأب موبلو والأم سابين. وأصوات التوأم. ثم صوت ماما فيات. وأصوات فتياتها العشر. ثم لا شيء آخر عدا الفراغ التام. لم أعد أتذكّر أيّ شيء، لم أعد حتى أتذكّر مَن أنا.

(٩)

لم أذهب إلى عملي منذ أسابيع، فجاء بعض أصدقائي إلى منزلي للسؤال عنّي ومعرفة سبب غيابي. ظلّوا يطرقون على الباب وأنا لا أفتح لهم. اعتقدوا لفترة طويلة أنهم يستطيعون إعادتي إلى صوابي. كنت خائفًا جدًّا من الجميع، وقد أصابتني نوبات من الهلع الحاد، حتى أن ردّ فعلي كان عنيفًا جدًّا مرّات عديدة، فكنت أفتح الباب لحظة واحدة، وألقي على الواقف أمام الباب الماء المشبّع بالشطّة الحمراء، ثم أغلق الباب على الفور، حتى إنني كنت غير قادر على تمييز الوجوه، لأعرف مَن هو الشخص الذي أعامله بهذه الطريقة العنيفة. كنت أظنّ أن الجميع قد أصبحوا أعدائي. ثم بدأت أشكّ في الأقزام المتشرّدين الذين ليست لديهم مأوى، واعتقدت أنهم ينتهزون فرصة هبوط الليل، ويأتون للنوم في فناء منزلي، أو لسرقة الخضراوات التي بدأت أزرعها فيه. كانت هذه الخضراوات -خاصة من السبانخ- هي الطعام الوحيد الذي تناولته لشهور عديدة. كنت قد تحمّلت الكثير من الإساءات إلى شخصي الضعيف، لكنني فجأة شعرت أنني لم أعد أحتمل الإساءة إلى طعامي الوحيد من خضراوات الفناء، خاصة السبانخ التي كنت أسعد بسقيها ورؤيتها وهي تنمو.

كنت أقفز من فراشي في الصباح الباكر، في الساعة التي اعتدت فيها على الاستيقاظ للذهاب إلى العمل، فأنا لم أعد أستطيع الاستمرار في النوم بعد هذا الموعد المعتاد للاستيقاظ. أنظر أولًا من النافذة إلى الفناء؛ لأتأكّد من عدم وجود أقزام فيه، ثم آخذ بعد ذلك أدواتي الزراعية، من فأس ومجرفة ودلو، وأخرج إلى الفناء، فأحرث الأرض بالفأس، ثم أزيح التراب بالمجرفة، وأزرع قطعة جديدة من الفناء بنوع آخر من الخضراوات، ثم أملأ الدلو بالماء من نهر تشينوكا، وأسقي كل مساحة الأرض المزروعة، المساحات القديمة وكذلك المساحة الجديدة. أثناء عملي ذلك في البستنة، كنت أُصفِّر بفمي الألحان الموسيقية المختلفة التي أعرفها. بعد الانتهاء من العمل، أجلس في وسط الفناء، طوال نهار كامل، حتى تهبط الشمس الغاربة إلى الجهة الأخرى من السماء، وأنا أركّز بصري طوال تلك الساعات على السبانخ، وأتمنى أن أراها وهي تكبر أمام عينيَّ.

كنت أخشى أن أفقد خضراواتي، مصدر غذائي الوحيد، وأن أكون مضطرًّا ذات يوم للّجوء إلى جاري العجوز المدعو كولو لوبانجو، الذي يقول إنه كان بستانيًّا محترفًا، لأعرف منه أسرار نموّ النباتات، التي يدّعي أنه قرأها في الكتب، وطبّقها أثناء احترافه البستنة. الحقيقة هي أنه لم يكن في حديقته إلا نبات واحد هو الخسّ. عندما كنت أسأله عن السبب في أن نباته الوحيد هو الخسّ، كان يسألني إن كانت نباتاتي تنمو جيدًا، فأجيب نعم إنها تنمو جيدًا. هو لم يقل لي أبدًا ما السبب الذي كان يجعله يشكّ في حسن نموّ نباتاتي. لكني بدأت بعد ذلك في محاولة

الابتعاد عنه وتجنّبه، خاصة عندما كان يأتي إلى حديقتي، وينظر طويلًا إلى خضراواتي. كان يتحدّث إليَّ أحيانًا عن كتاب لديه بعنوان (علوم البستنة بين النظرية والتطبيق)، للمؤلّف دارنجان فيل *d Argenville*، وهو من القرن الثامن عشر. قال إن مؤلّف هذا الكتاب هو أكبر وأهم بستاني في فرنسا على زمن الملك لويس السادس عشر، رغم أن مهنته الرسمية كانت المحاماة.

في الحقيقة كان هذا الجار العجوز ذا فائدة كبيرة لي فيما يتعلّق بحديقة خضراواتي، خاصة عندما لفت انتباهي إلى أن هناك عنصرًا هامًّا ينقص خضراواتي، وهو روث (زِبْل) البهائم، وأنه لو أضيف هذا الرَوْث إلى النباتات، يمكن مضاعفة إنتاج هذه الحديقة، وأنه لا يمكن لأي حديقة أن تنجح دون استعمال الروث كسماد طبيعي، وذكر لي في هذا المجال عنوان كتاب (المنزل الريفي)، للمؤلّفة الكونتيسة دي جان لي، ثم ذهب من أمامي وعاد بعد دقائق ومعه كمّية كبيرة من روث البقر، مما جعلني في الحقيقة أشعر بالاشمئزاز.

هو: بقدر العفن الموجود في هذه البقايا الحيوانية، بقدر ما سيكون نجاح خضراواتك.

أمّا أكثر ما كان يفخر به، فهو امتلاكه لنسخة من كتاب (العمل في زراعة الحدائق والحقول)، للمؤلّف أوليفييه دي سيريس، ويعود إلى القرن السابع عشر. قال لي: إن هذا الكتاب يتحدّث بوضوح ودقّة، عن الفنون الفلاحية التي تسمح بأفضل استغلال للأرض الزراعية، وفقًا للطبائع المختلفة للأراضي الزراعية، وللأجواء المناخية المختلفة في

مختلف دول العالم، وهو يجمع بين الطرائق التي لجأ إليها فلّاحو الحضارات القديمة، بالإضافة إلى الخبرات المكتسبة من العلوم الحديثة، وخبرات القرون الأخيرة، ثم أنهى حديثه قائلًا:

هو: إن هذا الكتاب هو باختصار توراتي وإنجيلي.

ثم جلس أمامي على الأرض في فناء منزلي، واستمرّ لمدة نصف نهار، في قراءة صفحات وصفحات من هذا الكتاب، ليصل في النهاية إلى نتيجة هي أنني لا أفهم أي شيء في الفلاحة، رغم أنني حتى الآن أتدبّر أموري بشكل لا بأس به. كنت أعرف أن هذا العجوز طيّب القلب، لذلك اعتبرت أن كلامه نوع من المدح والمجاملة، خاصة أن نبرة صوته عندما قال هذه العبارات الأخيرة، كانت نبرة دافئة حنون.

بعد مرور بضعة أسابيع، أدركت أن قدراتي الذهنية على استعادة ذكريات الماضي تسير من سيئ إلى أسوأ، وذات يوم رآني جاري العجوز في حديقتي، فجاء مسرعًا من منزله إلى حيث أقف، وقال:

هو: لم أرك منذ مدّة. أين كنت؟ وماذا تفعل؟

أنا: لم أفعل أي شيء، عدا أنني الآن هنا أشاهد خضراواتي وهي تنمو.

هو: هل هي تنمو الآن أمامك؟

أنا: نعم فهناك شيء ما أريد أن أفهمه، لم تذكره كتبك على الإطلاق، وهو لماذا لا تنمو سبانخي إلا عندما أدير لها ظهري؟ كأنها لا تريدني أن أراها وهي تنمو أمامي. أنا أجد أن هذا هو شيء غير مقبول

البتّة. أنا حتى أجد أن هذا هو عدم عرفان بجميلي عليها، فأنا مَن زرعها وسقاها ورعاها حتى نمت. إنها كما لو كانت تنكر جميلي عليها. فمَن ينزع عنها الأعشاب الضارة التي تنمو إلى جوارها، هذه السبانخ ناكرة الجميل؟

نظر إليَّ العجوز بتعاطف، ثم قال: أيها الصغير فلفل يجب أن أكون صريحًا معك، أعتقد أنك تحتاج إلى الرعاية الطبية، فإن حالتك تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، حتى أنني أخشى أن تكون حالتك قد أصبحت ميؤوسًا منها.

ظلّ يعيد على مسامعي هذه الجمل لشهور طويلة، كانت مشاكل ذاكرتي تزداد خلالها تعقيدًا، وينعكس هذا التعقيد على ملامح وجهي وجسدي، لدرجة أنني أصبحت غير قادر على المشي في خطوط مستقيمة، بل كان مشيي دائمًا في خطوط متعرّجة، كأنني لم أعد حتى أتذكّر هذه القاعدة الهندسية البسيطة التي تقول: إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين. هذا الخط المتعرّج هو أسلوب مشي السكارى، الذي بسببه يعودون متأخّرين إلى منازلهم. كنت بمجرّد خروجي من الكوخ أشعر بالضياع.

وعندما أذهب إلى شاطئ المحيط كان لديَّ اعتقاد جازم بأن كوخي يقع إلى جهة الشاطئ الآخر للمحيط، وأنّه ليس عليَّ إلا أن أمشي على الماء للعودة إلى منزلي، مثلما فعل تقريبًا شخص مشهور نوعًا ما اسمه المسيح، الذي حكوا عنه الكثير من الحكايات المشابهة في كتاب يسمُّونه المقدَّس. لكني في كل مرة كنت أحاول فيها الإقدام

على هذا الفعل، أتساءل بحب استطلاع حقيقي، كيف استطاع ذلك الشخص الإتيان بهذا العمل. ليس هذا فقط بل إنه دعا أحد أتباعه للذهاب إليه مشيًا على الماء هو الآخر. كنت أقنع نفسي بالامتناع عن المحاولة، قائلًا لنفسي إن الماء بارد جدًّا، وملوّث جدًّا بسبب قيام بعض المواطنين عديمي الحياء، بتفريغ حمولاتهم من البول والبراز فيه، على أساس ما انتشر من أقاويل، بخصوص كون ملح المحيط قادرًا على قتل الميكروبات. كنت أنصت إلى هدير الأمواج، فيتخيّل عقلي المريض أن كلّ شيء سينهار حولي؛ لاعتقادي بأن هدير الأمواج هو صوت انفجارات قنابل، أو لاعتقادي بأن هذه الأمواج قادرة على الإمساك بي، وأنا أقف على الشاطئ، وقادرة على سحبي معها إلى الأعماق لتبتلعني المياه ولا أخرج منها أبدًا. لهذا كنت أفضّل عند الذهاب إلى شاطئ المحيط أن أضع سدادات في أذنيَّ.

عند استفحال المرض لم يعد يؤثّر فقط على أسلوبي الجسماني في المشي، بل كذلك على كل شيء آخر، مثل أسلوبي النفسي في التعامل مع الناس، فبالنظر إلى ردود أفعالي عند وجودي وسط الناس، كان بعضهم يتولّد لديه الانطباع أنني شبح أحد الموتى، وأنني حتمًا مطرود من جبّانة. ثم كنت أقف عند مفترق الطرق وتقاطعات الشوارع، أتشاجر مع ظلّي بخصوص أي طريق أسلك. من الأشياء العجيبة التي حدثت لي في ذلك الوقت: أن كلاب الشوارع كانت تخشاني؛ لأنها بمجرّد أن تراني تجري بأقصى سرعتها مبتعدة عني، ثم تقف على بعد مئات الأمتار مني، ثم تبدأ في النباح باتجاهي، وقد اعتدت في تلك الحالات أن أردّ

على هذه الكلاب بالنباح أنا أيضًا، فكان أغلبهم يتوقّف عن النباح، كأنه يعترف لي بأنني تفوّقت عليه.

أثناء مواسم الجفاف الباردة، كنت أحْمي جسمي بارتداء غطاء كامل من الصوف، يبدأ عند العنق وينتهي عند أسفل الساقين، وأضع على رأسي قبّعةً من القشّ، وأتنقّل بين الأماكن ممسكًا في يدي عصا خشبية طويلة، أخيف بها صبية الشوارع الذين كان منظري هذا يشجّعهم على قذفي بالطوب والحجارة وحُصِيّ الشوارع. كنت أحيانًا أحاول أن أجري خلفهم، وأحاول أن أجعل عصاي تلحق بمؤخّرة أحدهم، لكنهم كانوا أخفّ مني وزنًا، وأسرع مني حركة، إذ كانوا يتمكّنون بسهولة من الاختفاء لا أعرف أين، في بضع ثوانٍ قصيرة. بردائي هذا الجديد، لم يكن الناس بقادرين على تمييزي، حتى جاري العجوز لم يستطع أن يعرف مَن هو الشخص المتنكّر.

وحيث إنني كنت أدور هكذا في الشوارع، ولا أعرف كيف أخرج من هذه المتاهة، ومن هذا التداخل والتشابك العجيب للصور التي كانت من قبل مألوفة، كان عليَّ أن أخترع لنفسي وسائل أتمكن بها من تحديد مواقع الشوارع، فكنت أستعمل عصاي في حفر علامات على تراب الشوارع، أستدلّ بها لو أردت الرجوع إلى منزلي، باستعمال نفس الشوارع التي مشيت فيها مبتعدًا عنه. أدرك الصبية الملاعين هذه الحيلة البسيطة، فكانوا يدورون خلفي يمحون هذه العلامات من على تراب الأرض، وبذلك ينجحون في تشتيت انتباهي من جديد. كنت أجهل أنهم على هذا القدر من الذكاء.

لأبتعد نهائيًّا عنهم اخترعت نزهة جديدة، هي زيارة كل مقابر المدينة في مواقعها المختلفة، ومحاولة اصطياد الفراشات التي تقيم فيها. كانت هناك فكرة غامضة في ذهني تقول: إن أمي الحقيقية التي تركتني رضيعًا أمام باب دار الأيتام -ولم أعرف أبدًا مَن تكون- لا شكّ في أنها ستكون مدفونة هنا في واحدة من مقابر المدينة. وذلك رغم أنني في الحقيقة كنت أشعر بالكره نحو هذه السيّدة، التي بدلًا من الاحتفاظ بي ورعايتي، رمتني هكذا في الشارع وأنا لا حول لي ولا قوة. كان دافعي الحقيقي وراء محاولة معرفة قبرها، هو أن أبصق عليه وعليها، وذلك بعد أن أحاسبها حسابًا عسيرًا على ما فعلته بي. لكني كنت أجهل كلّ شيء عنها. ولا أعرف حتى إن كانت قد ماتت أو أنها لا تزال على قيد الحياة.

كانت تتولّد لديَّ مشاعر كراهية تجاه كلّ الموتى، فأنا أحقد عليهم لأنهم يتمتّعون الآن بالراحة الأبدية، ويحصلون على كلّ تقدير واحترام، من جميع أفراد الشعب الكونغولي، الذين لا أحصل منهم الآن إلا على كلّ تحقير وإهمال. كنت أنجح أحيانًا في الانتقام منهم، وتصريف جزء من مشاعري المكبوتة وطاقتي السلبية تجاههم، بمحو ما هو مكتوب على شواهد قبورهم، فأبدأ بمحو الأسماء، ثم آتي بعد ذلك على تواريخ الميلاد والوفاة، كأنني بذلك الفِعل أمحو وجودهم كلّه من الحياة. وهكذا حدث في مرّات لاحقة أنني كنت ألاحظ بمزيد من السعادة حيرة العائلات في البحث عن أماكن دفن ذويهم. هذا هو ما يمكنني أن أعترف به الآن، وأنا أكتب هذا الكلام بعد مرور كلّ تلك

السنوات. كانوا ينحنون أمام شواهد القبور يبحثون عن أسماء ذويهم ولا يجدونها، فيعودون إلى وضعية الوقوف منتصبي القامات، وهم يضربون كفًّا بكفٍّ، وقد بدت على وجوههم ملامح الحيرة. كنت بذلك أسخر من الموتى ومن الأحياء في آن واحد. لكنني لم أدرك أنني بهذه السخرية يمكنني أن أثير غضب الأرواح التي يعجّ بها المكان.

بمرور السنوات لم أعد أكتفي بهذا القدر من الجنون، بل بدأت خاصة في الليالي التي يكون فيها القمر بدرًا، خلال السنوات الكبيسة، تتولّد لديَّ الرغبة الملحّة في أن أرى بطنًا عاريًا لزوجة رجل شرطة، خاصة منطقة سرّة البطن. أردت تحقيق هذه الرغبة المجنونة مهما كلّفتني من ثمن. كنت أذهب إلى النوم ولديَّ هذا الهاجس، وأستيقظ من النوم ولديَّ هذا الهاجس. ولتخفيف الضغط الحاد لهذه الرغبة على أعصابي، كنت أقول في نفسي إنني شاهدت خلال حياتي العديد من البطون العارية لرجال ولنساء من كبار السنّ ومن صغار السنّ. لكن رغبتي العنيفة كانت لا تهتم بكلّ تلك البطون السابق رؤيتها، لأنها تريد فقط رؤية بطن زوجة رجل شرطة. هذا هو نوع من الوسواس القهري، وفقًا لمصطلحات الطب النفسي الحديث.

وهكذا بدأت تصرّفاتي تتسم بالكثير من التهوّر، إذ كنت عند مقابلة امرأة تسير وحدها في الشارع، أذهب إليها لأسألها إن كانت زوجة رجل شرطة، فتجحظ عيناها من الاندهاش، وتقول:

هي: هل فقدت عقلك أم ماذا؟ أيها الأحمق المسكين.

في نهاية المطاف عثرتُ على امرأة تسكن في الجوار، يبدو أنها

رقّت لحالي، بعد أن لاحظت أنني أظلّ واقفًا في الشارع لساعات طويلة، أسأل النساء الوحيدات نفس السؤال، فيكون ردّهنّ هو نفس الردّ، فجاءت ذات يوم لتقف أمامي قائلة، إن زوجها لديه مكتب تسجيل عقود عقارية في وسط المدينة. فقلت لها بنبرة رافضة: إن زوجكِ لديه مكتب تسجيل عقود عقارية، وأنا أبحث عن امرأة تكون زوجة رجل شرطة، وهذا ليس هو نفس الشيء، فزوجكِ يكسب لقمته من العمولات التي يحصل عليها من وَرَثة التركات الكبيرة، في حين أن ضابط الشرطة يكسب عيشه بوضع القيود في أيدي المساجين.

هي: لكنني مع ذلك يمكنني أن أريك سرّة بطني.

أنا: أنا أريد رؤية سرّة بطن زوجة رجل شرطة. نقطة ومن أول السطر.

شاهدت على وجهها ملامح المهانة وخيبة الأمل. وبمرور الوقت تخلّيت عن هذه الرغبة؛ لأني سمعتهم يتحدّثون في أحد المقاهي عن رجل مات بأزمة قلبية بعد أن رأى سرّة بطن زوجة رجل شرطة.

* * *

(١٠)

بعد سنوات طويلة من الإقامة في كوخ ماما فيات، اشتقت العودة إلى زيارة الشاطئ المهجور، أحد مراتع صباي. وطبعًا لم يعد المتشرّدون المقيمون هناك هم أنفسهم الذين عرفتهم هناك قبل سنوات عديدة، وعشت معهم هناك حوالي ثلاث سنوات. شعرت على الفور بأنني أكبر الموجودين سنًّا. سمعت بعضهم يقول للبعض الآخر:

هم: لا شكّ في أن هذا الرجل الذي يلعب علينا الآن لعبة فقدان الذاكرة، غالبًا سيكون مدسوسًا علينا من طرف الشرطة. ولو تحدّثنا بحرّيتنا أمامه عن أسرارنا، سيذهب حتمًا إلى رجال الشرطة ويخبرهم بأسرارنا.

أقسمت أمامهم أنه لا صلة لي بالشرطة، وأنني سأعود حتمًا إلى الكوخ الذي أعيش فيه، بالقرب من ضفاف نهر تشينوكا، لكن المشكلة هي أنني لم أعد أعرف الطريق الذي ينبغي عليَّ أن أسلكه للعودة إلى كوخي.

أحدهم: إذَنْ فأنت لا تعرف من أين أتيت؟ لكنك تعرف أنك تعاني من حالة مزمنة لفقد الذاكرة؟

اعتقد هؤلاء الشباب من متشرّدي الشاطئ المهجور، أن الحقيقة هي أنني متخلّف عقليًّا. وقد أمكنني بصعوبة تحمّل هذه الكلمات القاسية الشرّيرة التي يشيرون بها إلى تخلّفي العقلي. لكني لم أتحمّل ما قالوه بعد ذلك من أن أسلوبي المتلعثم المفكك غير المتماسك في الكلام هو أشبه بأسلوب القردة في اللجلجة المألوفة في أصواتهم، وهو كذلك الدليل على أن الإنسان أصله قرد. ثم تحوّلت هذه العُصْبَة من الشباب إلى نوع من الألعاب الخطيرة، إذ أحاطوا جسدي بملاءة بيضاء كأنها كفن، ثم دفنوني في حفرة بالأرض الرملية حفروها على عجل. ثم بدأوا يدورون حولي وهم يكرّرون اسم دون كيشوت، المشهور بمحاربته لطواحين الهواء، الأعداء الوهميين، في معارك ملحمية. إذَنْ هؤلاء الشباب -رغم كلّ شيء- على درجة لا بأس بها من الثقافة العامة. قال لي أحدهم بنبرة احتقار وتصغير شأن.

هو: إن مشكلتك الحالية يا مَن كانوا يطلقون عليه سابقًا لقب فلفل الصغير أن فمك قد اتخذ وضعًا متيبّسًا، وهو ما يدلّ دلالة قاطعة على بلاهة عضوية، نابعة من أحشائك، لذلك من المؤكّد أن وضعك سيتدهور يومًا بعد يوم. فأنت في حياتك اليومية لا تتحدّث إلا إلى نفسك، وأحيانًا تتحدّث إلى أعمدة الإضاءة الكهربائية في الشوارع، متخيّلًا أنهم رجال عمالقة ينبغي عليك قتالهم. من المؤكّد أن كلّ مَن يراك يدرك حقيقة أنك سليل القِرَدَة.

لم أعد أحتمل هذه الإهانات المتتالية، فرددت عليه.

أنا: وأنت كذلك ستكون من فصيلة قردة أخرى غير الفصيلة التي أنتمي إليها أنا.

ردّ عليَّ نفس المُضْحِر المُمِل قائلًا: هل تريد أن أردّ عليك هذه المرّة أيها العجوز لا بلساني بل بقبضة يدي في وجهك؟

كنت بالكاد في الثلاثين من عمري، وهم يلقّبونني بالعجوز.

هو: أيها الأحمق إن المدافن تنتظرك وأنت لا تريد أن تموت. فبينما كلّ الناس الحقيقيون يغادرون الأرض، يظلّ فيها أشباه القردة من أمثالك. ماذا تفعل في هذه الحياة؟ هل يمكنك أن تذكر لي فائدة واحدة يستفيدها الناس من وجودك في هذه الحياة؟

ثم أدار لي ظهره وابتعد عني، وهو يرفع يده اليمنى في الهواء، وقد بدا فيها واضحًا الإصبع الوسطى المفرودة، بينما بقيّة أصابع نفس اليدّ مطويّة.

❊ ❊ ❊

(١١)

أتذكّر أنه ذات ظهيرة صيفية شديدة الحرارة، كنت في سيّارة نقل عام شديدة الازدحام، تابعة لهيئة النقل الداخلي لبوانت نوار، وفوجئت في لحظة ما بضربات كوع متتالية في جنبي، من ذراع شخص يقف إلى جواري، فما كان مني إلا أن رددت بالمثل، حتى أن جاري العجوز، الذي كان يصاحبني في تلك اللحظة، قال إنه لا ينبغي ردّ الإساءة بالمثل، وطلب مني أن أهدأ وأُحسِّن سلوكي، حتى لا يدرك الناس أنني منذ سنوات أعاني من مشكلة عقلية هنا في المخّ. ثم أشار بإصبع يده إلى رأسي.

لم نكن قد تقابلنا منذ شهور، ولذلك أبدى لي تعجّبه من أنني تمكّنت من الاختفاء عنه طوال تلك الشهور، حتى أنه لم يكن يراني ولم يكن يعرف أي شيء عني. لم يصدّق أنني كنت على الشاطئ المهجور، وأن السبب في اختفائي هو ببساطة شديدة أنني طوال هذه المدّة لم أكن أعرف طريق العودة إلى الكوخ. هذا هو السبب فقط لا غير. لا يوجد سبب آخر. قال لي: إنه كان يبحث عنّي في كل شوارع كلّ أحياء المدينة، وكان يسأل كلّ الناس عني، حتى عثر بالصدفة البحتة على مَن دلّه على مكاني في الشاطئ المهجور.

كنا معًا الآن في سيّارة النقل العام التي ستعيدنا إلى الحيّ الذي نقيم فيه كلانا، وكنت أشتكي له من شدّة حرارة الجوّ، ومن رائحة العرق الكريهة بسبب شدّة التزاحم. ثم عرفت منه أننا لا نأخذ الآن طريق العودة إلى كوخينا، بل نحن نأخذ طريق الذهاب إلى الوسط التجاري للمدينة، بهدف زيارة أحد أطبّاء الأمراض العقلية في عيادته. كان هذا هو الوضع عندما قال:

هو: سترى بنفسك كم هو رائع هذا الطبيب. إنه الطبيب الوحيد في المدينة القادر على علاج جميع الأمراض العقلية، بل ربّما الطبيب الوحيد في البلاد كلّها، حتى أنني لا أعرف ما الذي جاء به من فرنسا إلى مدينتنا، إذ كان جديرًا به البقاء في فرنسا، حيث حصل على أعلى الشهادات العلمية في تخصّصه، وحيث كان يكسب أموالًا طائلة مثل كل الأطباء البيض الفرنسيين.

بعد لحظة صمت.

هو: هذا الطبيب هو الذي تمكّن من علاج ابني كاكا، الذي يبلغ الآن خمسين عامًا، بعد أن كان قد ظلّ طوال العشرين عامًا الأخيرة يتجوّل في جميع شوارع المدينة ليلًا ونهارًا، وهو في حالة عري تام، ولا يغطّي حتى عورته. ابني هذا كان غريب الأطوار طوال حياته. قيل لي في صباه إن دودة من ذوات الأربع وأربعين ساقًا، قد دخلت إلى مخّه، حيث لا تزال تسكن. أما أنا فأقول إنني بعد أن طلّقت أمه، كان زوجها الجديد هو المتسبّب في ضياع ابني كاكا، عندما سلّط عليه الأرواح الشرّيرة، وهي التي قامت بإتلاف نسيج مخّه. وقد نجح الطبيب في علاجه، حتى أنه الآن أصبح شخصًا جديدًا تمامًا، أصبح شخصًا طبيعيًّا، يعيش حياة طبيعية،

ويرتدي الملابس المستوردة من أوروبا، وقد تزوّج من فتاة كانت ملكة جمال مدينتنا ذات يوم. وهما يأكلان معًا قطع الشوكولاتة المستوردة من أوروبا، من تلك القطع التي تغطّيها حبّات الكريز. وقد حصل مؤخّرًا على وظيفة رئيس المستخدمين في سوبر ماركت برينتانيا. وسيكون لك أنت أيضًا يا صديقي نفس هذا المستقبل السعيد.

بقيت طوال الطريق مطرق الرأس، لا أفكر إلا في كيفية استردادي لزجاجتي جعة، تركتهما تبردان في رمال الشاطئ، ثم جاءت إلى ذهني خيالات غريبة أن إحدى الزجاجتين ذكر والزجاجة الأخرى أنثى، وأنهما حتمًا سيتناسلان أثناء غيابي، وينجبان لي عددًا كبيرًا من زجاجات جعة أصغر حجمًا، حتى تتحوّل كلّ مياه المحيط إلى جعة... هكذا كان عقلي يعمل. غادرنا سيّارة النقل العام عند المحطّة الواقعة أمام مقرّ الشركة الوطنية لتوزيع الكهرباء والماء. تنفّس صديقي العجوز بارتياح.

هو: هنا في هذا المبنى الجميل حيث مقرّ الشركة الوطنية، توجد كذلك عيادة الطبيب (كيلاهو).

دخلنا إلى المبنى ووقفنا أمام باب المصعد ننتظر وصوله.

هو: هذا الطبيب يستقبل مرضاه وحدهم، ولا يستقبل أبدًا ذويهم المرافقين لهم من أفراد العائلة أو أصدقاء المريض، وأنا أحترم رأيه هذا؛ لأنه تمكّن بذلك من علاج ابني (كاكا).

أنا (قلقًا): إذَنْ سترحل هنا الآن وتتركني وحدي؟

هو: أنت ستصعد وحدك، وأنا سأبقى هنا في هذه القاعة في انتظارك، وسأظلّ أنظر إلى باب المصعد طول الوقت، منتظرًا لحظة هبوطك به، حتى لا تهرب مني مرّة أخرى، وتختفي من جديد لمدّة شهور طويلة. أؤكّد لك أنني لن أغادر مكاني حتى تهبط.

أنا: أنا لا أريد أن أتحدّث عن حياتي مع أحد الأغراب، هذا سيجعلني حتمًا أفقد أعصابي.

هو: أرجوك كن عاقلًا ولطيفًا، ولا تتحدّث معه بنفس الطريقة التي تتعامل بها مع رفقاء السوء من ساكني الشاطئ المهجور، تذكّر أنه طبيب، وأنه درس ومارس الطبّ في فرنسا، حيث كان كلّ زملائه من الأطباء البيض.

عند وصول المصعد فتح بابه ودخل معي إليه، وضغط على زرّ أحد الأدوار، ثم خرج على الفور فانغلق الباب عليَّ وحدي. قبل أن يبدأ المصعد في الحركة، لمحت جاري العجوز يجلس على أحد مقاعد قاعة الانتظار، ويمدّ يده إلى إناء موضوع فوق المائدة، به على ما يبدو بعض قطع الحلوى. عندما وقف المصعد في الطابق وفُتِحَ بابه، خرجت منه على الفور قفزًا، كأنني أخرج من قفص كان فخًّا لاصطياد أحد الحيوانات. وجدت أمامي بابين، على أحدهما توجد لوحة معدنية كتبت عليها هذه العبارات (دكتور لوسيان كيلاهو/ طبيب أمراض نفسية وعقلية/ دبلوم مدرسة الطبّ بباريس/ طبيب مقيم سابق بمستشفيات باريس)، وعلى لوحة صغيرة أخرى توجد أسفل اللوحة الأولى يمكن أن نقرأ (ادخل دون طرق الباب). مع ذلك طرقت الباب، حيث وجدت

بالداخل امرأة متقدّمة السنّ، ذات ساقين طويلتين، تشبه سيقان الطيور المائية من فصيلة البلشون أو دجاج البرّ، وهي طيور لها سيقان طويلة، وأعناق طويلة، تعيش فوق المسطّحات المائية. كانت هذه السيّدة تضع فوق عينيها منظارًا طبيًّا بعدستين كبيرتين. نظرت إليَّ وتفحّصتني من رأسي إلى قدمي.

هي: سيصل الطبيب بين لحظة وأخرى، إنه يجري اتصالًا هاتفيًّا.

أنا: لا أستطيع أن أنتظر طويلًا.

هي تنظر إليَّ بشكل عدائي.

قالت: أنت لم تأخذ موعدًا مسبّقًا، ومع ذلك تقول إنك في عجلة من أمرك. لذلك أقترح عليك أن تأخذ الآن موعدًا ليوم آخر، حتى يمكنك أن ترحل على الفور في سلام؛ لأنك تريد ذلك، فأنت كما تقول في عجلة من أمرك.

بينما كنت أتفحّص شَعرها الأشقر المستعار، الذي لا يغطّي إلا ثلث قمّة رأسها، غمغمت داخل رأسي (اهدأ يا صغيري فلفل، ولا تجعل جارك وصديقك العجوز ييأس من شفائك). شعرت المرأة بالحرج من تثبيت عينيَّ عليها. كان ردّ فعلها الفوري هو أن مدّت يدها إلى شَعرها المستعار تحاول أن تصلح من شأنه، بتحريكه قليلًا إلى الأمام لتقليل المساحة المكشوفة من جبهة الوجه، ولإخفاء بعض الشعيرات الرمادية الظاهرة من تحت الشَّعر المستعار. تساءلت لماذا لم تختر شَعرًا مستعارًا أكبر حجمًا؟ قدّمت إليَّ إحدى الجرائد اليومية، وجدت عليها تاريخًا من العام السابق. ما جدوى جريدة يومية عمر أخبارها عامٌ كاملٌ؟

طلبت منّي الانتظار في قاعة شاسعة الأرجاء، تغطى جميع حوائطها بصور طبية، تبيّن تفاصيل تشريح المخّ البشري داخل جمجمته من زوايا مختلفة، مقارنة بأمخاخ غيره من الكائنات، مثل الفيل والغوريللا والكلب والقطّ والفأر، ودرفيل المياه المالحة. توقّفت لبعض الوقت أمام رسومات العقل البشري، التي كانت مخيفة بالنسبة لي، خاصة مسألة الشبه بين قوام المخّ، وبين العجينة التي تنتج من إضافة بعض الماء إلى دقيق القمح. كنت أكتشف هنا الآن لأول مرة في حياتي، الأسماء التي أطلقها العلماء على أجزاء المخّ، مثل الثالاموس وما تحت الثالاموس، وكوبري فارول، والمخّيخ، والنخاع المستطيل، والغدّة النخامية، والجسم الصنوبري... ما كلّ هذا! تخيّلت هذه المرأة مساعدة الطبيب، التي تتابعني ببصرها أثناء حركتي بين الصور، وهي تخلع شَعرها المستعار بعد الانتهاء من عملها اليومي، ثم تكشف عن علبة جمجمتها، فتفتحها وتخرج ما بداخلها من عجينة المخّ الهلامية، وتنظّف العلبة العظمية من الأتربة، ثم تعيد مادة المخّ إلى داخل علبتها. هكذا كان عقلي يعمل.

طردت هذه الأفكار من دماغي، وأمسكت بالجريدة التي أعطتني السيدة إيّاها، فإذا بي أكتشف أن صورة عمدة المدينة فرنسوا ما كولي، تشغل أغلب صفحات الجريدة، فكان ردّ فعلي الفوري أن أغلقت صفحات الجريدة، وألقيت بها على أرض القاعة، فإذا بالمساعدة توجّه لي عن بعد، نظرة عتاب غير مرحّبة بما فعلته.

(١٢)

بعد ربع ساعة ظهر أمامي رجل سمين أصلع الرأس، اقترب منّي ومدّ إليَّ يده الرطبة. بدت على وجهي ملامح التردّد والشكّ.

أنا: هل أنت أيضًا تعمل هنا؟

هو: أنا الطبيب لوسيان كيلاهو.

إذا كنت لم أدرك أنه الطبيب؛ فذلك لأنه لم يكن يرتدي القميص الطويل الأبيض الذي غالبًا يرتديه الأطبّاء فوق ملابسهم. من الغريب أنه كان يرتدي زيًّا شعبيًّا قبائليًّا، مزيّنًا عند فتحات الكُمّيْن والعنق بعناصر زخرفية مطرّزة بخيوط ملوّنة لامعة تبرق في الضوء، أصابتني بالصداع النصفي عندما نظرت إليها طويلًا.

هو: هل لك أن تتبعني يا أستاذ؟

قادني إلى حجرة باردة، بسبب تشغيل جهاز تكييف بارد فيها إلى حدوده القصوى، تزيد من برودتها حوائطها المدهونة كلها بلون أبيض شاهق البياض. أشار إليَّ بيده أن أجلس فوق كرسي مريح من الجلد. جلس هو على كرسي آخر في مواجهتي. جلس بذراعيه معقودتين

متقاطعتين على بطنه المنتفخ. جذبت انتباهي صورة فوتوغرافية مؤطّرة، معلّقة على الحائط خلف كرسي الطبيب، هي صورة عائلية له مع زوجته الشقراء، وابنته المراهقة ذات اللون الخلاسي، اللون الذي يشبه مشروب اللبن بالشوكولاتة، الناتج عن تزاوج اللونين الأبيض والأسود. لكن المراهقة المسكينة كانت تحمل ملامح وجه أبيها لا وجه أمها.

هو: تحدّثت بالهاتف مع جارك الذي عالجت له ابنه، وتناقشنا طويلًا في حالتك، وأبديت له اهتمامي بك. في الحقيقة أنا الذي اقترحت عليه أن يأتي بك إلى هنا في نفس اليوم الذي سيعثر فيه عليك حتى دون موعد مسبّق. هو كان دائم البحث عنك، ويبدو أن مسألة البحث عنك لم تكن مسألة سهلة، بدليل أنها استغرقت شهورا طويلة. على أي الأحوال أنا على علم بكل المتاعب التي واجهتك، خاصة خلال تلك الفترة الأخيرة من حياتك. لكني قبل كل شيء أريد أن أؤكّد لك أن جارك وصديقك يكنُّ لك كلّ مشاعر الاحترام والإخلاص.

أنا: لكنه تركني هنا الآن وعاد وحده إلى منزله.

هو: لا لا إنه لم يتركك هنا وحدك، بل هو يجلس ينتظرك في قاعة الانتظار بالطابق الأرضي، انظر..

ثم أشار لي بيده إلى شاشة تلفزة داخلية، باللونين الأبيض والأسود، لم أكن لاحظت وجودها، تصوّر قاعة الانتظار بالطابق الأرضي، رأيت فيها جاري وصديقي وهو جالس على أحد كراسيها، ومستمرّ في التهام قطع الحلوى من الطبق أمامه. أطفأ الطبيب شاشة المراقبة.

هو: أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة.

أنا: أيّ أسئلة؟

هو: في لغتنا الطبية نقول إن هذه الأسئلة هي بغرض اختبار مدى سلامة أو تلف ذاكرة المريض. وأنا في كلّ مرّة أستعمل هذه الأسئلة، أحاول أن أجعلها قدر الإمكان تناسب حالة كلّ مريض على حدة، وتناسب طبيعة الحياة في بلادنا، واختلافها عن طبيعة الحياة في أوروبا.

ثم قدّم إليَّ مجموعة كبيرة من الصور، وفتح صفحة جديدة في كرّاسة موضوعة على المكتب أمامه. ثم طلب مني أن أعلّق ولو بكلمة واحدة على كلّ صورة يعرضها عليَّ، أو إذا كانت الصورة لشخص من المشاهير، فعليَّ أن أذكر اسمه. كانت أغلب الصور لشخصيّات مشهورة في بلادنا الكونغو، أو في فرنسا، أو من بين مشاهير السود في أمريكا، مثل محمد علي كلاي، أو مارتن لوثر كينج. استغرقت مسألة الصور هذه حوالي نصف ساعة. بدأ بعد ذلك يسألني عن طفولتي، وعن فترة بداية مراهقتي في دار أيتام لوانجو، وماذا كان تأثير غياب أمي وأبي عن طفولتي. أدركت من هذه الأسئلة الأخيرة أن الطبيب كان قد حصل على معلومات كثيرة من جاري عن تلك الفترة المبكّرة من حياتي.

أصرّ الطبيب بعد ذلك على معرفة إمكانية قيامي وحدي بالمهام المطلوبة في الحياة العادية اليومية، فسألني مثلًا عن أسماء الشوارع التي على المرء أن يسلكها لو أراد الذهاب والإياب بين الحيّ الذي أسكن فيه وشاطئ المحيط الأطلنطي المهجور؟ سألني ما هو بالتحديد العنوان الذي يوجد فيه الكوخ الذي أسكنه، رقم المنزل واسم الشارع؟ وما هي أسماء الشوارع بين حيّ ركس حيث عيادة الطبيب، وحيّ الثلاثمائة

حيث الكوخ الذي أسكن فيه؟ سألني بعد ذلك عن ما هي آخر الأخبار العالمية التي استمعت إليها في الإذاعة، أو قرأت عنها في الجرائد؟ ثم سألني ما ترجمة بعض الكلمات بلغة اللينجالا إلى اللغة الفرنسية؟ عند إجابتي على كل سؤال كان الطبيب يضع علامة ما في الكرّاسة التي أمامه. حاولت أن أنظر إلى ما في داخل الكرّاسة، فطوى صفحتها وأبعدها عنّي. فهمت أن مجموع الدرجات التي سأحصل عليها في نهاية هذا الاختبار، هو الذي سيمكّن الطبيب من الحكم على مدى تدهور حالتي العقلية.

ثم بدأت أشعر بالضيق من أسئلة هذا الطبيب، انظروا مثلًا إلى هذا السؤال.

هو: هل أنت رجل أم امرأة؟

أنا: هذا يتوقّف على الزمن الذي يُطرح عليَّ فيه هذا السؤال، فأنا أتغيّر من رجل إلى امرأة ومن امرأة إلى رجل، وفقًا لأيّام الأسبوع وشهور السنة.

لاحظت علامات الذهول على وجه الطبيب، بدليل انتفاض شَعر شاربيه على جانبي وجهه، فالشاربان اللذان كانا متدلّيين انتصبا، وهو دليل على الاستعداد للهجوم.

هو: واليوم مثلًا هل أنت رجل أم امرأة؟

أنا: من الجائز هذا اليوم أن أكون أحيانًا رجلًا، وأحيانًا أخرى امرأة، أو أن أكون في نفس الوقت مزدوج الجنس، رجلًا وامرأة في نفس الوقت.

هو: ما اسمك؟

أنا: الصغير فلفل.

هو: أقصد ما اسمك الحقيقي لا اسم الشهرة؟

أنا: إنهم يدعونني الصغير فلفل حتى وأنا في هذه السنّ. ثمّ أنا لم أعد أهتمّ باسمي الحقيقي؛ لأنني ليست لي عائلة تتكوّن من زوجة وأطفال، ولأنني منذ البداية كنت دون أب أو أم أو إخوة أو أخوات. لذلك من الأفضل أن يكون لي اسم شهرة عن أن يكون لي اسم حقيقي. لكني أودّ الآن لو استطعت تغيير اسم شهرتي.

هو: ماذا على سبيل المثال؟

أنا: روبين هود.

هو: لماذا هذا الاسم الأجنبي؟

أنا: هذه المسألة سيطول شرحها أيّها الطبيب.

هو: إذَنْ سأعود الآن إلى طرح نفس السؤال، الذي لم تستطع أن تجيبني عليه، وهو ما اسم رئيس جمهوريتنا الحالي، زعيم الأمّة؟

أنا: فرنسوا ماكولي.

هو: لا... هذا غير صحيح، فإن هذا الاسم هو لعمدة مدينتنا بوانت نوار، وليس لرئيس جمهوريتنا. إن هذا هو بالتحديد السبب في أن مساعدتي قدّمت لك جريدة من العام الماضي، بها الكثير من الأخبار عن رئيس جمهوريتنا، زعيم الأمّة، حتى تتعرّف عليه وتعرف اسمه. وهي قالت لي: إن ردّ فعلك كان غريبًا، فقد ألقيت بنسخة الجريدة على

الأرض. هل يمكنك أن تشرح لي ما السبب في ردّ الفعل الغريب هذا؟

أنا: هذه الجريدة قديمة عليها تاريخ من العام الماضي.

هو: أنا أعرف ذلك، لكننا لا ننتخب رئيس جمهورية كل عام، بل إن رئيس الجمهورية يشغل هذا المنصب لعدّة سنوات، وأحيانًا يظلّ رئيسًا للجمهورية مدى الحياة.

قرّرت بعد هذا الحوار أن أقطع الطريق على هذا الطبيب المملّ، حتى يتوقّف عن الاستطراد في كلّ مرة، ولا يتحدّث عن المزيد من هذه المواضيع المملة. لذلك حاولت تغيير الموضوع.

أنا: وماذا بشأن هذه الحقن؟

هو: عن أي حقن تتحدّث؟

أنا: يجب أن تعرف أيها الطبيب، أنني أخشى الحقن، وبمجرّد رؤيتي لها في يد الطبيب أو الممرضة، أفقد وعيي وأسقط على الأرض.

هو: أستاذ فلفل الصغير، أؤكّد لك أنه ليست هناك أي حقن. على الأقل لن يحدث هذا اليوم. إذَنْ ليس هناك ما يدعو إلى فقد الوعي والسقوط على الأرض.

أنا: إذَنْ هل معنى هذا أنه ستكون هناك حقن في المرّة القادمة؟

هو: قد لا تكون هناك مرّات قادمة، فكل شيء يتوقّف على نتيجة الاختبار الذي أجريه لك الآن.

شعرت أنه يسخر مني. خاصة أن الابتسامة التي كانت على وجهه قد اختفت، وظهر بدلًا منها تعبير التجهّم. ثم أصبحت نظرته قريبة الشبه

من نظرة إنسان عادي عند رؤيته لكائن فضائي. هذه النظرة الأخيرة هي التي جعلتني أعتقد أنني مصاب بمرض خطير جدًّا، ليست هناك وسيلة لعلاجه، وأن الطبيب يتردّد في ذكر اسم هذا المرض لي. لكن من الجائز كذلك أن هذه التعبيرات على وجه الطبيب هي حيلة يلجأ إليها الأطبّاء لجعل المريض يبوح بكلّ أسراره.

هو: أعرف أنني أخذت من وقتك أكثر مما يجب، لذلك سأسرع قليلًا في ما تبقّى من خطوات الاختبار.

أشار بيده إلى مائدة في منتصف الحجرة، خلف الكرسي الذي أجلس عليه، عليها أشياء مختلفة، فأدرت رأسي لأنظر إلى هذه الأشياء.

هو: هل هذه الأشياء الموجودة فوق المائدة لا توحي إليك بشيء؟

أنا: لا... هذه الأشياء لا توحي إليَّ بأيّ شيء.

هو: أستاذ فلفل أرجو أن تتعاون معي أكثر من ذلك، وتعيد النظر إلى تلك الأشياء.

أنا: هذه الأشياء ليست ذات فائدة أو نفع لأي شخص. بل حتى إنني أتساءل، هل من المنطقي وجود مثل هذه الأشياء هنا في عيادة طبيب؟

هو: سأكون صريحًا معك، فأنا لا أتحدّث معك هنا منذ ساعة، بغرض اللهو أو العبث، وأريدك أن تتذكّر أنني حصلت على شهادتي العالية من باريس، وأنني مارست هذه المهنة في مستشفيات باريس. لذلك أطلب منك فقط أن تعطيني أسماء بعض هذه الأشياء الموجودة على هذه المائدة.

لم أتركه يخيفني بلهجته الجديدة تلك التي شعرت معها بقدر من التهديد.

أنا: أكرّر عليك قولي بأن هذه الأشياء الموضوعة على المائدة لا توحي لي بأي شيء.

هو: يمكنك على الأقلّ أن تذكر لي أسماء بعض هذه الأشياء، فإنه لا غنى لأحد عنها، ولا شكّ في أنه لديك مثل بعضها في منزلك.

أنا: لا أستطيع أن أستمرّ في إدارة رأسي بهذه الطريقة.

هو: أنت تستطيع، ولكنك لا ترغب.

وقفت في مكاني ورفعت ياقة قميصي إلى أعلى.

أنا: إذا كان الأمر قد وصل إلى هذا الحدّ، فأنا سأغادر الآن هذا المكان.

هو: أيها الأستاذ فلفل، كنت أريد فقط أن أسمعك وأنت تنطق أسماء بعض هذه الأشياء، فتقول (هذه ملعقة) و(هذا طبق)، وأننا نستعملهما في أكل الطعام السائل مثل حساء الخضراوات.

أنا: هل تريد أيها الطبيب أن أذكر لك ما المشكلة الحقيقية التي أعاني منها؟

هو وقد اضطرب قليلًا: أنا هنا فقط لأنصت إلى ما تقوله.

أنا: إن مرضي هذا يأتي من مكان بعيد جدًّا.

هو: ماذا تقصد؟

أنا: بدأ المرض في طفولتي أثناء درس في قواعد اللغة الفرنسية عن المكمّلات الظرفية الزمانية والمكانية، تلك المكمّلات التي تُضاف إلى نهايات الجمل، لتقدّم المزيد من التفاصيل عن الظروف الزمانية أو المكانية، التي وقع فيها الحدث الرئيس في الجملة، وتكون أحيانًا لا زمانية ولا مكانية، بل تصف الطريقة التي تمّ بها الحدث، وتُسمَّى في تلك الحالة المكمّلات الأسلوبية.

عندما أنهيت هذه العبارات، انفجر في الضحك.

هو: لم أحصل أبدًا طوال حياتي المهنية، على إجابة بها هذا القدر من الحسّ الفكاهي. لكن قل لي أولًا ما العلاقة بين مرضك العقلي وبين المكمّلات الظرفية؟

أنا: اسمح لي أن أسألك أنا أولًا، هل تعرف ما الدور الذي تلعبه المكمّلات الظرفية في الجملة الفرنسية؟

هو: أعترف أنك فاجأتني تمامًا بهذه الإجابة غير المتوقّعة.

أنا: سأشرح لك ما أقصده. إن الفعل لو ظلّ وحده في الجملة دون المكمّلات الظرفية، فلن يكون مفهومًا تمام الفهم. وأنا أعتقد أنني فقدت أغلب ذاكرتي، منذ أن نسيت أغلب المكمّلات الظرفية التي درستها في المدرسة الابتدائية؛ لذلك أصبحت كل أفعالي غير ذات معنى، بلا زمان محدّد ولا مكان محدّد، أصبحت أفعالي في حالة يُتْم، مثل حالتي وأنا طفل صغير. وأنا لم أتحدّث إليك بعد عن مكمّلات المفعولين المباشر وغير المباشر...

هو: اسمع... يكفي جدًّا كلّ هذا. أذكّرك أنني طبيب ولست مدرّسًا للغة الفرنسية، وسأعود إلى قوائم أسئلتي أنا بهذا السؤال، ما آخر ذكرى شخصية تحتفظ أنت بها في مخّك الآن؟

أنا: رأيت الأقزام وهم يدوسون بأقدامهم على الخضراوات المزروعة في حديقة فناء منزلي. برأيك أنت ماذا كان عليَّ أن أفعل في تلك الحالة؟ لقد قمت بطردهم جميعًا، بعد أن شاهدت بعينيَّ أنهم أتلفوا قدرًا كبيرًا من سبانخي الصغيرة المسكينة، التي كانت بالكاد قد بدأت تنمو، وكنت أراعي سقيها بالماء كلّ يوم.

هو: أليس من بين هؤلاء الأقزام أي شخص تعرفه معرفة شخصية، أو كان من بين أصدقائك القدامى؟

أنا: لا... أنا لا أعرف أحدًا منهم. لكنهم كانوا موجودين بأعداد كبيرة في حديقة فناء منزلي.

هو: وكيف تمكّنت في النهاية من التخلّص منهم؟

أنا: قذفتهم في وجوههم بالماء المشبّع بالشطّة الحمراء، فهربوا جميعًا في سيّارة تابعة للشركة البحرية.

هو: أنت كنت يومًا عاملًا لنقل البضائع في مخازن الشركة البحرية.

أنا: لم أكن مجرّد عامل نقل بضائع، بل إنني كنت أكثر أهمّية من ذلك بكثير.

هو: وهل كان من بين زملائك هناك أي أقزام؟

أنا: لم يكونوا من بين زملائي، بل كنت أنا رئيسهم. كيف تقول

لفلفل الصغير إنه كان زميلًا للأقزام؟ هذه إهانة.

هو: هل كنت أنت نفسك قزمًا في يوم من الأيّام؟

أنا: هذا يتوقّف على الأيام والشهور كما سبق وقلت لك. فلو أنك تتحدّث هنا عن فترة ما قبل التاريخ، على زمن الديناصورات، فكلّ بشر ذلك الزمن كانوا من بين الأقزام، إذا قُورنت أحجامهم الصغيرة بأحجام الديناصورات.

هو: هل أفهم من ذلك أنك كنت تعيش في زمن الديناصورات؟ أو أنك على الأقلّ شاهدت يومًا ما أحد الديناصورات؟

أنا: طبعًا رأيت عشرات الديناصورات، إذ يوجد الكثير منها على ضفاف نهر تشينوكا، وقد رآها معي الكثير من سكّان تلك النواحي، وقد رآها حتى أولئك الذين كانوا يمرّون بالصدفة البحتة بالقرب من تلك النواحي. وعلى خلاف ما يظنّه أغلب الناس، فإن الديناصورات هي حيوانات لطيفة، غير مؤذية على الإطلاق لو لم تحاول أنت أن تؤذيها، بل هي تتصرّف مع البشر بذوق وكياسة.

هو: هل تحتسي الكثير من الخمور كلّ يوم؟ هل أشمّ في أنفاسك الآن رائحة الخمر؟

أنا: أنا أفعل مثل كل الناس الذين يحتسون الخمور. أنا أشرب صندوقًا من علب البيرة كل يوم، مثلما يفعل كل الناس الذين أعرفهم، ويمكنني أن أذكر لك الآن قائمة كاملة بكلّ أسمائهم. أنا لا أريدك أن تظنّ أنني المواطن الوحيد في المدينة، الذي يحتسي كل هذه الكمّية من

الخمور كلّ يوم. صديقي الوحيد الذي توقّف عن شرب البيرة، وأصبح يشرب بدلًا من صندوق البيرة زجاجة ويسكي واحدة كل يوم، هو نجّار متقاعد، يقول إن البيرة تجعل بطنه ينتفخ، أما الويسكي فلا يفعل هذا، فإذا انتفخ بطنه، لا يستطيع أن يرى عضوه الجنسي ليمسك به أثناء تبوّله، وبالتالي سيذهب البول في اتجاهات مختلفة، غير مستحبّ ذهابه إليها.

هو: واليوم هل شربت صندوق جعة قبل أن تأتي إلى هنا؟

أنا: نعم شربت صندوقًا من الجعة، لكني تركت الزجاجتين الأخيرتين مدفونتين في الرمال، لأحتسيهما حين عودتي من موعدي معك. لكني أؤكّد لك أيها الطبيب أنه ليس هناك أي فرق بين أن أكون ثملًا أو أن أكون في كامل وعيي. فإني أختزن في جسدي قدرًا كبيرًا من الجعة، يمكنني اجتراره عند اللزوم، مثلما يفعل الجمل الذي يسمّونه سفينة الصحراء، الذي يعتاد على تخزين الماء في جسمه لحين اجتراره عند اللزوم.

هو: أعتقد أنني أرى الآن السبب في معاناتك.

أنا: انتظر قليلًا أيها الطبيب، قبل أن تصدر حكمك عليَّ، فعدا موضوع الأقزام الذين يضايقونني بدهس خضراواتي، هناك موضوع آخر يضايقني، وهو أنني أثناء إقامتي على الشاطئ المهجور حدث أن اصطاد زملائي قطًّا سمينًا، وقاموا بذبحه وسلخه وشيّه، وتناولت معهم من لحمه، وهو ما يسبّب لي الكثير من الألم كلّما تذكّرته. أنا لم أكن أريد أن أفعل هذا، لكن أفراد العصابة الذين كانوا من أصول قبائلية، أرغموني على أفعل هذا الشيء.

هو: الشيء المؤكّد يا أستاذ فلفل هو أنك تتمتّع بخيال خصب. يمكنني أن أنصت إليك بلا ملل ساعات طويلة.

أنا: أقسم لك أنها الحقيقة أيها الطبيب.

انطلق الطبيب في شرح حالتي، مستعملًا مجموعة من المصطلحات الطبية التي لم أفهم منها أي شيء. أعاد استعمال بعض مصطلحات تشريح المخّ، التي سبقت لي قراءتها على اللوحات والصور في قاعة الانتظار. بالإضافة إلى مجموعة مصطلحات حديثة مثل الألزهايمر، وحالات فقدان الذاكرة التلقائي، والاختياري، والإجباري، وتجاويف الذاكرة، وفقد ملكة الإدراك بالحواس، أو فقد القدرة على تفسير دلالات المنبّهات الحسّية، وبعد هذه المتاهة الطويلة وصل إلى نتيجة.

هو: إن مرضك هو متلازمة كورساكوف.

أنا صارخًا: مَن هو كورساكوف هذا؟ ولماذا يؤذيني؟

هو: كورساكوف هو عالم نفس وطبيب أمراض عصبية، من القرن التاسع عشر، كرّس حياته لدراسة الأعراض المختلفة لأمراض المخّ، ولسوء الحظّ مات في سن السادسة والأربعين، وهو لم ينتهِ بعد من أبحاثه الهامة.

بانت على وجهي علامات الحيرة.

هو: باختصار، ومن العلامات المبدئية، هناك ما يدلّ على إصابتك بهذا المرض، إلا أنه يلزمنا المزيد من البحث للتأكّد من التشخيص النهائي. أنت تستهلك كمّيات كبيرة من الخمور منذ سنوات طويلة،

لذلك أنت تجد صعوبة في استرجاع ذكريات هامة في حياتك، وفي استيعاب الأحداث الحالية. فإذا كنت سأصدّقك في موضوع الأقزام، فكيف لي أن أصدّقك في موضوع الديناصورات؟ أنت تنسج في خيالك روايات خرافية تعتقد أنها الحقيقة.

أنا: إذَنَ أنت أيّها الطبيب تعتقد أنني كاذب.

هو: ليس هذا هو مجال توجيه الاتهامات. يجب عليك أن تفهم أن نصف العلاج هو دقّة تشخيص المرض، وأنا لا أزال في مرحلة عدم التأكّد. ومع ذلك فأنا نادرًا ما أخطئ في تشخيص هذا المرض، وهو بالمناسبة موضوع رسالتي للدكتوراه، التي حصلت فيها على تقدير مشرّف جدًّا. لكني أنبّهك إلى أن العلاج قد يستغرق وقتًا طويلًا.

حسب صورة جاري العجوز في التلفزة الداخلية، هو ينام على كرسيه بعد أن وضع ساقيه على المائدة أمامه. انصرفنا معًا. ثم بدأت في العودة وحدي إلى الطبيب، بشكل دوري لإجراء المزيد من الاختبارات، قال لي بعدها: إن مرضي أخطر مما كان يتوقّع، وإن هناك إصابات دماغية خطيرة. بهذه الكلمات أحسست بأنه لا أمل لديَّ في الشفاء، وأن حالتي ميؤوس منها، وأن الطبيب يريد في الحقيقة أن يتخلّص مني. ثم سقط قلبي في قدمي عندما قال.

هو: أنا لا أريد أن أجعلك تتعلّق بأي أمل خادع؛ لأن مرضك في الحقيقة لا علاج له، على الأقل في الوقت الراهن، وفي المدى الحالي التي وصلت إليها معلوماتنا عن أمراض المخّ. كل ما أستطيع أن أفعله

لك هو أنني سأصف لك بعض الأدوية التي ستخفّف من وقع الآثار الجانبية.

أنا: أنا لست مريضًا إلى هذا الحدّ أيّها الطبيب.

هو: «كل المرضى يقولون نفس الشيء في محاولة منهم لإنكار الواقع. نصيحتي الوحيدة لك هي أن تتوقّف تمامًا عن احتساء الخمور. ولا قطرة واحدة طوال ما يتبقّى لك من العمر». ثم كتب لي بخطّ يده على ورقة، نصائح بخصوص النظام الغذائي الذي ينبغي أن أتّبعه، بالإضافة إلى وصفة طبّية لأخذ حقن في الوريد من فيتامين باء واحد، بشكل منتظم مستمرّ. عندما بدأت في أخذها كنت أصاب في كلّ مرّة بحالة إغماء بعد كلّ حقنة. خلال كل تلك الفترة العلاجية، لم يفارقني أبدًا جاري العجوز، الذي أصبح صديقي الوحيد. لم يفعل صديقي معي ما اعتاد السود على فعله مع المرضى العقليين، وقد لاحظت هذا بنفسي مع بعض المرضى العقليين من سكّان الحيّ، بربط سيقانهم إلى جذوع أشجار النخيل والمانجو لمنعهم من الحركة. يظلّ هؤلاء المرضى يعوون مثل الكلاب نهارًا وليلًا، حتى إن الكلاب أنفسهم يتوقّفون فعلًا أمامهم، وهم يتساءلون عن هذا العالم الغريب الذي يجدون أنفسهم فيه، حيث يعوي البشر مثل الكلاب. ثم عادة ما تنتهي القصّة بنقل المريض للإقامة الدائمة في إحدى المصحّات العقلية، وانقطاع صلة ذويه به.

في نهاية كل جلسة علاجية، كنت أهبط إلى الطابق الأرضي، ليستقبلني صديقي العجوز في كلّ مرّة بنفس العبارات.

هو: أنا فخور بك يا صديقي فلفل، فأنت بدأت تعتمد على نفسك فقد شاهدتك أمس وأنت تعود إلى كوخك معتدل القوام، ورأيت كيف أنك ذهبت رأسًا إلى فراشك لتنام عليه، كأي رجل ناضج، وهذا يشجّعني على أن أقول لك: إنني أظنّ أن علاجك سينجح في حصولك على الشفاء. وهكذا يمكنني أن أتركك حرًّا في تصرّفاتك خلال هذا الأسبوع، على أن نلتقي بعد سبعة أيام بالتمام والكمال، للعودة معًا إلى عيادة الطبيب. يبدو لي الآن أن صديقي العجوز كان شديد التفاؤل زيادة عن الحدّ. فبعد مرور ثلاثة أشهر من بدء العلاج، كنت لا أزال أعاني من نفس الأعراض، التي كنت أعاني منها قبل ثلاثة شهور. كأن كل جلسات العلاج هذه كانت غير مجدية. فكنت أعود مرارًا وتكرارًا إلى رواية نفس الحكايات، فأحكي للطبيب عن أقزام الحديقة وعن سبانخي المسكينة، وسيّارة الشركة البحرية التي يرحلون فيها، وعن المكمّلات الظرفية في النحو الفرنسي. في الجلسة العلاجية الأخيرة قال الطبيب.

هو: أنت أصعب مريض بمتلازمة كورساكوف قابلته في حياتي. بالإضافة إلى أنك أقلّهم أدبًا وتهذيبًا، فأنا لم أقبل مريضًا على نفس هذه الدرجة من الوقاحة.

أنا: لقد حقّقت بعض التقدّم مثلما يقول جاري العجوز.

هو: هذا ليس صحيحًا، فأنت تأتي إليَّ في كلّ مرة، ورائحة الخمر تفوح من فمك. أنت لا تنصت أبدًا إلى نصائحي.

أنا: أعطني فرصة أخيرة أيّها الطبيب.

هو: لن تكون هناك فرصة أخيرة. لقد استنفذت رصيدك لديَّ. وأطلب منك أن تخرج الآن من هذه العيادة، وألَّا تعود أبدًا بعد ذلك إلى وضع قدمك فيها. أنا لا أريد أن أراك أبدًا بعد ذلك على الإطلاق.

لم أغادر مقعدي رغم أنني أحسست بتراكم غضب الطبيب.

هو: إذا لم تخرج الآن من هنا فسأتصل بالشرطة، وأنت تعرف إلى أين سيذهبون بك. فإذا لم تكن تعلم، فإنهم سيذهبون بك إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث ستقضي بقيّة حياتك.

انتفضت في مكاني واتجهت نحو باب الخروج، لكني استدرت وصرخت بهذه الكلمات.

أنا: منذ اليوم الأول وأنت تسخر مني. سأخرج من هنا الآن، لأذهب على الفور إلى طبيب آخر، سيكون حتمًا أفضل منك.

ثم عندما لمحت الحلّة المعدنية على مائدة الأشياء، قلت:

أنا: أنت تشبه هذه الحلّة المعدنية، فمن الخارج شكلها لامع ولطيف، مثل شكلك تمامًا، إلا أننا عندما نرفع غطاءها نكتشف أنها خاوية تمامًا من الداخل، وهو نفس ما يمكننا العثور عليه داخلك، الخواء التام.

عندما شاهدني جاري وعرف بما دار بيني وبين الطبيب، اقترح عليَّ أن نلجأ إلى أحد المعالجين الروحيين القبائليين.

(١٣)

لم يعد جاري يصاحبني في زياراتي إلى المعالج القبائلي، خاصة أن كوخ هذا المعالج يقع على بعد دقائق من كوخي. وقد حدث لي في بعض الأيّام أن ذهبت إليه وعدت إلى كوخي، وذهبت إليه وعدت إلى كوخي، ستّ مرّات؛ لأنني في كل مرّة عدت فيها إلى كوخي، تذكّرت شيئًا أردت أن أخبره به، فعدت إليه، حتى أصابه الملل مني وقال.

هو: لماذا لا تتركني لقيلولتي؟

من مزايا هذا المعالج، أنه لا يقبض أي شيء من المريض، حتى لحظة حصول المريض على الشفاء التام. كان هذا المعالج راضيًا تمامًا عن نفسه، وبالتالي يشعر بالاكتمال، ولذلك لم تكن النقود تمثّل لديه أي أهمية. انظروا بأنفسكم كيف يقدّم نفسه إلى زوّاره عبر المعلومات المسجّلة على لوحة معلّقة على باب داره.

المعالج نجام بيكا/ من النسل المباشر للملك ماكوكو/ الساحر الخاص السابق لعمدة المدينة/ الساحر الخاص السابق لرئيس الجمهورية/ المتخصّص في علاج الأمراض التي يقول عنها الأطبّاء

الغربيّون إنها مستعصية/ المتخصّص في علاج الأمراض المعروفة وكذلك الأمراض غير المعروفة أي تلك الأمراض التي لم تكتشف بعد/ يعيد إلى الرجال زوجاتهم الغاضبات في أقلّ من ٢٤ ساعة من اختفاء الزوجة/ يضمن الشفاء التام من مرض العقم لدى النساء/ ومن مرض العجز الجنسي لدى الرجال/ يضمن الشفاء التام من الفتق السُّرِّي والإِرَبي/ يقدّم أعمالًا سحرية للفتك بالأعداء/ يمكن للمرضى الموجودين لدى الساحر في أوقات الوجبات تناول طعامهم معه/ لا يدفع المريض أي نقود حتى يحصل على الشفاء التام.

شعرت بالراحة النفسية مع هذا الساحر المعالج منذ اللحظة الأولى. هو رجل عجوز صغير الحجم ضعيف البنية، رفع التكليف بيني وبينه على الفور بأن ناداني باسمي المجرّد (فلفل)، ثم قدّم لي كأسًا من نبيذ النخيل، وإذا بنا بعد مرور دقائق على بداية أول لقاء، نضحك معًا على نفس النكات، وكانت بخصوص المصطلحات الطبية التي يستعملها الأطباء الغربيّون. ذكرت له على الفور أن الطبيب المتفرنج منعني من احتساء الخمور حتى نهاية عمري، قال.

هو: إن هذا الطبيب غير جدير بالاحترام، إذ يبدو أنه ترك دماغه في فرنسا، حيث حصل على شهاداته، وعاد إلى بلاده بعلبة عظميّة خالية دون دماغ.

بعد بضع كؤوس وصلت إلى حالة السُّكْر، وكنا مستمرّين في الضحك، على ما يستحق وما لا يستحق، حتى أحسست أن المعالج قد نسيَ، أنني مريض جئت إليه من أجل الحصول على علاج من مرض

فقد الذاكرة الذي أعاني منه. ففي كل مرة كنت أنتهي من احتساء كأسي، كان يعود إلى ملئه لي من جديد.

هو: نحن نشرب نخب صحّة الأسلاف، الذين لم يعرفوا أبدًا كلّ تلك الأمراض التي نعرفها نحن الآن. سنبدأ علاجك غدًا؛ لأنني أحتاج هذه الليلة إلى الانفراد بالأسلاف، لأسألهم عن حالتك.

عندما عدت إليه في صباح اليوم التالي، كنت أفضل حالًا بعد أن قام أحد أصدقائي وجيراني بحلاقة شَعر رأسي الذي كان قد طال جدًّا، وأعارني صديق آخر ملابسه الجديدة، التي هنّأني عليها المعالج قائلًا إنها تدلّ على حسن الذوق. لكنه أشار بامتعاض إلى أن شَعر رأسي لم يُحْلَق بطريقة احترافية، فهناك تفاوت بين مستويات حلاقة الشَّعر في أماكن مختلفة من الرأس. ثم أشار إلى الأقنعة الستّة المتدلّية من سقف الحجرة، كأنها رؤوس لرجال مشنوقين، وسألني ماذا ألاحظ؟

أنا: إنها رؤوس قبيحة جدًّا، كأنها مسوخ أو رؤوس تمّ عمدًا تشويهها.

هو: انتبه إلى ما تقول، ولا تنطق بكلمة سخرية واحدة، فإنهم ينصتون إلى ما تقول، ثم إنني بقيت الليل كله، أتحاور معهم بخصوص حالتك، وأؤكّد لك أنك لن تحصل على الشفاء التام إلا بمساعدتهم.

أنا: كيف سيفعلون هذا وهم معلّقون هكذا في السقف؟

كأن بعوضه قرصته، إذ جحظت عيناه، واحمرّ لونهما، ثم اندفع في حديث طويل، انفرد هو فيه بالكلام، ولم أستطع أن أوقفه.

هو: أنصت إليَّ جيدًا. إن الحديث مع الأسلاف هو شيء يخصّني أنا وحدي ولا يخصّك أنت على الإطلاق. وأنت لا تعرف بعد حدود إمكانياتي الاستثنائية. فأنا من الذرّية الشرعية المباشرة للملك ماكوكو، وابن عمّ الملك لوانجو، الذي شنقه الألمان سنة ١٩١٤؛ لأنهم أرادوا تنفيذ مشروع معماري، كان سيمحو المملكة من الوجود، لصالح الامتداد العمراني للمدينة. أسلافي كانوا من قبائل الدوالا، وهم كونغوليون مثلي ومثلك، إلا أنهم كانوا يحبّون كثرة التنقّل، ولذلك لم يبقوا طويلًا في مكان واحد. كان هذا في القرن السادس عشر، عندما أوصلهم تنقّلهم إلى مصبّ نهر ووري، حيث وجدوا أن الأوضاع تسمح لهم بالاستقرار هناك، وهكذا أنشأوا مدينة دوالا. وفي كل مرة أذهب إلى الكاميرون، للبحث عن مواد طبية نباتية لعلاج الفتق الإربي، الذي يجعل الأمعاء تسقط منه إلى الخصية في خارج تجويف البطن، أقف في الطريق عند دوالا، وأتحدّث مع السكّان بلغة الدوالا التي أتقنها، دون أي لكنة في لغتي، فهم كما قلت لك من ذريّة أسلافي.

كان أسلافي هؤلاء أثرياء جدًّا، ويملكون كمّيات كبيرة من الذهب، وكان لكل رجل منهم نسوة كثيرات، من بينهنّ مَن هي زوجة شرعية، ومَن هي محظيّة. ورغم كل هذا الثراء والبذخ، فقد تخلّى أسلافي عن كلّ شيء، وكرّسوا حياتهم لخدمة الفقراء. فبدأوا أولًا بتوزيع ثرواتهم على الفقراء، ثم ثانيًا بدراسة كيفية استخدام قدراتهم غير الطبيعية في الإنصات إلى نصائح أرواح الأجداد في علاج أمراض الفقراء. وكانت تلك الأرواح تحلّ فيَّ مثل تلك الأقنعة المعلّقة في سقف كوخي.

ثم إنني أفعل الآن مثلهم، فأنا أزهد في الأموال، التي كان يمكنني أن أكسبها بسهولة، لو فعلت مثلما يفعل الأطبّاء الغربيون، الذين يجعلون المريض يدفع قبل حصوله على العلاج. هل من المعقول أن تذهب إلى ميكانيكي سيّارات، فتدفع له أجر إصلاح السيّارة، ثم تذهب لاستلام سيّارتك فتجدها لا تزال معطوبة، ومع ذلك لا يردّ لك الأجر الذي دفعته. الحقيقة هي أن الطرق التي نجح بها أسلافنا في علاج الأمراض لا تزال مجهولة لنا، ولا تزال أسرارها غامضة علينا.

هو: أنا أريدك أن تكرّر كل يوم أنك لم تعد مريضًا، وأن المرض الذي كان أصابك قد أصبح من ذكريات الماضي. فأنت بطرقك على بابي قد أحسنت الصنع، فأنا أؤكّد لك أنك ستستعيد ذاكرتك وكل ذكريات حياتك منذ اليوم الذي وضعتك فيه أمك إلى هذه اللحظة.

كنت أتردّد على كوخه، فأحتسي كل الخمور التي كان يقدّمها إليَّ، أثناء انشغاله هو بتلاوة صلواته أمام الأقنعة بلغة لا أفهمها. كان يجعلني في بعض الأحيان أشرب بعض السوائل التي تشبه في قوامها ولونها البول البشري، أو أحيانًا سوائل لزجة بلون أحمر داكن يشبه لون الدمّ. كما كان يجعلني آكل حشرات تشبه الجراد، وكائنات أخرى صغيرة خضراء تشبه الضفادع. بل إنني أكلت ذات مرة جلدًا سميكًا مثل جلد الفيل. وبما أنني كنت غالبًا أذهب إليه عند منتصف النهار، فكنت كذلك غالبًا ما أشاركه طعامه في وجبة الغذاء.

هو: يجب على الأطباء الغربيين أن يعرفوا أن مشكلة بعض المرضى الأفريقيين هي الجوع، وليست المشكلة في أي مرض عضوي آخر.

كانت زوجته هي التي تطبخ بعناية كبيرة طعام وجبات الغداء، وتعدّ لنا المائدة ثم تختفي. كانت امرأة عجوزًا بفمّ يكاد أن يكون خاليًا من الأسنان. كانت طبّاخة ماهرة، حتى أنني كنت ألتهم في دقائق قليلة، كلّ ما هو موضوع في طبقي. كانت هناك غالبًا قطع من اللحم، في صلصة من زيوت الفول السوداني مع عجائن المانيوك. كنت ألتهم طعامي قبله، فيشير إلى زوجته بأن تعيد ملء طبقي. كما أنهما قدّما لي كذلك لحم الظباء بعجينة الفول السوداني، وكان هذا في رأيي أفضل طبق قدّماه لي، رغم ما به من بهارات كثيرة كانت تقرصني في معدتي. وعندما كنت أصاب بالإسهال، كان يقول: إنني بذلك أتخلّص من كل الأشياء السيّئة المتراكمة في ذاكرة أمعائي.

هو: في الشفاء التقليدي من أمراض الأمعاء، تخرج كل الأشياء السيّئة المتراكمة في الأمعاء في شكل إسهال.

وذات يوم كنت عنده ليلًا، واحتسيت كمّية كبيرة من الخمور، حتى أنني لم أعد قادرًا على الوقوف، ناهيك عن العودة مشيًا إلى منزلي، فدعاني إلى قضاء الليلة عنده قائلًا:

هو: هكذا يمكن للأقنعة أن تراك أثناء نومك، فتخترق دماغك بينما أنت نائم. إنهم سيخترقون دماغك، وينظّفونها من القاذورات التي بها.

أعدّت زوجته لي فراشًا على الأرض، في قاعة الاستقبال حيث الأقنعة، مكونًا من مرتبة وملاءة بلون كان أبيض في الماضي، بالإضافة إلى تلوّثهما ببقع من الدماء الحمراء. عندما لاحظ المعالج اشمئزازي من قذارة الملاءة، قال:

هو: لقد غسلناها جيّدا هذه الملاءة، إلا أنه لا يمكن التخلّص بسهولة من بقع الدمّ.

عندما أطفآ الأنوار وذهبا لينامَا، بدا لي كما لو أن أعين وجوه هذه الأقنعة تشعّ بضوء غريب يتجه نحوي. استمعت إلى صوت شخير المعالج وزوجته قادمًا من حجرة نومهما. وعندما نجحت أخيرًا في النوم، أصابني كابوس، كنت فيه أجري وكانت هذه الرؤوس تجري خلفي تطاردني، كأنها قد نبتت لها أذرع، تحمل رماحًا في أيديها تطلقها نحوي. كأنني كنت أضع قدميّ في حذاءين سحريين، يطيران بي طيرًا بسرعة سبعة فراسخ في الساعة، قفزت بهما فوق بحيرات وأنهار، وطرت بهما فوق غابات شاسعة، مع إحساس بالفخر من أنني تمكّنت من تضليل أعدائي. لكن أصابتني خيبة أمل عندما أدركت أنهم يلحقون بي، وأنني أسمع أصواتهم تقترب من مكان مخبئي. اكتشفت أنهم يخترقون الغابة عبر غطائها النباتي الكثيف، فبدأت يداي ترتعشان، وأسناني تصطك. لكني استعدت الأمل، عندما سمعت أصوات معاناة الأقنعة، من الجروح التي تسبّبت لهم فيها أشواك أفرع الأشجار، وقرصات البعوض هائل الحجم. استمرت هذه المطاردة طوال الليل، ولم تنتهِ إلا في لحظة سماع صوت الديك وهو يعلن عن فجر يوم جديد. عندما فتحت عينيَّ، كان ضوء النهار يملأ القاعة، وأدركت على الفور أن الأقنعة قد غادرت مكانها، وتزاحمت كلّها فوق الجدار الجانبي للقاعة، كأنها تبتعد عنّي قدر استطاعتها؛ لأنها أدركت أنني أقوى منها. حينها قلت في نفسي: حتى هذا الساحر، لن يقدر على مساعدتي في الحصول على الشفاء.

بمرور الأيام والليالي تكرّرت نفس هذه الأحداث بحذافيرها، ولهذا بدأت ألاحظ أن نظرة المعالج الودود قد حلّت محلّها نظرة عدائية غاضبة، وتوقّف عن السخرية من الأطباء الغربيين، وتوقّف كذلك عن تقريظ الوسائل القبائلية في العلاج التي تناقلتها الأجيال عبر مئات السنين في الكونغو وأنجولا والكاميرون. ذات يوم حضرت إليه كالمعتاد في موعد الغذاء، فلم يسمح لي بالدخول، بل وقف على باب بيته كأنه يمنعني من الدخول، وقال إنه ليست لديه اليوم وجبة غذاء يقدّمها إليَّ.

أنا: كان يجب عليك أن تخطرني بذلك منذ وجبة الأمس، فأنا لم أضع في فمي أي طعام منذ ٢٤ ساعة، معتقدًا أنني سأجد هنا وجبة غذائي المعتادة.

أمام هذه الوقاحة التي لا أعرف من أين جاءتني، انفجر غاضبًا.

هو: من الآن فصاعدًا إذا أردت أن تأكل، فعليك أن تشتري طعامك بنفسك، وألَّا تعتمد على أن يطعمك شخص آخر. هل أنت تعتقد أن وجبات الطعام التي تناولتها عندنا طوال هذه المدّة كنا نجدها في قمامة الشوارع؟ لقد دفعت فيها ثمنًا باهظًا. هل تريد أن تعرف ماذا قالت لي أقنعة أسلافي؟ وما الأحاديث التي تتبادلها فيما بينها بخصوص مرضك اللعين؟ هم يعتقدون أنك تدَّعي المرض، وتؤلّف الأعراض من خيالك الخصب. تفعل كلّ هذا حتى تضمن الحصول كلّ يوم على وجبة غذاء مجّانيّة. هم اختبروك في الليالي التي نمت فيها هنا، وتأكّدوا مما قالوه لي. لكنك لن تخدعني بعد الآن. لذلك أطالبك بسداد الأموال التي

دفعتها أنا ثمنًا لوجباتك، ومقابل العلاجات التي قدّمتها لك. فإذا لم تفعل فسأرسلك في صندوق إلى العالم الآخر.

قضيت بقيّة النهار في تفكير عميق، ثم في صباح اليوم التالي عدت إلى المعالج. وقد ساعدني جاري العجوز، الذي كان على علم بكلّ التطوّرات، في الحصول من الأسواق، على الجراد والضفادع وجلود الأفيال، حملتها إليه بالإضافة إلى وجبة له ولزوجته من لحم الخنزير بالسبانخ. عندما فتح لي الباب قال.

هو: هل تعتقد أن ما تحمله هذا سيكون كافيًا لسداد الديون التي عليك؟ أنت واهم. عليك أن تدفع المال السائل لسداد الديون.

أنا: لكنني لم أحصل على الشفاء بعد، وأنت قلت إنني لن أدفع أي شيء إلا إذا حصلت على الشفاء. ثم أنا لم أطلب أبدًا من زوجتك أن تعدّ لي طعام الغذاء، بل إنها هي التي كانت تقدم على فعل هذا من نفسها.

هو: إذَنْ لا تضع قدمك هنا مرة أخرى. اذهب للبحث عن معالج آخر. فأنا من أصول نبيلة، ولن أسمح لنفس بالدخول في مهاترات مع شخص دنيء كاذب منافق من أمثالك.

أنا: أنت النصّاب؛ لأنك وعدتني بالحصول على الشفاء، ثم لم أحصل منك على ما وعدتني به. أنت وزوجتك ساحران سرّيران.

هو: هل أنت تصف زوجتي بأنها ساحرة شرّيرة؟ انتبه تمامًا إلى ما تقول، فأنا يمكنني أن أصيبك بلعنات لا تشفى منها حتى يوم وفاتك.

سترى ماذا سيحل بك من لعنات، فأنت لست إلا في بداية طريق العذاب.

ابتعدت عنه بالسلّة التي أحملها في يدي، وأنا أنصت إلى تهديداته بإرسال حيوانات إلى كوخي أثناء الليل تقلقني في نومي. قال: إن تلك الحيوانات ستكون بأجسام حيوانية، ولكن برؤوس وعقول بشرية.

أصابت جاري العجوز حالة من اليأس بخصوص إمكانية حصولي على علاج من مرضي العقلي. ثم بدا لي أنه سينفض يديه تمامًا عن مسألة محاولة علاجي.

هو: أنت لا يمكن أن تكون هكذا على صواب طول الوقت، في حين يكون كل الآخرين مخطئين، أولًا الطبيب الحاصل على شهادته من فرنسا، ثانيًا المعالج الروحاني القبائلي.

إذَنْ عليَّ من الآن أن أعتمد على نفسي في كل شيء. فلم يعد هناك أي شخص يقبل مساعدتي.

❊ ❊ ❊

المغربي

ذهبت إلى ترزي في حي الثلاثمائة، وطلبت منه تفصيل رداء لي من قماش باللون الأخضر، ثم اشتريت عند أحد تجّار غرب أفريقيا في السوق الكبير حذاءً جديدًا من النوع الطويل ذي النهاية المدبّبة، الذي كانوا في العصور الوسطى يطلقون عليه اسم (الحيزوم)، وهو حذاء مستطيل برأس أو مقدّمة مرتفعة. كان للرداء الأخضر غطاء رأس من نفس اللون، ثبّتُّ في أعلاه ريشة طاووس ملوّنة، انتزعتها من جسم طاووس كان يتبختر في الأنحاء حول كوخي، وتأكّدت أنه من بين الحيوانات الشرّيرة، التي هدّدني المعالج بإرسالها إليَّ، قائلًا إنها ستلتهم مادة الدماغ.

لم أكن ممتطيًا صهوة جواد، ولم يكن لديَّ القوس والأسهم مثل تلك التي كانت لروبين هود، لكني وجدت نفسي ذات صباح أمشي بهذا الرداء وبهذا الحذاء بخطوات سريعة على ضفّة نهر تشينوكا. بعد نصف ساعة من المشي، اكتشفت أنني أمسك في يدي سكّينًا ذات نصل حاد. ثم وجدت نفسي أقول بصوت عالٍ وبشكل متكرّر: إن النبي موسى في سنّ الأربعين، وهو السنّ الذي أبلغه الآن، بل بالأحرى أنا أحتفل بعيد ميلادي الأربعين اليوم، قد ثار على الأوضاع السيّئة، التي

عانى منها الشعب اليهودي في مصر، وعندما وجد رجلًا مصريًّا يسيء معاملة خادمه اليهودي الذي يعمل يعمل تحت إمرته، قتل موسى الرجل المصري انتقامًا لليهودي.

عندما لمع نصل السكين تحت أشعّة شمس ذلك النهار، ظننت أن ذاكرتي أخيرًا قد عادت إليَّ، وأن هذا السلاح القاتل الذي أحمله في يدي، هو الذي سيعيد إليَّ شخصيّتي المفقودة، ويمكنني بالتالي أن أتخلّص من القيود، التي وضعتها الظروف حول ذراعيَّ وساقيَّ، وحكمت عليَّ أن أظلّ سجينًا. إن مهارتي في استعمال هذا السلاح الأبيض مثل المهارة التي كانت لروبين هود في استعمال القوس والأسهم، تجعلني متأكّدًا من أن جذوري العرقية عبر أبي وأجدادي، أبي الذي لن أعرفه حتى آخر يوم في حياتي، هذه الجذور لا بدّ أنها تمتدّ إلى واحدة من القبائل النقيّة العرق.

هل يمكنني الآن أن أحمل لقب (روبين هود بوانت نوار)؟ أم أنني سأظلّ في نظر الزملاء في كلّ العصابات التي انضممت إليها، أحمل لقب (فلفل الصغير)؟ فلفل الذي كانت أكبر إنجازاته هو وضع مسحوق الشطّة في غذاء التوأم، قبل أن يقرّر لاحقًا ترك دار الأيتام معهما، والانضمام إلى عصابتهما. لم يعد هذا الانجاز التافه يشرّفني على الإطلاق، بل كنت متأكّدًا أن إمكانياتي هي أكبر من ذلك بكثير. لكن عليَّ تقديم الإثباتات والأدلّة.

كنت قد اشتريت هذه السكّين من متجر المغربي أحمد السادس عشر الذي يقع بالقرب من ميدان كاسّاي، ورغم الخلط والاضطراب المسيطرين على أفكاري، فلأول مرّة أشعر بتصاعد موجة الذكريات

إلى دماغي، مما جلب لي قدرًا من السعادة، رغم أن تصاعد هذه الموجة كان عشوائيًّا، وغير دائم ولا مستقرّ. كان البائع المغربي قد ساعدني في العثور على السكّين التي أبحث عنها. وعندما لاحظ إعجابي بها، اعتقد أنه يمكنني أن أهرب بها دون دفع الثمن، لذلك وقف يسدّ باب المحلّ بجسده.

هو: أيها الصديق، يمكننا أن نتفق على الثمن، ثم لديَّ كذلك بنادق صيد يمكنني أن أعرضها عليك.

أنا: لا ... أنا لا أريد إلا هذه السكّين.

هو: أنت لن تندم أبدًا على شرائها، فأنا أحمد السادس عشر، ابن أحمد الخامس عشر، وحفيد أحمد الرابع عشر، أؤكّد لك أن السعر الذي أعرضه عليك، لن تجد مثله في أي متجر آخر. فنحن كما تعرف بمثابة إخوة، فأنت أفريقي وأنا كذلك، وتجري في عروقنا نفس الدماء. وأنا لا أنسى أبدًا أنه بفضل مواطني الكونغو، أكسب أكل عيشي أنا وزوجتي وأولادي. بل إني أتمكن حتى من إرسال جزء من مكاسبي إلى أمي وأخواتي في جنوب شرق المغرب، حيث (مرزوقة) قرية مسقط رأسي، هناك وأنا طفل تعلّمت اللعب فوق التلال الصحراوية، ومطالبة السيّاح الذين يرتحلون على ظهور الجمال، ويخيّمون في الصحراء على أطراف قريتنا، ببعض قطع النقد المعدنية. أحسست أنه ينوي أن يحكي لي قصّة حياته.

ولمقاطعة هذا الاسترسال غير المرغوب فيه، داعبت نصل السكّين ومقبضه. قال:

هو: إنها لك يا صديقي، وسأقبل الثمن الذي ستعرضه عليَّ، مهما كان منخفضًا. أنا لا أريد أن أكسب فيه أي نقود، بل ادفع لي فيه فقط الثمن الذي اشتريته به. لكن لاحظ أولًا أنه من الحديد الصلب غير القابل للتأكسد، وهو بالتالي لا يصدأ ولا ينكسر. ثم إنه من إنتاج شركة فيكتورينوكس الشهيرة في سويسرا، وهي صاحبة أفضل إنتاج لهذا النوع من الأسلحة في العالم أجمع، ويمكنك الاستقصاء.

أنا لم أكن أصدّقه، فهو لم يكن مشهورًا بالأمانة، ثم إنه ينجح دائمًا في أن يبيع لك أيّ شيء لديه، فحتى لو لم تكن معك النقود الكافية لشراء ما تختار، فهو يقول لك يمكنك أن تعود بالنقود في وقت لاحق، فهو لا يهتم بكسب النقود، بل يهتم بكسب البشر. وقد شاع عنه أنه أحضر معه من المغرب إلى الكونغو، مرآة سحرية وضعها في متجره، بحيث تكون في مواجهة الزبون لحظة دخوله إلى المتجر، فيقع الزبون أسيرًا لسحر المرآة، ولا يخرج من المتجر إلَّا وقد اشترى شيئًا، حتى لو لم يكن في احتياج إليه.

ولا تتوقّف الشائعات عند هذا الحدّ، بل هي تقول إن هذه المرآة تلتهم إنسانًا مرّة كلّ شهر، وإن هذا هو السبب الحقيقي في وقوع الكثير من حوادث المرور، في هذا الشارع أمام باب هذا المحلّ. ورغم ذلك فإن رجال الشرطة لم يجرؤوا على استجوابه، خوفًا من انتقام مرآته. ثم هناك ملاحظة أخرى، وهي أن أغلب علب الأغذية المحفوظة المحتوية على السردين، المكتوبة عليها عبارة (صُنع في المغرب)، تجد أن سردينها مقطوع الرؤوس! قل لي كيف يتمكن المغاربة من قطع رؤوس

الملايين من هذه الأسماك الصغيرة، إلا لو أن في الموضوع قدرًا من السحر؟

في النهاية أعطيته ورقتين ماليتين من فئة العشرة آلاف فرنك كونغولي، وضعتهما أمامه على المائدة، قال:

هو: يا أخي لماذا تدفع لي الآن، اذهب أولًا وجرّب السكّين، فإذا أعجبتك يمكنك أن تعود في أي يوم لاحق وتدفع لي ثمنه. بالمناسبة لماذا تضع فوق رأسك ريشة؟

خرجت من المتجر دون أن أردّ عليه.

عدت إلى ضفّة نهر تشينوكا الذي يقسم مدينة بوانت نوار إلى جزأين. هو يخترق وسط المدينة، ثم يستمر ليصل إلى أطرافها، ثم يتركها خلفه ويستأنف طريقه، بالالتفاف حول منطقة المدافن، التي تقع خارج المدينة، إلى أن يصل إلى مصبّه في مياه المحيط، حيث يتقيّأ كل القاذورات التي حملها معه من قمامة الأحياء الشعبية التي يلقيها السكّان في أحشائه. يعرف سكان المدينة أن هذا النهر يكون أحيانًا خطيرًا جدًّا؛ لأنه في حالة سقوط أمطار غزيرة، يمكن لمياهه أن تفيض وتبتلع المساكن الواقعة على ضفّتيه وتجرف معها السيّارات الموجودة في شوارع الحي، حتى لو كانت من الحجم الكبير من نوع سيّارات النقل العام.

لا أعرف كم مرة قطعت الطريق الطويل على الضفّة اليمنى للنهر حتى وصلت إلى الكوبري الذي يقود إلى حيّ (فونجو). لا أعرف لماذا كنت واثقًا أنني في هذا الحيّ سأعثر على ما أبحث عنه، حيث سأقوم

بعملي الأخير، وهو مطاردة الأرواح الشرّيرة التي تسكن جسدي وتتلف أعصابي وذاكرتي. هذه الأرواح الشرّيرة التي كنت أنوي بمجرّد أن أعثر عليها، أن أقذف بها في أعماق نهر تشينوكا، حتى تختفي إلى الأبد عندما يصبّ هذا النهر في مياه المحيط.

لاحظت أثناء مشيي على ضفّة النهر اليمنى، أن الناس الذين يأتون في مواجهتي، يبتعدون عن طريقي ويتّخذون طرقًا أخرى، كأنهم يهربون مني. قد يكون السبب هو رؤيتهم للسكّين ذات النصل الحاد اللامع في يدي. قد تكون تلك الثياب الغريبة التي أرتديها وتعود إلى أزمان ماضية هي السبب. كنت فخورًا بنفسي كوني أُخيفهم إلى هذا الحدّ. ثم عندما بدأت، من أجل مزيد من الإثارة، أستعمل السكّين في طعن الهواء، بدأ الناس يقفزون في مياه النهر.

استمرّ مشيي بمحاذاة ضفّة النهر لساعات، حتى أوشكت شمس النهار على المغيب. كنت كأنني أرى عن بعد بناية ضخمة مضاءة لامعة، أبغي الوصول إليها قبل حلول المساء. أعدت تثبيت ريشة الطاووس على غطاء رأسي، بعد أن أمالها تيّار الهواء. أحكمت قبضة يدي على السكّين الذي كنت واثقًا أنه هو الذي سيعيد إليَّ كرامتي المفقودة. وصلت فعلًا إلى مسافة بضع مئات من الأمتار من البناية الضخمة، لأكتشف أن هناك سورًا يحيط به، يبلغ ارتفاعه على الأقل أربعة أمتار. ثم وجدت في السور بابًا يحرسه عملاقان ثابتان لا يتحرّكان بارتفاع عموديّ كهرباء. وجود هذين الحارسين أعاد إلى ذهني صور مراقبي الممرّات في دار الأيتام.

عندما كنت على بعد مائة متر من الباب، لمحت السيّارة السوداء الضخمة ذات الزجاج المضبّب تقف أمام الباب. كان هو هذا قصر محافظ المدينة، الرجل الذي حرمني من ماما فيات ومن أخواتي البنات. تحرّك أحد الحارسين ليفتح له الباب. خرج منها الرجل الذي لم أكن رأيته قبل الآن. الرجل الذي هو أكثر مَن أكرهه في هذه الدنيا، باستثناء عطية الله ناظر دار الأيتام. اندفعت بكل قوّتي نحوه.

* * *

لوانجو من جديد

قيل أثناء محاكمتي في جريمة القتل، أن اندفاعي كان بسبب وقوعي تحت تأثير مرضي العقلي وفقداني الذاكرة. كنت أثناء سجني ممنوعًا من استعمال كل الأنواع المختلفة من السكاكين، حتى ما كان منها مصنوعًا من اللدائن البلاستيكية. كانت مفاجأة كبيرة عندما أدركت أن مبنى السجن هو نفسه المبنى الذي كان سابقًا قبل أكثر من ربع قرن دارًا لأيتام لوانجو. ماذا فعلوا بالأيتام؟ أم أنهم هدموا المبنى القديم وبنوا مكانه هذا السجن؟ تركوني أكتب كما أشاء، بل إنهم زوّدوني بالأقلام والأوراق المطلوبة. كنت أكتب كلّ يوم من مشرق الشمس حتى مغربها، حتى حصلت على مئات الصفحات. كانوا في الحقيقة يعتنون بي.

صباح يوم الأحد كانوا يجمعون المساجين في إحدى القاعات، ثم يحضر قسّ زائيري، لقيادتنا في صلاتنا الجماعية، ويلقي علينا خطبة دينية يتحدّث فيها عن الربّ. عندما علم هذا القسّ باسمي الطويل الذي يحتوي بداخله على اسم نبيّ الله موسى، طلب من المسؤولين عدم مناداتي بموسى، كأنني لا أستحق أن أحمل اسم هذا النبيّ الذي خلّص

الشعب اليهودي شعب الله المختار من عبوديتهم لفرعون، كما فعلت أنا وخلّصت شعب بوانت نوار من عبوديتهم للمحافظ. ذلك المحافظ الذي كان يعيش في قصره الفخم، ولا يعرف على الإطلاق مدى بؤس وشقاء الفقراء في أحيائهم الفقيرة، حيث يعيشون في بيوت تشبه جحور الفئران.

ثم حدث أن اكتشفت مقابر جماعية عند سفح جبل ديوسّو، حيث كانت كلّ الجثث المكتشفة هي لنساء. هنا تساءل الناس ماذا فعل المسؤولون بفتيات الدعارة الزائيريات؟ من المحتمل جدًّا أنهم لم يعيدوا أولئك الفتيات إلى بلدهنّ، بل وقعت الفتيات ضحايا لمذابح عنصرية. فأغلب الظنّ أن سبب القتل لم يكن دينيًّا أخلاقيًّا، بل كان شعور الكراهية العنصرية السائد بين الشعبين الكونغوليين الزائيري والكنشاسي، رغم أنهما في الأصل شعب واحد.

كان هذا القسّ الواعظ يبدو لي منافقًا. كان ضخم الجثّة ولديه ملابس مفصّلة خصّيصًا له بسبب ضخامة جسمه تلك. هذه الملابس لم تكن تحمل رائحة النفتالين على غرار ملابس الأب موبلو؛ لذلك السبب لم أحب القسّ الزائيري. ففي اعتقادي منذ زمن الأب موبلو، أن ملابس القسّ الحقيقي يجب أن تحمل رائحة النفتالين. وهو بالإضافة إلى ذلك لم يكن يجيد الفرنسية، وغالبًا عندما يستعمل عبارات من الكتاب المقدّس تكون باللغة الإنجليزية التي لا نفهمها.

في ذلك السجن اكتشفت وجود صديق، كنت أستطيع أن أتحدّث إليه، إذ كان بيننا قدر كبير من التفاهم العقلي، سمحت له بقراءة أوراق

اعترافاتي التي أكتبها منذ شهور، وأعطيتُه قدرًا كبيرًا منها، فاختفى عشرة أيام، قال بعدها إنه انشغل في قراءة أوراقي، إلا أنني لاحظت أنه بعد ذلك كان يحاول أن يتجنّبني في المطعم وفي الممرات وفي الفناء، فاعتقدت أنه وجد في أوراقي ما أساء إليه دون أن أدري. عندما أعاد إليَّ الأوراق، قال: إن لديه نفس المشروع، وقد تحمّس عندما وجدني أنجح في تنفيذ مشروعي.

كان هذا الصديق في مثل سنّي، ورغم وجهه النحيل الضامر، كان جسده رياضيًّا طويلًا عريضًا وبعضلات. هو أيضًا كانت لديه مشكلة في دماغه قريبة الشبه من مشكلتي. عندما أعدت قراءة أوراقي، وجدت أنه وضع عليها علامات باللون الأحمر في مواضع عديدة، كما لو أنه كان يصحّح لي بعض أخطائي، كما أنه وضع رسومًا توضيحية لبعض المقاطع المكتوبة.

كان لهذا الصديق الجديد عادات يكرّرها بعينها كلّ يوم، إذ إنه عند قيامه من النوم في الصباح الباكر يذهب إلى نافذة الزنزانة وينظر منها يراقب السماء. قال: إنه ينتظر وصول الطائرات الصباحية، التي يراها في السماء قبل هبوطها في مطار المدينة. وذات يوم أردت أن أعرف منه السبب في ولعه الشديد هذا بالطائرات، وقلت له إنه كان لي منذ أكثر من ربع قرن أحد الأصدقاء، لم أره منذ أن كنا في الثالثة عشرة من العمر، كان أقرب أصدقائي إلى قلبي، وكان لديه نفس الولع بالطائرات.

قال: أنا هو بونافنتورا يا موسى.